أنطونيو تابوكي

رأس داماسثنو مونتيرو الضائع

رواية



ترجمة
رفعت عطفة

رأس داماسثِنو مونتيرْو الضائع

* أنطونيو تابوكي
* رأس داماسڤِنو مونتيرو الضائع
* ترجمة: رفعت عطفة

* الطبعة الأولى 1999
* الناشـــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* لوحــــــة الغلاف : د. أحمد معلا
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 4490

أنطونيو تـابوكـي

رأس داماســـثِنو مونـتـيرْو الضائـع

رواية

ترجمة: رفعت عطفة

عنوان الكتاب الأصلي:

La cabeza perdida
de Damasceno Monteiro

مقدّمة

لقد استطاع أنطونيو تابوكي، مدرّس مادّة الإيبرولوجيا (أو الدراسات الإيبرية)، التي تشمل إسبانيا والبرتغال، في جامعة البندقيّة، المولود في البندقيّة عام 1943 أن يفرضَ نفسه كواحدٍ من أهمّ الكتاب الإيطاليين بين أبناء جيله كما استطاع أن يحقّق حضوراً عالمياً في عالم الرواية، وكان قد درس وترجم أعمال الشاعر البرتغالي الشهير بِسّوَا. من هنا نرى أن أحداث روايات له تدور في البرتغال، مثل بيريرا يدّعي، التي ترصد مرحلة دكتاتوريّة سالازار، وقد جاء عنوانها محيّراً باستخدامه لفعلٍ يحمل عدّة وحدات معنى، أولاها: أكّد، أثبت، زعم وثانيها ادّعى وبين التأكيد والادعاء فرق شاسع، لكنّ الرواية تحتمله نظراً للموضوع الذي تعالجه وللمرحلة التي ترصدها.

والرواية التي بين أيدينا تُعالج موضوعاً يحدث في البرتغال في المرحلة اللاحقة على الدكتاتورية، في مرحلة الديمقراطية، لكنّها الديمقراطية التي ما تزال مؤسّساتها بأيدي من يعتبرون استمراراً للعهد السابق، سواء على صعيد العقلية التسلطية الموروثة عن العهد السابق أو على صعيد التفكير عند هؤلاء، لذلك نجدُ أنّ الهمّ الأساسي الذي تنطوي عليه الرواية هو الحرّية والقمع، والصحافي يلعب دوراً مهمّاً في كشف الحقائق، تتالي الأحداث، التي تظهر من خلال التحقيق الصحفي. ومع أنّ كلّ ذلك يحدث في مدينة محدَّدة الاسم

والموقع: أوبورتو، إلا أنّها يمكن أن تحدث في أيّة مدينة من مدن الحضارة الأوروبيّة، ، لأنّها القارّة التي شهدت كلّ أنواع الحكم، وكل أشكال الانتقال إلى الديمقراطية. إنّ الموضوع الأساسي الذي يشكل مادة الرواية هو التعذيب الوحشي الذي تمارسه أجهزة الشرطة تجاه الطبقات الاجتماعية المسحوقة أو الأقليات العرقية المهمّشة. وقد استطاع الكاتب بفعل خياله الروائي العجيب أن يحوّل المعلومات أو الأحداث من واقعها الاجتماعي الموضوعي إلى الواقع الروائي الذي أبرز فيه ثلاث شخصيات مهمّة: الصحافي فيرمينو، الشاب الذي يحاول أن تكون له شخصيته وأسلوبه، والمحامي، فِرناندو دِ مِلو سِكِيْرا، الذي لا أحد يعرفه باسمه والجميع يعرفونه بلقبه: لوتون، الفوضوي، الميتافيزيقي الدارس للفلسفة الألمانية، وريث الأرستقراطيّة البرتغالية السابقة، الخائن لطبقته وموروثها الفكري، المنتمي للمسحوقين والباحث عن خلاصهم، بانتصار إرادة الحقّ والقانون، الذي يتساوى الجميع أمامه والذي نذر نفسه للعمل، فقط للعمل، بعيداً أو قريباً قليلاً جدّاً من الإيديولوجيا، وبعيداً جدّاً عن التنظير، ومع ذلك فهو ينظر. إنّ همّ لوتون الأساسي هو العمل ضدّ الخضوع للقواعد، التي أرستها الأرستقراطيّة الأوروبية، ضدّ الاستبداد، وضد الاستسلام للاستبداد، بل وملاحقته بكلّ السبل الفاضحة والمعرّية وهي وسائل الإعلام في هذه الحالة، لإخراج القضية من يد القوى المعادية للديمقراطية. وهذا عمل يتطلّب عدم استبعاد أحدٍ في المجتمع عن عملية استكمال بناء الحقيقة: من هنا كان أن جاءت شخصية واندا، الرجل الذي تحوّل إلى امرأة، لتغلق دائرة الرواية وبالتالي دائرة الكشف عن الحقيقة، هذه الشخصية التي لولاها أو لولاه، فهي كانت هو، وصارت هي، لاستطاعت الأجهزة التغطيةَ على الجريمة التي ارتكبتها الشرطة، حامية القانون والمجرمة في آن معاً.

رفعت عطفة

إلى أنطونيو كاسِّسْ

و

مانولو الغجري

Science-fiction

O marciano encontrou-me na rua
e teve medo de minha impossibilidade humana.
Como pode existir, pensou consigo, um ser
que no existir poe tamanha anulacao de existencia?

CARLOS DRUMMOND DE ANDRADE

الخيال العلمي

(صادفني المريخيُّ في الشارع فخاف من مُحالي الإنساني.
كيف يمكن أن يوجد ـ فكّر بينه وبين نفسه ـ كائنٌ يقومُ في
الوجود بإلغاءٍ للوجود بهذا الحجم؟)

كارلوس دْرومُّنْدْ دِ أندرادِ

1

فتحَ مانولو الغجريُّ عينيه، نظرَ إلى النور الواهن المُتسرّبِ من شقوق الخصّ ونهض محاولاً ألاّ يُحدِث جلبةً. لم يكن بحاجة لارتداء ملابسه لأنّه نام بها، السترة البرتقالية التي أهداها إليه في العام الماضي أغوستينيو سيلفا، المدعو فرانز الألماني، مروِّض الأسود الأدرد في سيرك الروائع، ويستخدمها منذ زمن كبدلةٍ ومنامة. بحث باللمسِ في ضوء الفجر الواهن عن صندله الذي صار خفّاً يستخدمه كحذاء. عثر عليه وانتعله. كان يعرف الخصَّ عن ظهر قلب ويستطيع التحرّك في شبه الظلمة محترماً جغرافية الأثاث البائس الدقيقة الذي يشغله. تقدَّم بهدوء من الباب فاصطدمت قدمُه اليمنى بقنديل النفط الذي كان على الأرض. امرأة الخراء ، قال مانولو الغجري بين أسنانه. زوجته هي التي تركت قنديل النفط بجانب سريرها الفردي في الليلة السابقة، بحجّةِ أنّ الظلمةَ تأتيها بالكوابيس فتحلم بالموتى. مع الضوء المشتعل بشكل خافت، كانت تقول، لا تجرؤ أشباحُ موتاها على زيارتها وتتركها تنام بسلام.

ـ ماذا يفعل الملك في مثل هذه الساعة، يا روح موتانا الأندلسيين المعذّبة؟

كان صوتُ زوجته دبقاً ومتردِّداً، صوت من يشرع بالاستيقاظ وتُكلّمه دائماً بالخرينغونثا، خليطِ الغجرية والبرتغالية والأندلسية؛ وتُناديه بالملك.

ملكُ خراء، بهذا رغب مانولو بأن يردّ عليها، لكنّه لم يقل شيئاً. ملكٌ خراء، صحيح، في الماضي كان ملكاً فعلاً، حين كان الغجرُ مُحترمين، ويجوبون سهوبَ الأندلس بحرّيّة، يصنعون أقراطاً من نحاس يبيعونها في القرى؛ حين كان شعبُهُ يرتدي الأسودَ ويعتمرُ قبّعات اللباد الرفيعة، ولم تكن السكين في الجيب سلاحاً للدفاع، بل مجرّد جوهرة فخريّة من الفضّة. تلك فعلاً كانت أيام الملك. لكن الآن؟ الآن وهم يجدون أنفسهم مجبَرين على التّيه، الآن وقد جعل الناسُ من حياتهم في إسبانيا جحيماً بل ربّما صارت الآن في البرتغال التي لجؤوا إليها أكثر جحيماً، الآن حيث لم يعد بإمكانهم صناعة الأقراط والشالات، الآن وقد صار عليهم أن يتدبّروا أمر عيشهم بالسرقات الصغيرة والتسوّل فأيّ ملك هو مانولو؟ ملك خراء، كرَّرَ. كانت البلدية قد منحتهم تلك الأرض المليئة بالمخلّفات في أطراف البلدة الصغيرة، على أطراف آخر الشاليهات، قدموها لهم كصدقة، فهو يتذكّر جيّداً وجهَ موظّفِ البلديّة الذي وقّع الترخيصَ بتعطُّفٍ وإشفاق في آنٍ معاً. اثنا عشر شهراً من الترخيص بسعرٍ رمزيّ على مانولو أن يأخذه بالحسبان، فالبلدية لا تلتزم بإنشاء البنى التحتية، فالماء والإنارة شيء لا كلام فيه وإذا أرادوا التغوّطَ فليذهبوا إلى السياج، على كلّ حال الغجرُ معتادون ثمّ إنّهم يسمّدون الأرضَ بهذه الطريقة، لكن حذارِ، فالشرطة على معرفة باختلاساتهم الصغيرة وعيونها مفتوحة جيّداً.

ملك خراء ، فكّر مانولو، في تلك الأخصاص الكرتونية المغطاة بالزنك التي تنفجر شتاء بالرطوبة وتتحوّلُ في الصيفِ إلى أفرانٍ حقيقيّة. لم يعد لكهوف طفولته، الجافّة والجميلة، في غرناطة وجود، فهذا مخيم لاجئين، أو بالأحرى معسكر اعتقال، كان مانولو يقول لنفسه، ملك خراء.

ـ ماذا يفعل الملك في مثل هذه الساعة، يا روح موتانا الأندلسيين المعذّبة؟ ـ كرَّرت زوجته.

استيقظت توّاً وفتحت عينيها جيّداً. هي من كانت تبدو شبحاً

بشعرها الرمادي المنثور على صدرها، كما تصفّفه للنوم، متخلّصة من الربطة وذلك الروب الأحمر الذي تنام فيه.

ـ ذاهب لأبول ـ أجابَ مانولو باقتضاب.

ـ هذا جيّد ـ قالت المرأة.

سوّى من وضع عضوه، الذي أحسّ به قاسياً ومنتفخاً في السروال الداخلي ضاغطاً على خصيته حتى الألم.

ـ ما زلتُ قادراً على الطعن ـ قال ـ فكلّ صباحٍ أستيقظ وخرطومي هكذا، قاسٍ مثل حبل مشدود، ما زلتُ قادراً على الطعن.

ـ إنّها المثانة ـ أجابت زوجته ـ أنت عجوز، يا ملك، تعتقد نفسك شابّاً لكنك عجوز مثلي.

ـ ما زلت قادراً على الطعن ـ ردَّ مانولو ـ لكنّني لا أستطيع طعنكِ أنتِ، فعضوك خيّم عليه العنكبوت.

ـ إذن اذهبْ وتبوّلْ ـ ختمت زوجته.

حكَّ مانولو رأسَهُ، فمنذ أيّام وهو مصاب بطفحٍ جلديٍّ، بثورٌ حمراء صغيرة راحت تزحف من رقبته وحتى قمّة رأسه وتسبّب له حكّة غير محتملة.

ـ هل آخذ مانوليتو معي؟ ـ همس لزوجته.

ـ دعِ الطفل المسكين نائماً ـ أجابته.

ـ مانوليتو يحبّ أن يبول مع جدّه ـ برّرَ مانولو.

نظر إلى السرير الإفرادي حيث ينام مانوليتو وشعر باحتدام الرقّة. فمانوليتو في الثامنة من عمره وهو كلّ ما تبقّى من سلالته. لا يبدو حتى غجرياً، فشعره داكن ومسترسل، نعم، مثل غجريٍّ حقيقيٍّ، لكنّ زرقة عينيه باهتة، كما هما ولا بدّ عينا أمّه، التي لم يعرفها مانولو قط. ابنه باكو، ابنه الوحيد كان قد أنجبه من عاهرة من فارو، قالَ إنّها إنكليزية، تعملُ في شوارع جبل طارق وتحوّلَ باكو إلى حامٍ لها. اختفت الفتاة بعدها في إنكلترا، لأنّ الشرطة أعادتها

إلى وطنها، ووجد باكو نفسه مع الطفل بين ذراعيه. أرسله لجدّيه لعملٍ عليه أن ينهيه في أَلْغَرْبِ، فقد تورّط في عمليات تهريب الدخان، لكنّه لم يعد من تلك المشكلة وبقي مانوليتو معهم.

ـ يحبُّ أن يرى شروقَ الشمس ـ أصرّ مانولو بعناد.

ـ دعْهُ نائماً، مسكين ـ قالت زوجته ـ فالصباح لم يطلع بعد، أليس عندك قلب؟ اذهب وأفرغ مثانتك.

فتح مانولو الغجريُّ بابَ الخصّ وخرج إلى هواء الصباح. كانت الفسحة مقفرة. الكلّ في المخيم نيام. الكلب الصغير الذي تكيّف بالإكراه مع المخيّم نهض من كومة رمله واقترب منه هازّاً ذيله. فرقع مانولو بأصابعه فنهض الكلب على قائمتيه الخلفيتين وهو يهزّ ذيله بقوّة أكبر. اجتاز مانولو الفسحة يتبعه الكلب ودلف في الدرب باتجاه سياج البلدية عبر سفح التل المنحدر نحو نهر الدويرو. إنّها بعض الهكتارات التي سمِّيت بتفخيم حديقة البلدية العامّة وتُقَدَّم للجمهور كرئة خضراء للبلدة. الحقيقة أنّها منطقة مهجورة، خالية من الرقابة والأمن، فمانولو يجد في كلٍّ صباح كبابيت ومحاقن لا تهتم البلدية بإزالتها. شرع يهبط الدربَ الصغير المحاطَ بحراج اللزان الضخمة. الشهر آب واللزان ما زال مزهراً كما لو أنّ الفصلَ ربيع. تشمّم مانولو كعارف. كان قادراً على إدراك أكثر روائح الطبيعة تنوّعاً كما علّمته الحياة البريّة. عدَّدَ: لزّان، خزامى، زعتر. إلى الأسفل منه، في نهاية المنحدر كان نهر الدويرو يتلألأ تحت الشمس المنحرفة البازغة بين التلال. مرْكَبا بضائع أو ثلاثة قادمة من الداخل متّجهة إلى أوبورتو منتفخةَ الأشرعة، تبدو ساكنة على شريط النهر. كانت تنقل براميل نبيذٍ إلى ديماسات المدينة، مانولو يعرفُ ذلك، نبيذ يتحوّل إلى زجاجاتِ أوبورتو، التي تسلك بعدها طرقَ العالم. شعر مانولو بحنين كبير للعالم الرحب الذي لم يعرفه قطّ. موانئ مجهولة، قصيّة، مليئة بالغيوم يهبط فوقها الضباب كما رأى ذات مرّة في أحد الأفلام. بالمقابل لم يكن يعرف غير ذلك النور الإيبيري الأبيض المبهر، نور أندلسِهِ ونور البرتغال،

البيوت المبيّضة بالكلس، الكلابَ البريّة، ودُغَل سنديان الفلّين والشرطة التي تطردهم من هذا المكان وذاك.

اختار كي يبول شجرة بلوط غليظة تُسقِط ظلّها العريض على فسحة من العشب خارج سياج الأشجار. من يدري لماذا كان يرتاح للتبوّل على جذع شجرة البلوط تلك، ربّما لأنّها عجوز أكثر منه، فمانولو يحبّ أن توجدَ في العالم كائنات حيّة أكبر منه عمراً. حتى ولو لم تكن سوى شجرة. المسألة أنّه يشعر، وهو يقضي حاجاته، بالراحة وكأنّ نوعاً من الطمأنينة يغزوه. شعر بالانسجام مع نفسه ومع الكون. اقترب من شجرة البلوط وبال بارتياح. في تلك اللحظة رأى نعلين. لفت انتباهه أنّهما لا يبدوا قديمين أو مهجورين كما هي العادةُ في تلك المنطقة، كانا نعلين برّاقين، من جلد ماعز كما بدا له ويحافظان على وضعهما المستقيم كأن قدمين تنتعلهما ويخرجان من دغلة.

اقترب مانولو بحذر. فتجربته علّمته أنّه يمكن أن يكون سكران أو قاطع طريق يترصّده. نظر من فوق الدغل لكنّه لم يستطع أن يلمحَ شيئاً. أخذ قطعة خشبٍ وراح يبعد ما بين أغصان الشجيرات. تلا الحذاء الذي كان بالنسبة إليه غنيمةٌ ساقان تغطيهما فردتا بنطلون جينز مكسّم. وصل نظر مانولو حتى الخصر وتوقّف هناك. كان الزنار من الجلد وإبزيمه الفضّي يمثّل رأس حصان كتب عليه «تِكساس رانش». حاول مانولو أن يفسّر الكلمتين بصعوبة فانطبعتا جيّداً في ذاكرته. تابع بعدها تقصّيه مبعداً ما بين الدُغَل بالخشبة. كان الجذعُ يحمل قميصاً أزرقَ قصير الكمّين كُتِبتْ عليه كلماتٌ أجنبية: Stones of Portugal *«حجارة البرتغال»*. نظر إليها مانولو طويلاً كي تنطبع جيّداً في ذاكرته. تابع تقصيّه بقطعة الخشب بهدوءٍ وحذر، كمن يخاف أن يؤذي ذلك الجسد الذي يجثو على ظهره بين تلك الدُغَلِ. وصل حتى العنق ولم يستطع الاستمرار لأنّه لم يكن للجسد رأس. كان جرحاً نظيفاً، ثمّ إنّه لم ينزّ غير قليل من الدم، فقط بضع خثرات داكنة يحوم فوقها الذباب. سحب مانولو قطعة الخشب وترك الدُغَل تعود لتغطّي تلك الفظاعة. ابتعد عدّةَ أمتارٍ،

استلقى مستنداً إلى جذع السنديان وراح يفكِّرُ. ولكي يفكِّر بشكلٍ أفضل أخرجَ غليونه وملأه من تبغ السجائر. أفكار قطعيّة استبعدها بحذر. سابقاً كان يحبّ أن يدخن الغليون بتبغ مفروم، لكنّه اليومَ غالٍ جدّاً، لذلك يجد نفسه مجبراً على فرط سجائر تبغٍ أسود يشتريها بالمفرّق من دكان السيد فرانثيسكو، الملقب بأبي خُراء لأنّه يسير منقبض الإليتين دائماً، وكأنّه على وشك أن يتغوط على نفسه. ملأ مانولو جفنة الغليون، سحب عدّة أنفاس وتفكّر. تفكّر بما اكتشف وفكّر إنه ليس من الضروري أن يعود وينظر إليه، إذ ما رآه يكفي ويزيد. خلال ذلك كان الوقتُ يمرّ والجداجد بدأت صريرها الذي لا يُحتمل، وحوله تنتشر رائحة خزامى وزعتر قويّة جداً. تحت عينيه يمتدّ شريط النهر المتلألئ، بينما تهبّ نسمة خفيفة ودافئة تُقَصِّرُ ظلالَ الأشجار. فكّر مانولو أنَّ حسن حظّه جعله لا يصطحب حفيده. فالأطفال يجب ألاّ يروا الفظائع، هذا ما قاله لنفسه، ولا حتى أطفال الغجر. تساءل عما يمكن أن تكون الساعة، واستنطقَ قرصَ الشمس. عندئذٍ فقط انتبه إلى أنّ الظلَّ انتقل والشمس غمرته كاملاً والعرق بلّله. نهض تعِباً واتجه إلى المخيّم. كانت الفسحة تضجّ بالحركة في تلك الساعة؛ العجائز يغسلن الأطفال في الطسوت والأمّهات يحضِّرن الطعامَ. يحييه الناسُ فيكاد لايردّ عليهم. دخل خصّهُ. كانت زوجته تُلْبِس مانوليتو بدلة أندلسية قديمة، لأنّ الجالية قرَّرت إرسال أطفالها لبيع الأزهار في أوبورتو والثياب التقليدية تولّدُ انطباعاً أفضل.

ـ عثرت على ميتٍ عند السياج ـ قال مانولو بنصفِ صوت.

لم تفهم زوجته عليه. كانت تمشّط مانوليتو وتدهن شعره بالملمِّع.

ـ ماذا قلتَ، يا ملك؟ ـ سألت العجوز.

ـ جثّة بجانب شجرة البلوط.

ـ دعها تتفسّخ ـ أجابت زوجته ـ فكلّ شيء متعفّن هنا.

ـ بلا رأس ـ قال مانولو ـ قُطع رأسه بشكل نظيف، تْراكْ!

قام بحركة من يده على عنقه. نظرت إليه العجوز فاتحةً عينيها على اتساعهما.

- ماذا تريد أن تقول؟ - سألت.

حمل مانولو يده إلى عنقه كما لو كانت سكينا وكرّر: ثْراكْ.

نهضت العجوز وحملت الطفل على الخروج.

- يجب أن تذهب إلى الشرطة - قالت مصمِّمةً.

نظر إليها مانولو بإشفاق.

- الملكُ لا يذهب إلى الشرطة - قال باعتزاز - مانولو غجرِ إسبانيا والبرتغال الأحرار لن يذهب إلى ثكنة شرطة أيّاً كانت.

- إذن ماذا؟ - سألت العجوز.

- إذن سيخبرهم السيد فرانثيسكو بذلك - أجاب مانولو - فهذا الخرّاء عنده هاتف وهو على اتصال دائم بالشرطة. بما أنّه صديق حميم لهم فليخبرهم هو.

نظرت إليه العجوز بوهنٍ دون أن تقول شيئاً. نهض مانولو وفتح باب الخصّ. وحين أصبح في العتبة ونور الظهيرة يغمره قالت له المرأة:

- له عليك ألفي اسكودو، يا ملك، أدانك زجاجتي خيريبيتي.

- ومن هو الخراء الذي تهمّه زجاجتا أغوارديينتِ؟ - أجاب مانولو - ليُخرِّها.

2

كان فيرمينو يقف عند إشارة لارغو دو راتو الضوئية السرمديّة، هو يعرف ذلك، وسيارة الأجرة خلفه يكاد ماصُّ صدماتها يلتصق بسيّارته. كان فيرمينو يعرف أنّ عليه أن يصبرَ على أعمال البلدية التي تَعِدُ بمدينةٍ نظيفة ومنظّمة، وتبذل جلّ طاقتها لمعرض المدينة الدولي، فملصقات الإعلانات المنتشرة في نقاط السير الحساسة تعلن أنّه سيكون حدثاً عالمياً، سيجعل من لشبونة مدينة مستقبل. وفيرمينو لم يكن يعرف في تلك اللحظة غير مستقبله الآني، فالمستقبل الآخر يجهله. يعني أنّ عليه انتظار خمس دقائق على الأقل على الإشارة، حتى يبتعد عامل الحفارة. لاشيء يمكن فعله حتى ولو صارت الإشارة خضراء. فالانتظار ضروريّ. بمعنى أنّه أذعن وأشعلَ سيجارةً متعدِّدة المصافي من تلك التي أرسلها إليه صديق سويسري. وضع المذياع على برنامج «المستمعون يسألوننا»، كي يطّلع على مجريات الأمور هناك. ألقى نظرة على الساعة الإلكترونية على شرفة البناء أمامه. كانت تشير إلى الثانية ظهراً والحرارة تسجل ثمانية وثلاثين درجة. على كلّ الأحوال الشهر آب وفيرمينو يعود من أسبوعٍ إجازة قضاها في قرية صغيرة في ألنتِجو مع الفتاة التي يخرج معها. كانت أيّاماً قوّتهما رغم أنهما صادفا مدّاً قويّاً، على كلّ الأحوال ألنتِجو، كما هي العادة، لم تخيّبه أبداً، فقد اكتشف منتجعاً سياحياً ريفيّاً على الشاطئ، يملكه ألمان. فيه تسع غرف فقط إضافة إلى غابة الصنوبر والشاطئ المقفر

وألعاب الحبّ في الهواء الطلق والصحون المحلية. نظرَ فيرمينو إلى نفسه في المرآة العاكسة. كان لونه البرونزي رائعاً ويشعر بنفسه في أحسن حال، لذلك فالمعرض الدولي لا يهمّه قيد أنملة ويرغب بمعاودة عمله في الصحيفة. كلّ ما عدا ذلك كان حاجة وليس مجرّد رغبة، فهو قد أنفقَ في إجازته آخر راتب له وأصبح بلا نقود.

اشتعلت الإشارة الخضراء. ابتعد البلدوزر فأقلع فيرمينو. دار حول الساحة، أخذ شارع ألِكساندر هِركولانو ودار في شارع الحرية العريض. في ساحة سالدانيو وجد نفسه أمام اختناق في السير. فقد وقع حادثٌ في إحدى القارعات الرئيسية وجميع السيارات تحاول الدخول في القارعة اليسرى. اختار القارعة الخاصّة بحافلات النقل الداخلي، آملاً ألا يكون هناك أيّ شرطي سير في المنطقة. عمل فيرمينو في الفترة الأخيرة حساباته مع كاتالينا فوجد أن المخالفات تستهلك عشرة بالمئة من دخله الشهري البائس. لكنها الساعة الثانية ظهراً والقيظ شديد وقد لا يوجد أيّ شرطي مرور في الشارع العريض. وإذا ما وُجِد سيكون من سوء حظّه. لم يستطع حين مرّ أمام المكتبة الوطنية إلا أن يخفّف السرعةَ كي ينظر إليها بحنين. فكّر بالمساءات التي قضاها في قاعة المطالعة وهو يدرس روايات فيتوريني وبمشروعه العبثيّ، كتابة بحث أعطاه عنوان *تأثير فيتوريني في رواية ما بعد الحرب البرتغالية* ومع هذا الحنين انبثقت رائحة الباكالاو المقلي في *خدمة المكتبة الذاتية*، التي تناول طعامه فيها لأسابيع كاملة. الباكالاو وفيتوريني. المشروع مازال مشروعاً حتى الآن. لكن من يدري، ربّما استطاع العودة إليه حين يصبح عنده قليل من الوقت الحر.

وصل إلى الـ لوميار، طاف حول أبنية الهوليداي آن. شيء مرعب. هناك كان ينزل الأمريكيون متوسطو الحال القادمون بحثاً عن لشبونة غريبة بينما يجدون أنفسهم فيها محشورين في أيّ حيّ كان، خرّبته الأبنية الجديدة والجسر المحمول الذي يقود إلى المطار والمحلّق الثاني. كان العثور على مرآب لوضع السيارة مشكلةً كما هي الحال دائماً. وقف أمام سياج عقارٍ إلكتروني، جاهداً ألا يعيق

المرور، فسيّارته بارزة نصف متر تقريباً، لكن ماذا سيفعل. فالنسبة المئوية للمخالفات ستزيد، إذا ما حملتها الرافعة، نقطتين على الأقل وهذا يعني أنّه لن يستطيع أن يشتري المجلّد الأخير من *قاموس اللغة الإيطالية الكبير*، وسيلته الجيّدة لدراسة فيتوريني. ماذا سيفعل. على بعد أمتار منه ينتصب بناء الصحيفة وهو بناء من أبنية الستينات، قبيح ومبتذل، إسمنتي دون أيّة شخصيّة. جميع الطوابق مأهولة بأناس عاديين، يعملون في المركز ويستخدمون البيت للنوم فقط. وضع بعض المستأجرين مظلاّت وبعض الكراسي البلاستيكية. على شرفة الطابق الأخير، وبعكس تزيينات البرجوازية الصغيرة برز إعلان هائل بأحرف تكعيبية تقول: *O Acontecimento* *«الحوادث»*. «كل ما يجب على المواطن أن يعرفه».

كانت تلك صحيفته. توجّه إليها بافتخار. كان يعرف أنّه سيواجه عاملة الهاتف عامرة الصدر المشلولة ، التي تقود كلّ أقسام الصحيفة من كرسيّ عجلاتها، وأنّ عليه قبل الوصول إلى غرفته القبيحة أن يتخطّى مكتب السيّد سيلفا، مدير التحرير، الذي يستخدم كنية أمّه، هوبِّرْتْ، لأنّ الاسم الفرنسي أكثر أناقة، وحين يصل إلى مكتبه يشعر برهاب الاحتجاز غير المحتمل الذي يمرّ به دائماً، لأنّ التكعيب الذي اختاروه له لم يكن فيه نوافذ. كان فيرمينو يعرف كلّ هذا ومع ذلك تقدّم بحزم.

كانت المشلولة نائمة في كرسيّ عجلاتها وأمام صدرها الهائل صينية فارغة من ورق القصدير صغيرة ملوثة بالشحم على جوانبها. إنّه الطعام الذي يحمله مطعم الوجبات السريعة Fast - food المجاور إلى عنوان صاحب الطلب. تابع فيرمينو طريقه مرتاحاً، دخل في المصعد. كان مصعداً بلا أبواب، مثل مصعد الشحن، وتحت الأزرار إعلان من الفولاذ يقول: «ممنوع استخدام المصعد من قبل الصغار الذين لا يرافقهم أحد» وبجانبه كتب أحدهم بقلم تخطيط *انْتَكْ*، وكأنّ المعماري الذي وضع مخطط هذا البناء الزاهي أراد أن يعوّض ذلك فخطر له أن يبهج جوّ المصعد بموسيقى تخرج من مكبر صوت صغير، هي ذاتها دائماً: *غرباء في الليل* *Strangers in the night*.

توقّف المصعد في الطابق الثالث. دخلت عجوز برائحةِ صباغِ شعرٍ رهيبة.

ـ هل أنت نازل؟ ـ سألت السيّدة دون أن تُحيي.

ـ بل صاعد ـ أجاب فيرمينو.

ـ أمّا أنا فنازلة ـ قالت السيّدة بنبرة حازمة. وضغطت زرّ الهبوط.

أذعن فيرمينو ونزل، خرجت السيّدة دون وداع وعاد هو ليصعد. مكث حين وصل إلى الطابق الرابع متردّداً في بسطة السلّم. ماذا أفعل؟ تساءل، وماذا لو ذهبت إلى المطار وأخذت طائرة إلى باريس؟ باريس، المجلات العظيمة، المبعوثون الخاصّون، السفر عبر العالم. نوع من الصحافي العالمي. كانت تخطر لفيرمينو أحياناً أفكار كأن يبدِّل حياته، مثلاً، دفعة واحدة وللأبد، يتخذ قراراً حازماً، مجنوناً. لكن المشكلة أنّه لم يكن يملك مليماً واحداً وبطاقات الطائرة غالية وباريس أيضاً. دفع فيرمينو الباب ودخل. كان المكان من النوع المسمى بالفضاء المفتوح. لكن ليس هذا هو مخطّطه الأصلي، كما هو طبيعي. لقد بُدِّل بهدم الجدران الفاصلةِ سهلةِ الهدم لأنّها من اللِّبن الفارغ. كانت تلك فكرة الشركة التي شغلته سابقاً، شركة استيراد وتصدير الطون المعلّب والصحيفة ورثته بتلك الشروط، مما جعل المدير يواجه الزمن السيئ بوجه رضي. كان المكتبان الموجودان أمام المدخل فارغين. تجلس في الأوّل منهما عادة سيّدة ناضجة تقوم أحياناً بدور أمينة السرّ، وفي الثاني صحافيٌّ مكلّف بالعمل على الحاسوب الوحيد الموجود في الصحيفة. المكتب الثالث هو مكتب السيد سيلفا، أو بالأحرى هوبِرْت كما كان يوقّع في الصحيفة.

ـ صباح الخير، يا سيّد هوبِرْت ـ قال فيرمينو بلطف.

نظر إليه السيد سيلفا بتجهُّم.

ـ المدير مشتاطٌ غيظاً ـ قال من بين أسنانه.

ـ ولماذا؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ لأنّه لم يعرف أين يعثر عليك.

ـ لكنّني كنتُ على الشاطئ ـ برَّر فيرمينو.

ـ لا يمكن الذهاب إلى الشاطئ في هذه الأيام الحرجة ـ أضاف السيّد سيلفا بفظاظة. ـ زمن سيئ يجري.

ـ نعم ـ ردّ فيرمينو ـ لكن كان عليّ ألا أعود حتى الغد.

لم يردّ السيد سيلفا وأشار إلى مكتب المدير، المكتب الزجاجي المصنفر.

قرع فيرمينو البابَ في الوقت الذي دخل فيه. كان المدير يتحدّث بالهاتف فأومأ إليه بالانتظار. أغلق فيرمينو الباب ومكث واقفاً. كان الحرُّ في تلك القاعة الصغيرة خانقاً والمروحة مطفأة. ومع ذلك فالمدير يرتدي سترة رماديّة مع ربطة عنق منسجمة معها إضافة إلى قميص أبيض. أغلق المدير الهاتفَ ونظر إليه من عاليه إلى سافله .

ـ أين حشرت نفسك؟ ـ سأله بغضب.

ـ كنتُ في ألنتِجو ـ أجابه فيرمينو.

ـ وماذا كنت تفعل في ألنتِجو؟ ـ سأل المدير بنبرة أكثر غضباً.

ـ أنا في إجازة ـ دقّق فيرمينو ـ إجازتي تنتهي غداً، ومررت على الصحيفة لأرى إن كان هناك شيء جديد وأفيد بشيء.

ـ ليست المسألة أنك مفيد ـ قال المدير ـ بل لا غنى عنك، تذهب في قطار الساعة السادسة.

فكّر فيرمينو أنّ من الأفضل له أن يجلس. جلس وأشعل سيجارة.

ـ أذهبُ؟ إلى أين؟ ـ سأل بفتور.

ـ إلى أوبورتو ـ قال المديرُ بصوت محايد ـ طبعاً إلى أوبورتو.

ـ ولماذا طبعاً إلى أوبورتو؟ ـ سأل فيرمينو محاولا أن يضفي على صوته نبرةً محايدة.

ـ لأنّ حادثاً فظيعاً وقع ـ قال المدير ـ مسألة ستجعل سيول الحبرِ تسيل.

ـ ألا يكفي وجود المراسل في أوبورتو؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ لا، لا يكفي، هذه مسألة أكبر من اللازم ـ دقّق المدير.

ـ أرسل إذن السيّد سيلفا ـ ردّ فيرمينو بهدوء ـ فهو يحبّ السفر، ثمّ إنّه يستطيع أن يوقّع باسمه الفرنسي.

ـ هو رئيس التحرير ـ ردَّ المدير ـ عليه أن يراجع وقائع المراسلين البائسة. المبعوث الخاص هو أنت.

ـ لكنّني توّاً انتهيت من الانشغال بالمرأة التي طعنها زوجها في كويمبرا ـ احتجَّ فيرمينو ـ لم يمض عليها عشرة أيّام قبل الإجازة، وقضيت مساءً بكامله في مصح كويمبرا أستمع إلى تصريحات الأطباء الشرعيين.

ـ ماذا سنفعل لك ـ أجاب المدير بجفاف ـ أنت المبعوث، ثم انظر، كلّ شيء جاهز، حجزت لك نزلاً في أوبورتو لمدّة أسبوع، وإن كان كبداية فقط، فهذه القضيّة ستأخذ وقتها.

فكّر فيرمينو وحاول أن يأخذ نفَساً. ودَّ لو يقول إن أوبورتو لاتعجبه، وإنهم في أوبورتو يأكلون على وجه الخصوص كرشة على الطريقة الأوبورتية والكرشة تسبّب له الغثيان، ثمّ إنّ الطقس في أوبورتو حارّ ورطب جدّاً، والنزل الذي حجز له فيه لا شكّ سيكون بائساً، وحمّامه في بسطة السلم وإنّه سيموت حنيناً. وبالمقابل قال:

ـ لكن، يا سيدي المدير، عليّ أن أنهي بحثي عن الرواية البرتغالية بعد الحرب، إنّه أمر مهمّ جدّاً بالنسبة إليّ، ثمّ إنّني وقّعت العقدَ مع دار النشر.

ـ إنّها قضيّة رهيبة ـ قاطعه المدير ـ لغز يجب الكشف عنه، الرأي العام متلهف، فمنذ هذا الصباح لا يتحدثون عن شيءٍ آخر.

أشعل المديرُ سيجارةً، خفض صوته كما لو أنّه سيعترف له بسرٍّ وهمس:

ـ اكتشفوا جثّة مقطوعة الرأس قرب ماتوسينيوس، لم تُعرف هويّتها بعد، عَثَر عليها غجريّ يدعى مانولو، أدلى بتصريح مبهم، لا يستطيعون أن ينتزعوا منه كلمة واحدة أكثر مما صرّح به للشرطة، يعيش في مخيّم رُحّل في ضواحي أوبورتو ، عليك أن تعثر عليه وتقابله، سيكون الخبرُ قنبلة الأسبوع.

بدا أنّ المدير قد هدأ كأن القضيّة بالنسبة إليه قد حلّت. فتح درجاً وأخرج بعض الأوراق.

ـ هذا هو عنوان النزل ـ أضاف ـ ليس فندقاً فاخراً، لكنّ السيّدة روسا شخصية ساحرة، نعرف بعضنا بعضاً منذ ثلاثين عاماً. وهذا هو الشيكّ: بدل طعام، ضيافة ونفقات لمدّة أسبوع وإذا حدث أيّ شيء إضافي، سجّله على الحساب. لا تنس، القطار يخرج في السادسة.

3

من يدري إلامَ يعود كرهه لأوبورتو؟ فكّر فيرمينو بالموضوع. كانت سيّارة الأجرة تعبر ساحة براثا دا باتاليا، وهي ساحة نبيلة، صارمة، إنكليزية الطراز. الحقيقة أن أوبورتو تسودها روح إنكليزية، بواجهاتها الفيكتورية الرمادية الحجارة وأناسها الذين يسيرون بانتظام في الشارع. هل لأنّني لا أرتاح للإنكليز؟ تساءل فيرمينو. قد يكون ذلك، لكنّه ليس السبب الرئيسي. ففي لندن مثلاً وفي المرّة الوحيدة التي ذهبت فيها إليها شعرت بالراحة تماماً. طبعاً أوبورتو ليست لندن، طبيعي كانت تقليداً لها، لكن ربّما ليس هذا هو السبب، ختم فيرمينو. وتذكّر طفولته، أعمامه في أوبورتو الذين كان يأخذه والداه لرؤيتهم في أعياد الميلاد. عادت إلى ذاكرته كما لو أنّها حدثت البارحة. عادَ ليرى العمّة بيتو والعم نونو. هي كانت طويلة ونحيلة، ترتدي الأسود دائماً وتضع جوهرة على صدرها، وكان هو بديناً ومرحاً، مختصّاً برواية نكات ما من أحد يستظرفها. والبيت: شاليه صغير من بداية القرن في المنطقة البرجوازية من المدينة وأرائك صُنعت أذرعها يدوياً، أزهار ورقية وصور قديمة بيضوية على الجدران، شجرة العائلة، التي كانت العمّة بيتو شديدة الاعتزاز بها. وعشاء ليلة رأس السنة. كابوس. في البداية حساء ملفوف أخضر حتمي، يُقَدَّم في صحون من كانتون تشكل اعتزاز العمّة بيتو، تحاولُ أمُّه إقناعه بروعته على الرغم من أنّه يسبّب له الإقياء. ثم عذاب الاستيقاظ في الحادية عشرة ليلاً من

أجل صلاة الديك، طقس ارتداء البدلة الأنيقة والخروج إلى ضباب كانون الثاني البارد في أوبورتو. ضباب أوبورتو الشتوي. تفكّر فيرمينو وانتهى إلى أنّ كراهيته لتلك المدينة ورثها من طفولته، ربّما كان فرويد على حقّ. فكّر بنظريّات فرويد. لا يعني أنّه كان يعرفها بعمق، لكنّه لا يثق بها كفاية. ويثقُ بلوكاتش بتصويره الآداب كتعبير عن الطبقة، ثمّ إنّ لوكاتش أفضل له لدراسته حول الرواية البرتغالية بعد الحرب، لوكاتش أكثر فائدة من فرويد، لكن ربّما كان ذلك الطبيب الفييني على حق في بعض الأمور، من يدري.

ـ لكن أين هذا النزل اللعين؟ ـ سأل سائقَ سيّارة الأجرة.

شعر بحقّه بالسؤال. فهما يطوفان منذ نصف ساعة على الأقل، أولاً في شوارع المركز العريضة والآن في أزقّة وأحياء ضيّقة لم يكن يعرفها.

ـ نستغرق ما يجب أن نستغرقه ـ دمدم سائق سيارة الأجرة بفجاجة.

سائقو سيارات الأجرة والشرطة، فكّر فيرمينو، هم أكره الشرائح الاجتماعية. وكان نصيبه أن يتعامل مع سائقي سيارات الأجرة والشرطة، نظراً للعمل الذي يقوم به. صحافي في صحيفة رحوية تعالج موضوعات الفضائح والقتل والطلاق والنساء منزوعات الأحشاء والجثث مقطوعة الرؤوس، تلك كانت حياته. وفكّر كم من الرائع أن يستطيع إنهاء كتابه حول فيتوريني ورواية ما بعد الحرب البرتغالية، كان على ثقة من أنّه سيشكّلُ حدثاً في المجال الأكاديمي، وربّما فتح له الأبواب إلى الحياة الجامعية.

توقّفت سيارة الأجرة وسط أحد الشوارع الضيقة تماماً، أمام بناية تتكشّف عن كلّ سنواتها. التفت السائق إليه فجأةً وودّعه بودّ:

ـ خفتَ ألاّ تصل، أليس كذلك، يا سيّد؟ ـ قال بلطف ـ انظرْ، نحن في أوبورتو لا نغشُّ أحداً، ولا نقوم بجولات غير ضرورية لننتزع النقود من الركاب، لسنا في لشبونة، هل تعلم؟

نزل فيرمينو، أخذ حقائبه ودفع. على البوّابة كُتِبَ: نزلُ روسا،

الطابق الأول. الطابق السفلي يشغله محل حلاقة نسائية. لا يوجد مصعد. صعد فيرمينو الدرج المفروش بسجادة حمراء، أو بالأحرى كانت ذات يوم حمراء وهو ما أراحه وأثار حزنه في آنٍ معاً. كان يعرف النُزُلَ الّتي يرسله إليها مديره عن ظهر قلب: عشاءات بائسة في السابعة مساءً، غرف بمغاسل مقحمة في الجدران، ومالكاتها ساحرات عجائز.

بالمقابل لم يكن هذا النزل كذلك إطلاقاً، على الأقل فيما يتعلّق بصاحبته. فالسيّدة روسا تقارب الستين من عمرها، شعرها متموج، ضارب إلى الزرقة ولا ترتدي الرداء المزهر مثل بقية صاحبات النُزل اللواتي عرفهنّ، بل بدلة رمادية أنيقة وتصدر عنها ابتسامةُ فرح. رحّبت به السيّدة روسا وأزعجت نفسها بشرح برنامج النزل. العشاء في الثامنة، وصحن ذلك اليوم هو كرشة على الطريقة الأوبورتية. إذا كان يفضل أن يتعشى على حسابه عليه أن يخرجَ فعلى اليمين في الساحة يوجد مقهى مطروق جدّاً، ربّما يعرفه، فهو من أقدم مقاهي أوبورتو، مؤسّسة بكل معنى الكلمة، العشاء جيّد والسعر أيضاً، لكن ربّما كان من الأفضل له أن يستحمّ قبل ذلك، إذا أراد أن يذهب إلى غرفته فهي الثانية على اليمين في الممر. عليها أن تقول له بضعة أشياء، لكنها ستفعل ذلك بعد العشاء، فهي على كلّ الأحوال تنام في ساعة متأخرة.

دخل فيرمينو إلى غرفته فتأكّدت الفكرة الإيجابية التي أخذها عن نزل السيّدة روسا. نافذة واسعة تطلّ على الحديقة الخلفية، سقف مرتفع، أثاث ريفي قوي، سرير زوجي وحمام بحوض مغطى بالزليج المزهر. بل وكان هناك مجفّف شعر. خلع فيرمينو ملابسه بهدوء وأخذ حمّاماً فاتراً. على كلّ الأحوال لم يكن الحرُّ في أوبورتو الحرَّ الرطب الذي خافه، أو على الأقل كانت غرفته منعشة. ارتدى قميصاً قصير الكمين، وللحذر علّق سترة خفيفة على ذراعه وخرج. بدا الزقاق حيوياً والحوانيت أنزلت مغاليقها. المستأجرون في النوافذ يترطبون ويتسامرون مع الجيران أمامهم. توقّف ليستمع إلى تلك الثرثرة التي تفتّقُ عنده بعض الرقّة. التقط بعضَ الجمل من هنا

وهناك، وخاصة جمل تلك الفتاة الممتلئة المطلة من نافذتها. كانت تتحدّث عن فريق أوبورتو، الذي لعب قبل يوم واحد في ألمانيا وربح. بدت الفتاة متحمّسةً، خاصّة لهجوم الوسطً الذي تجهل اسمه.

نزل إلى الساحة فرأى المقهى على الفور. لم يكن هناك من إمكانية للخطأ. كان بناءً من القرن التاسع عشر بواجهة مزدحمة بالحلي المعمارية وباب دخول مؤطرٍ بإفريز خشبي أملس، وشعار يمثل رجلاً أشقر يجلس على برميل نبيذ. دخل فيرمينو. كانت قاعة المقهى هائلة فيها طاولات خشبية قديمة، ومنضدة عرض معشقة وكثير من مراوح الصفيح في السقف. كانت الطاولات الأخيرة محجوزة لقسم المطعم، لكن لم يكن هناك زبائن. جلس فيرمينو وحضّرَ نفسه لعشاء فاخر وهو يدرس لائحة الطعام. قرّر الصحن وسال لعابه حين وصل النادل. كان فتى رشيقاً بلحية خفيفة سمراء وشعر كثّ.

ـ المطبخ مغلق، يا سيّدي ـ أعلمه النادلُ ـــ أستطيع أن أقدّم لك صحوناً باردة فقط.

نظر فيرمينو إلى ساعته: كانت الحادية عشرة والنصف، لم يكن قد انتبه إلى تأخّر الوقت. على كلِّ الأحوال في لشبونة يمكن تناول العشاء في الحادية عشرة والنصف بكل سهولة.

ـ في لشبونة يمكن العشاء في مثل هذه الساعة ـ قال لمجرّد القول.

ـ لشبونة هي لشبونة وأوبورتو هي أوبورتو ـ ردّ النادلُ متفلسفاً ـ لكن سترى أنّ صحوننا الباردة لن تخيب أملك، إذا سمحت لي باقتراح، فالمطبخ أعدّ سلطة قريدس بالمايونيز تستطيع أن تحيي الميت.

قبل فيرمينو وعاد النادلُ بعد برهة قصيرة يحمل فسقيّة من سَلَطة القريدس. صبّ له كميّة وفيرةً وقال وهو يصبّ:

ـ ربح فريق أوبورتو البارحة في ألمانيا، الألمان أقوى، لكنّنا لعبناها بسرعتنا.

من الواضح أنّه كان يرغب بالحديث، فتبع فيرمينو تيّاره.

ـ فريق أوبورتو جيّد ـ أجاب ـ لكنه لا يملك تقاليد فريق بنِفيكا.

ـ هل أنت من لشبونة؟ ـ سأل النادل فوراً.

ـ من لشبونة المركز ـ حدّد فيرمينو بدقّة.

ـ لاحظتُ ذلك من النبرة ـ قال النادل ثمّ تابع ـ: وماذا تفعل في مدينتنا؟

ـ أبحثُ عن غجريٍّ ـ أجاب فيرمينو دون تفكير.

ـ غجري؟ ـ سأل النادلُ.

ـ غجريّ ـ كرّر فيرمينو.

ـ أنا لا أرتاح كثيراً للغجر ـ قال النادل وكأنّه يجسّ نبضه ـ وأنت؟

ـ لا أعرف الكثير عنهم ـ أجاب فيرمينو ـ أو بالأحرى لا أكادُ أعرف شيئاً.

ـ ربّما لأنّني من برتِلوس ـ قال النادل ـ هل تعلم؟ عندما كنتُ طفلاً كانوا يحتفلون في برتِلوس بأجمل معرض في كلّ المينيو، الآن لم تعد كما كانت. عدتُ في العام الماضي وكدتُ أحزن، في تلك الأيام كلّ شيء كان فرجة، لكنّني لا أريد أن أضجرك، فربّما كنتُ أزعجك.

ـ على الإطلاق ـ قال فيرمينو ـ بل وأكثر من ذلك اجلس معي، فهكذا تسلّيني. هل أستطيع أن أدعوك إلى كأسٍ من النبيذ؟

جلس النادل وقَبِل كأسَ النبيذ.

ـ كنتُ أحدّثك عن معرض برتِلوس ـ تابع النادلُ ـ كان رائعاً في طفولتي، خاصة بقطعان السوق، تلك السلالة من ثيران مينيو، بقرونها الطويلة جدّاً. هل تتذكّرها؟ صه، ما عاد لها وجود اليوم، ثمّ إنّه كانت توجدُ خيول وأمهار ودواب، ووالدي يتاجرُ في الصيف مع الغجر ، وهم نزيهون، وكان عندهم خيول شموخة. أتذكّر الطعام الذي كانوا يقدّمونه لوالدي بعد إنهاء الصفقات، يجهزون مائدةً

هـائلة في ساحة برثِلوس حيث يأخذني أبي معه.

توقّف.

ـ لا أدري لماذا أنا هنا أزعجك بذكريات طفولتي ـ قال ـ ربّما لأنّ الغجر اليوم يثيرون شفقتي، لقد وجدوا أنفسهم غارقين في الفاقة وفوق ذلك عليهم أن يتحمّلوا عدوانية الأهالي.

ـ صحيح؟ ـ سأل فيرمينو ـ لم أكن أعرف.

ـ إنّها قضيّة محلية بشعة ـ أضاف النادل ـ لكنّ قد أحكيها لك في مناسبة أخرى، آمل أن تعود لتأكل وأن يكون قد أعجبك مطعمُنا.

ـ الصحن لذيذ ـ وافق فيرمينو.

كان بودّه أيضاً لو بقي يتسامر معه، لكنّه تذكّر أنّ السيّدة روسا تريد أن تتحدّثَ إليه، فدفع الحسابَ وسارع بالعودة. وجدها في القاعة الصغيرة تقرأ مجلة عن الراهن فنقرت بيدها عدة نقرات على الأريكة ودعته للجلوس فاتخذ فيرمينو وضعية مريحة بجانبها. اهتمّت السيّدة روسا بما إذا أعجبه العشاء. فأجابها فيرمينو نعم وكذلك النادل، شخص لطيف جدّاً وله علاقة رائعة مع الغجر.

ـ نحن أيضاً علاقتنا رائعة مع الغجر ـ أجابته السيّدة روسا.

ـ نحن؟ من تعنين ـ سأل فيرمينو.

ـ نزل السيّدة روسا ـ أجابت.

وتابعت بابتسامة عريضة:

ـ مانولو الغجري بانتظارك غداً في المخيم عند الظهيرة وقد رضي بالتحدث معك.

نظر فيرمينو إليها بخجل.

ـ هل اتصلتِ به من خلال الشرطة؟ ـ سأل.

ـ السيّدة روسا لا تستخدم مسالك الشرطة ـ أجابت السيّدة روسا بسعادة.

ـ إذن كيف فعلت ذلك؟ ـ ألحّ فيرمينو.

ـ الصحافي الجيّد يكفيه الاتصال، ألا يبدو لك ذلك؟ ـ قالت السيّدة روسا بتواطؤ.

ـ وأين يقع هذا المخيّم ـ سأل فيرمينو.

فضّت السيّدة روسا مخطّطاً للمدينة كانت قد حضّرته على الطاولة الصغيرة.

ـ تستطيع أن تذهب حتى ماتوسينيوس في الباص ـ شرحت ـ بعدها عليك أن تأخذ سيّارة أجرة. المخيم يقع هنا تماماً، ألا تراه؟ في هذه البقعة الخضراء. إنّها من أملاك البلدية. مانولو ينتظرك في الحانوت المتاخم للمخيّم.

طوت السيّدة روسا المخطط موحية بأنّه لم يبق عندها ماتقوله.

ـ هل معك مسجّلة؟ ـ سألت.

أشار فيرمينو بالإيجاب.

ـ لا تخرجها من جيبك ـ قالت السيّدة روسا ـ فالغجر لا يحبون المسجلات.

نهضت وشرعت بإطفاء الأنوار، موحية إليه بأنّ الساعة حانت ليذهب إلى فراشه. أيضاً فيرمينو نهض وقام بحركة وداع.

ـ كم عمرك؟ ـ سألت السيّدة روسا.

أجاب فيرمينو بالصيغة التي يستخدمها حين يجد نفسه مضغوطاً ليعترف بأنّ عمره فقط سبع وعشرون سنة. كانت صيغة مرتبكة ، لكنّه لم يكن قادراً على إيجاد أخرى أفضل منها.

ـ عملياً ثلاثون ـ أجاب.

ـ أصغر من اللازم بالنسبة لعمل من هذا النوع ـ ثرثرت السيّدة روسا ـ وأضافت ـ: غداً نتقابل، أتمنى لك الراحة.

4

كان مانولو الغجري جالساً إلى طاولة صغيرة، تحت ظلّة الدكان؛ يرتدي سترةً سوداء وقبّعة عريضة الرفراف على الطريقة الإسبانية. عليه ملامح النبالة المفقودة: فالبؤس يُقْرَأُ تماماً على وجهه وقميصه الممزق على الصدر.

دخل فيرمينو إلى الحانوت من بابه الأمامي الذي يطلّ على شارع لطيفٍ بيوته منخفضة، ومتواضعة، إلاّ أنّها مخدومة جيّداً. لكن المشهد العام هناك، في القسم الخلفي من المحل، مختلف تماماً. فوراء السياج المخرّب الذي يحدّد أرض الحانوت يُرى مخيّم الغجر، ست أو سبع سيارات سكن نصف تالفة وبعض أخصاص الكرتون، سيارتان أمريكيتان نموذج الستينات، أطفال نصف عراة يلعبون في الفسحة المغبرة. وتحت سقف من الأوراق الجافّة حمار وحصان يبعدان الذباب بذيليهما.

ـ تشرّفنا ـ قال فيرمينو ـ أنا فيرمينو. ـ ومدّ له يده.

رفع مانولو أصابعه إلى القبّعة وصافحه.

ـ شكراً لقبولك مقابلتي ـ قال فيرمينو.

لم يقل مانولو شيئاً، أخرج غليونه وفرط في جفنته سيجارتين مصفرّتين. لم يكن وجهه يعبّرُ عن شيء وعيناه عالقتان تنظران إلى الأعلى، إلى العريشة. وضع فيرمينو على الطاولة كراسة ملاحظات وقلماً.

ـ هل أستطيع أن أسجّل ملاحظاتي؟ ـ سأل.

لم يجبه مانولو وبقي ينظر إلى العريشة.

قال بعدها:

ـ كم قصاصة؟

ـ قصاصة؟ ـ ردّد فيرمينو.

ـ قصاصة، ألا تفهم الخرينغونثا؟

فكّر فيرمينو أنّ الأمور لا تسير في الاتجاه المناسب. شعر بنفسه أبلهاً بل وأكثر من أبله إذا ما فكّر بـ *السوني* الصغيرة التي يحملها في جيبه وكلّفته كثيراً جدّاً.

ـ أيضاً أتكلّم البرتغالية، لكنّني أتكلّم الخرينغونثا بشكل خاص. ـ وضّح مانولو.

لا. بالفعل لم يكن فيرمينو قادراً على فهم اللهجة الغجرية، تلك التي يسميها مانولو خرينغونثا. جهد في حل المسألة وبحث عن خيطٍ منطقيّ، شارعاً من جديد منذ البداية.

ـ هل باستطاعتي كتابة اسمك؟

ـ مانولو الملك لن ينتهي إلى المخرأة ـ أجاب مانولو وقد شبك رسغيه ثم حمل إصبعه إلى شفتيه. فهم فيرمينو أن المخرأة يجب أن تكون السجن أو الشرطة.

ـ حسن ـ قال ـ لا أسماء أبداً، أعدِ السؤال.

ـ كم قصاصة؟ ـ كرّر مانولو ملامساً السبابة بالإبهام وكأنّه يعدّ نقوداً.

قام فيرمينو بعملية حسابية سريعة. فالمدير منحه للنفقات الفورية أربعين ألف اسكودو. عشرة آلاف اسكودو يمكن أن تكون سعراً مناسباً لمانولو، فالحقيقة أنّه قَبِلَ التحدثَ إليه وهي حالة استثنائية بالنسبة للغجري، ثمّ قد يستطيع أن يحصل منه على أشياء أخفاها عن الشرطة. لكن ماذا لو أنّ مانولو لم يكن يعرف أكثر مما

صرّح به؟ وأنّ ذلك الموعد لم يكن أكثر من خدعة كي يحصل منه على تلك القصاصات كما قال بنفسه؟ حاول فيرمينو أن يكسب الوقت.

ـ هذا يعود إلى ما ستقوله لي ـ قال ـ وما إذا كان ما ستحكيه لي يستحق ذلك.

كرّر مانولو بجفاف:

ـ كم قصاصة؟ ـ ولامس سبابته بإبهامه من جديد.

تقبله أو تتركه، فكّر فيرمينو. ما من خيار آخر.

ـ عشرة آلاف اسكودو ـ قال ـ لا أكثر ولا أقل .

قام مانولو بحركة موافقة غير محسوسة من رأسه.

ـ كافاليو ـ تمتم وحمل إبهامه إلى شفتيه ملقياً برأسه إلى الخلف.

التقط فيرمينو المعنى هذه المرة بسرعة الطائر، نهض، دخل إلى الحانوت وعاد بليتر من النبيذ الأحمر. مدّ خلال ذلك يدَه إلى جيبه وأطفأ المسجلة. ما كان باستطاعته أن يقول لماذا فعل ذلك. ربّما لأنّ مانولو أعجبه هكذا من النظرة الأولى. أعجبه ذلك التعبير القاسي والساهي في آنٍ معاً، القانط على طريقته؛ ثمّ إنّ صوت الغجري العجوز ما كان يستحق أن يُسرق بآلة إلكترونية يابانية.

ـ احكِ لي كلّ شيء ـ قال فيرمينو وقد استند بمرفقيه إلى الطاولة ووضع قبضتيه على صدغيه، كما يفعل حين يريد أن يركّز. أيضاً يستطيع أن يستغني عن دفتر الملاحظات، إذ تكفيه الذاكرة.

أخذ مانولو الأمر بهدوء. فهو بعد كلّ حساب يُحسن التعبير عن نفسه، أما بالنسبة لكلمات اللهجة الغجرية فماذا سيعمل له، ففيرمينو لا يعرف فكّ رموزها، لكنه يستطيع حدسَ معناها من مجرى الحديث. بدأ كلامه قائلاً بأنّ النوم يكلّفه جهداً، ويستيقظ في عزّ الليل. وإنّ هذا ما يجري للشيوخ، لأنّ العجائز يستيقظون ويفكرون بمجمل حياتهم، وهذا ما يسبّبُ لهم الضيقَ، لأنّ التفكّرَ بمجمل

الحياة يثير الشجون، وبخاصة حياة من ينتمون إلى الشعب الغجري، الذي كان ذات يوم نبيلاً وصار اليوم بائساً؛ لكنه شيخٌ في روحه فقط وفي عقله وليس في جسده، فهو ما زال يحتفظ برجولته، ورجولته لم تكن غير مجدية إلاّ مع زوجته، لأنّها عجوز، مما يحمله على النهوض والذهاب لتفريغ مثانته كي يرتاح. حدّثه بعدها عن مانوليتو، ابن ابنه، وشرح له كيف أنّ عينيه زرقاوان ومستقبلاً بائساً ينتظره. إذ ما المستقبل الذي يمكن أن ينتظر طفلاً غجرياً في عالم مثل هذا؟ ثمّ راح يهذي وسأله ما إذا كان يعرف مكاناً يدعى جاناس. كان فيرمينو يصغي إليه بانتباه. أعجبته طريقةُ مانولو بالكلام، بجمله المفخّمة الموشاة بكلمات بالعاميّة مما جعله يسأله:

ـ جاناس...، أين تقع؟

شرح مانولو له قائلاً بأنّها بلدة غير بعيدة كثيراً عن لشبونة، باتجاه الداخل، في منطقة مَفْرا، حيث يوجدُ مصلّى دائري يعود إلى مسيحيي الإمبراطورية الرومانية الأوائل وكان مكاناً مقدّساً بالنسبة للغجر، لأنّ الغجر يجوبون شبه الجزيرة الإيبرية منذ أزمنة مغرقة في القِدم، وفي كلّ سنة كان يجتمع غجر البرتغال يوم الخامس عشر من آب في جاناس ويحتفلون احتفالاً عظيماً، فيه غناء ورقص وأكورديونات وقيثارات لا تتوقّف لحظة واحدة وطعام يّحضّر فوق صلاءات هائلة عند سفح الهضبة، ثمّ وعند المغيب، حين تصبح الشمس في الأفق، في هذه اللحظة بالضبط، حين تصبغ أشعة الشمس السهل الذي ينتهي عند جرف إيريثِيْرا، يخرج الراهبُ الذي يقيم القدّاس من المصلّى ليبارك حيوانات الغجر، البغال والأحصنة، تلك الأحصنة التي كانت الأجمل في شبه الجزيرة الإيبرية ويبيعها الغجر بعد ذلك لإسطبلات إلترْ دو تشاو، حيث يروّضها فرسانٌ يشاركون في السباقات، لكن ماذا سيبارك الغجر الآن وقد صاروا بلا خيول ويشترون سيارات فظيعة؟ أو هل يمكن مُباركة السيارات المعدنية؟ طبعاً الخيول إذا لم يقدّم لها الشعير والبذور تموت، لكن السيّارات إذا لم تتوافر النقود للبنزين لا تموت وما إن يوضع لها بنزين حتى تقلع من جديد، ولذلك فالغجر الذين كانوا يملكون بعض المال ماعاد

عندهم خيول واشتروا سيارات، لكن هل يمكن مُباركة السيارات؟

كان مانولو ينظر إليه بعينين متسائلتين، وكأنه ينتظر منه حلاً وعلى وجهه تعبير بؤسٍ عميق.

خفض فيرمينو نظره كما لو كان مسؤولاً عمّا يجري لشعب مانولو، ولم يملك الجرأة على دعوته للمتابعة. لكنّ مانولو تابع من تلقاء نفسه، بتفاصيل ربّما اعتبرها مهمّة، مثل أنّه راح يبول تحت شجرة البلوط العتيقة، وكيف رأى الحذاء الذي برز من بين الشجيرات. ثمّ وصف له سنتيمراً بسنتيمتر ما رأته عيناه عندما تفحّص الجسد الذي كان يجثو بين الشجيرات، وقال إنّ على القميص الذي يرتديه الجسد بعض الكتابات، وهجّاها لأنّه لم يكن يعرف لفظها، فقد كانت لغة أجنبية فكتبها فيرمينو في دفتر ملاحظاته.

ـ هكذا؟ ـ سأل فيرمينو ـ هكذا كان مكتوباً؟

أومأ مانولو بالإيجاب. كان مكتوب عليه: *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*».

ـ لكنّ الشرطة صرّحت بأنّ ظهره كان عارياً ـ اعترض فيرمينو ـ تقول الصحافة إنّ ظهره كان عارياً.

ـ لا ـ أصرّ مانولو ـ كانت عليه هذه الكلمات، هذه الكلمات بالضبط.

ـ تابِعْ ـ طلب فيرمينو.

تابع مانولو، لكن فيرمينو كان يعرف البقيّة. فهو ما رواه مانولو لصاحب الحانوت وما أكّده هذا مرّةً وأُخرى للشرطة. فكّر فيرمينو أنّه ربما ما عاد باستطاعته أن يستخلص شيئاً آخر من الغجري العجوز ومع ذلك هناك شيءٌ ما دفعه للإلحاح.

ـ أنت تنام قليلاً، يا مانولو ـ قال له ـ هل سمعت شيئاً في تلك الليلة؟

وضع مانولو كأسه فملأه له فيرمينو. اجترع مانولو النبيذ وهمس:

ـ مانولو يشربُ، لكنّ شعبه يحتاج للدجن.

ـ وما هو الدجن؟ ـ سأل فيرمينو.

ترجمها له مانولو بلطفٍ إلى البرتغالية.

ـ تعني خبز.

ـ هل سمعت شيئاً خلال الليل؟ ـ كرّر فيرمينو.

ـ محرّك ـ قال مانولو بسرعة.

ـ هل تعني سيارة؟ ـ استقصى فيرمينو.

ـ سيارة وصفق أبواب تُغلق.

ـ أين؟

ـ أمام خُصّي.

ـ وهل تستطيع السيارة أن تصل إلى كوخك؟

أشار مانولو إلى درب ترابي يأتي بشكل متعرّج من الطريق العام الرئيسي ويدور حول المخيم.

ـ عبر هذا الدرب يمكن الوصول حتى شجرة البلوط العتيقة ـ حدّد بدّقة ـ والهبوط عبر الهضبة حتى النهر.

ـ هل سمعت أصواتاً؟

ـ أصوات ـ أكّد مانولو.

ـ ماذا كانت تقول؟

ـ لا أدري ـ قال مانولو ـ كان من المحال فهمها.

ـ ولا حتى كلمة واحدة؟ ـ أصرّ فيرمينو.

ـ كلمة ـ قال مانولوـ سمعتهم يقولون مخرأة.

ـ سجن؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ سجن. ـ وافق مانولو.

ـ وماذا بعد؟

ـ بعد ذلك لا أعرف شيئاً ـ قال مانولو ـ لكن واحداً منهم كان معه قنوطة هائلة.

ـ قنوطة؟ ـ سأل فيرمينو ـ ماذا تعني؟

أشار مانولو إلى زجاجة النبيذ.

ـ هل شرب؟ ـ سأل فيرمينو ـ هل هذا ما تريد أن تقوله، إنّه كان سكراناً؟

وافق مانولو بحركة من رأسه.

ـ وكيف انتبهت إلى ذلك؟

ـ كان يضحك كمن أخذته سكرة عظيمة.

ـ وهل سمعت شيئاً آخر؟ ـ سال فيرمينو.

هزّ مانولو رأسه يمنة ويسرة.

ـ فكّرْ جيداً، يا مانولو ـ قال فيرمينو ـ فكلُّ ما يمكن أن تتذكّره رائع بالنسبة إليّ.

بدا أنّ مانولو يفكّر.

ـ كم تعتقد أنّهم كانوا؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ اثنان أو ثلاثة ـ لا أدري. يمكن أن يكونوا كذلك.

ـ ألا تذكر أيّ شيء آخر مهم؟

فكّر مانولو وشرب كأسَ نبيذٍ آخر.

ظهر صاحب الحانوت من باب الفناء وبقي ينظر إليهما بفضول.

ـ خرّاء ـ قال مانولو ـ هذا هو اسمه، له عليّ ألفا اسكودو ثمن أغوارديينتِ.

ـ تستطيع بالنقود التي سأعطيها لك أن تُسدِّدَ ديونك ـ واساهُ فيرمينو.

ـ واحد منهم كان يتكلّم بشكلٍ سيِّئ ـ قال مانولو.

ـ ماذا تعني؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ كان يتكلّم بشكلٍ سيّئ.

ـ هل تعني أنّه لم يكن يتكلّم البرتغالية؟

ـ لا ـ قال مانولو ـ هكذا ـ ما أخـ خـ خـ خراها من حيـــ حياة، ما أخـ خـ خـ خراها من حيـــ حياة.

ـ هاهه ـ قال فيرمينو ـ يعني متلعثم.

ـ بالضبط ـ أكّد مانولو.

ـ هل من شيء أكثر؟ ـ سأل فيرمينو.

هزّ مانولو رأسه.

أخرج فيرمينو حقيبته وأخرج منها عشرة آلاف اسكودو. أخفاها مانولو بسرعة مباغتة. نهض فيرمينو ومدّ له يده. صافحه مانولو وحمل إصبعين إلى القبّعة.

ـ اذهب إلى جاناس ـ قال مانولو ـ إنّه مكان جميل جدّاً.

ـ سأذهب عاجلا أو آجلاً ـ وعده فيرمينو وهو يبتعد. دخل المقهى وطلب من صاحبه أن يطلبَ له سيارة أجرة.

ـ تضيع وقتك ـ أجابه صاحب المقهى بجفاف ـ فسيارة الأجرة ترفض المجيء إلى هنا إن طُلبت بالهاتف.

ـ يجب أن أذهب إلى المدينة ـ قال فيرمينو.

أبعدَ صاحب المقهى الذباب بخرقة وسخة وأجابه بأن هناك باصاً.

ـ أين الموقف؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ على مسافة كيلو متر ، خارجاً من جهة اليسار.

خرج فيرمينو تحت الشمس الملتهبة . اللعنة على موتاك. خرّاء. فكّر. كان الحرّ ضارياً، إنّه حرّ رطب جدّاً كما هو حر أوبورتو. لم يكن من أحدٍ يمرّ على الطريق العام. لا يستطيع حتى أن يذهب

بالأوتو ـ ستوب. فكّر ما إن يصل إلى النزل حتى يكتب المقال ويرسله بالفاكس إلى الصحيفة. سيخرج بعد غدٍ. كان قد تصوّر العنوان: *الرجل الذي عثر على الجثّة مقطوعة الرأس يتكلّم*. ثم تحتها وإلى الداخل قليلاً : من مبعوثنا في أوبورتو. القصّة الكاملة مع كلّ التفاصيل الفريدة، كما رواها مانولو، وتلك السيارة الغامضة التي توقّفت في منتصف الليل بالقرب من خُصّه. والأصوات في الظلمة. جرائم وألغاز، كما كان يريد قرّاء صحيفته. لكنه لن يقول إنّ واحداً من تلك الأصوات كان يتلعثم. هذا لا. فيرمينو لا يعرف لماذا. لكنّه سيحتفظ بهذا التفصيل لنفسه. لن يكشف عنه لقرّائه.

في المنعطف المشؤوم للطريق الفسيح وأمامه بحر زرقَتُهُ كوبالتية، إعلانٌ هائل للخطوط الجويّة البرتغالية يَعِدُ بإجازاتِ أحلامٍ في مادِيْرا؟

5

وَيْحَكَ ، قال فيرمينو، كيف يمكنك القول بأنّ مدينة لا تعجبُك، إذا كنتَ لا تعرفها جيّداً؟ إنّه شيء غير منطقيّ. غياب حقيقيّ للروح الجدلية. لوكاتش كان يؤكّدُ أنّ المعرفةَ المباشرة للواقع أداة لا غنى عنها لتكوين الرأي النقديّ. لا شكّ بذلك.

لذلك دخل فيرمينو إلى مكتبةٍ كبرى وبحث عن دليل. وقع خياره على نشرة صدرت توّاً، ذات لون أزرق جميل، وصور رائعة بالألوان. كان المؤلف يُدعى هِلْدِرْ باتشِكو ويظهرُ كفاءة هائلة إضافة إلى حبّ غير معهود لأوبورتو. كان فيرمينو يمقتُ الدليل الفنّي الحيادي والموضوعي، بمعلوماته الباردة، ويفضّلُ الأشياء المصنوعة بحماس، لأنّه يحتاجُ، بين أشياء أخرى، إلى الحماس في الحالة التي هو فيها.

وهكذا راح يجول في المدينة مزوّداً بذلك الدليل، متسلّياً بالبحث في الكتاب عن الأماكن التي تقوده إليها خطواته التائهة. وجدَ نفسه في شارع سان بِنْتو دا فيتوريا، فأعجبه المكانُ خاصّة في ذلك الحر، فهو شارع مظلم، رطب، يبدو أن الشمس لا تنفذ إليه. بحث عن المكان في الفهرس، سهل المراجعة، فوجده في الحال في الصفحة مئة واثنتين وثلاثين. اكتشف أنّه كان يدعى في الماضي شارع سان ميغِلْ وأن راهباً مجهولاً بالنسبة إليه يدعى برِيْرا دِ نوفايس خصّه في عام 1600 بوصفٍ غريب باللغة القشتالية. استغرق في وصف ذلك

الراهب الفخم الذي يتحدّثُ عن «بيوت بعض النبلاء الجميلة»، وزراء، مستشارين وأعيان آخرين التهمهم الزمن، لكن بقيت شواهد عمرانية تدلُّ عليهم: واجهات، تيجان من الطراز الأيوني تذكّر بالعصر النبيل والمذهل والمترف لذلك الشارع قبل أن تحوّله صرامةُ التاريخ إلى شارع دهمائي، كما هو عليه الآن. تابع تَقَصّيهِ فوصل أمام قُصَيْرٍ قويِّ الحضور، يعود بحسب الدليل إلى بارونة دا رِغالِيْرا، بناه في نهاية القرن الثامن عشر تاجرٌ برتغاليٌ في لندن يدعى خوسِه مونتِيْرو دِ ألْمِيْدا وصار فيما بعد مركزاً للبريد، وديراً للكرمليات، ومعهداً حكومياً. إلى أن تحوّل إلى مقرٍّ لشرطة الجنايات. توقّف فيرمينو برهة أمام تلك البوّابة الجليلة. شرطة الجنايات. من يدري ما إذا كان هناك في الداخل أحدٌ ما مشغولاً بالجسم مقطوع الرأس الذي يتابع هو نفسه آثاره غير الأكيدة. من يدري ما إذا كان هناك قاضٍ جهم، غارق في فكّ ألغاز التقارير التي كتبها الأطباء الشرعيون الذين قاموا بالتشريح يحاول أن يصل إلى هوية ذلك الجسد المبتور.

نظر فيرمينو إلى الساعة وتابع طريقه. كانت الثانية عشرة صباحاً تقريباً. لا بدّ أن «الحوادث» صارت الآن في أكشاك صحف أوبورتو، فهي تصل مع طائرة الصباح. انحدر إلى ساحة صغيرة لم يهتم بالبحث عن اسمها في الدليل. توجّه إلى الكشك واشترى الصحيفة. جلس على مقعد. خصّصت «الحوادث» للحدثِ الصفحةَ الأولى مع رسم بنفسجي يظهر فيه طيف جسدٍ بلا رأس فوق سكين يقطّر منها الدم. كان العنوان الهائل يقول: *ما زال الجسد مقطوع الرأس بلا اسم*. كانت مقالته في الصفحات الداخلية. قرأها فيرمينو بانتباه فوجد أنّه لم يكن هناك تعديلات جوهرية. ومع ذلك وجد أن المقطع الذي يتحدّث فيه عن القميص الداخلي الأزرق قد عدّل بشكلٍ طفيف فشعر ببعض الغضب. توجّه إلى غرفة هاتف وهتف للصحيفة. طبعاً ردّت عليه الآنسة أودِتّ واستوقفته برهة طويلة. مسكينة، احتكاكها الوحيد بالعالم، وهي في كرسيّ عجلاتها، هو الهاتف. كانت تريد أن تعرف ما إذا كان الناس يأكلون في أوبورتو كلّ تلك

الكرشات كما يقولون ويردّ فيرمينو بأنّه تحاشاها. ثمّ ما إذا كانت أجمل من لشبونة. وردّ فيرمينو: إنّها مختلفة ولها سحرها الخاص وإنّه يكتشفها. أخيراً هنّأته على مقالته التي بدت لها مدهشة وأعلمته أنّ من حسن حظّه الحقيقي أن يعيش مغامرات بهذه الكثافة، أخيراً أعطته المدير.

ـ اسمعْ ـ قال فيرمينو ـ أرى أنّنا قررّنا أن نكون حذرين.

ضحك المدير.

ـ إنّها مسألة استراتيجيا.

ـ لا أفهم ـ قال فيرمينو.

ـ اسمعْ، يا فيرمينو ـ وضّح المدير ـ أنت تؤكّد أن الغجري مانولو وصف القميص للشرطة بكلّ تفصيل، لكنّ الشرطة أكّدت في بيانها أنّ الجثّة كانت عارية الجذع.

ـ بالضبط ـ اضطرب فيرمينو ـ إذن؟

ـ إذن لا بدّ أنّ هناك سبباً ـ أصرّ المدير ـ لسنا نحن من يكذّب الشرطة، أعتقد أن من الأفضل أن نقول إنَ الجثّة كانت، بحسب بعض الأصوات التي جمعناها، ترتدي قميصاً عليه كلمات *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*»، فقد يكون هذا المانولو قد اخترع كلّ شيء.

ـ لكنّنا نُقامِر بالخبر إذا لم نقل بأنّ الشرطة أخفت القميص ـ احتجّ فيرمينو.

ـ لا بدّ أنّ هناك سبباً ـ ردّ المدير ـ وسيكون رائعاً أن تكتشفه أنت.

ضبط فيرمينو نفسه بشقّ النفس. يا لها من أفكار عظيمة تلك التي تخطر للمدير. فالشرطة حتى لن تستقبله، لا يظنُّ أنّها سترد على أسئلة صحافيّ.

ـ وأيّ هراء تفعل أنت هناك إذن ـ سأل فيرمينو.

ـ اعتصر لي تفكيرك جيّداً ـ قال المدير ـ فأنت شابّ وعندك خيال جيّد.

ـ من هو القاضي المسؤول عن الحالة؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ القاضي كواريم، ها أنت تعرف، لكنّك لن تخرج منه بشيء، لأنّ جميع المعلومات قدّمتها إليه الشرطة.

ـ يبدو لي أنّها حلقة مفرغة رائعة ـ رأى فيرمينو.

ـ اعتصر خيالك ـ قال المدير ـ لهذا التحقيق أرسلتك إلى أوبورتو.

خرج فيرمينو من غرفة الهاتف يتصبّبُ عرقاً. كان يشعر بغضب أشدّ. اتجه إلى نافورة الساحة وغسل وجهه. خراء. فكّرَ، والآن؟ كان موقف الباص في الزاوية تماماً. استطاع فيرمينو أن يأخذ الباص الذي يقود إلى المركز وهو يسير. هنّأ نفسه لأنّه صار متمكّناً من معرفة النقاط العلاّمة الرئيسية في تلك المدينة التي بدت له طبوغرافيتها معادية في البداية. طلبَ من السائق أن يدلّه على أقرب موقفٍ من مركزٍ تجاريّ. نزلَ بإيماءة من السائق ولم ينتبه حتى تلك اللحظة إلى أنّه لم يدفع ثمن التذكرة. دخل المركزَ التجاريّ، فضاء هائل استطاع معماريّ فطنٌ، وهو أمر صار في كلّ مرّة أكثر ندرةً، أن يحشره بين مجموعة من الأبنية القديمة دون أن يُخرِّب الواجهةَ. كانت أوبّورتو مدينة منظمة: في المدخل، وفي الموزّع الرحب المليء بالأدراج الهابطة إلى القبو والأخرى الصاعدة إلى الطوابق العليا، هناك طاولة عرض وراءها فتاة جميلة ترتدي بدلةً زرقاء توزّع على الزبائن نشرةً توصيفية حيث تشير إلى حوانيت المركز وموقعها بالضبط. درس فيرمينو النشرةَ واتجه عازماً إلى الممر (ب) من الطابق الأوّل. الحانوت يدعى «T- shirt International». كان محلاً مليئاً بالمرايا، مع غرف تجريب والرفوف مليئة بالقمصان، التي يجرّبها بعض الفتية وهم ينظرون إلى أنفسهم في المرايا. اتجه فيرمينو إلى العاملة، الشقراء، طويلة الشعر.

ـ بودي الحصول على قميص ـ قال ـ قميصٍ خاص.

ـ عندنا هنا لكلّ الأذواق، يا سيّد ـ ردّت الفتاة .

ـ هل هي وطنية؟ ـ سأل فيرمينو .

ـ وطنية وأجنبية ـ أجابت الفتاة ، نستوردها من فرنسا وإيطاليا وإنكلترا ومن الولايات المتحدة الأمريكية بشكلٍ خاصّ.

ـ حسن ـ قال فيرمينو ـ لونه أزرق، لكن يمكن أن يكون من أيّ لونٍ آخر، المهمّ هو الكتابة.

ـ وماذا يُكتبَ عليه؟ ـ سألت.

ـ *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*» ـ قال فيرمينو.

بدت الفتاة تفكّر لحظة. عوجت فمها قليلاً، كما لو لم تعنِ لها تلك الكلمات شيئاً، أخذت فهرساً سميكاً مكتوباً على الآلة الكاتبة ومرّت عليه بسبّابتها.

ـ آسفة، يا سيّد ـ قالت ـ غير موجود عندنا منه.

ـ لكنّني رأيته ـ قال فيرمينو ـ كان يرتديه شخصٌ عبرتُ به في الشارع.

اتخذت الفتاةُ من جديد وضعيّة التفكير.

ـ ربّما كان دعاية ـ قالت فيما بعد ـ لكن ليس عندنا قمصان دعاية، فقط قمصان تجارية.

فيرمينو تفكّرَ أيضاً. دعاية. يمكن أن يكون قميصَ دعاية.

ـ نعم ـ قال ـ لكن دعاية ماذا؟ ماذا تعتقدين أن تكون *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*»؟

ـ حسن ـ قالت الفتاة ـ يمكن أن تكون فرقة روك جديدة قدّمت حفلة؛ عادة ما يبيعون قمصان دعاية في المدخل حين يكون هناك حفلة. لماذا لا تحاول في حانوت اسطوانات؟ فعادة يبيعونها مع الاسطوانات أيضاً.

خرج فيرمينو وبحث في النشرة عن حانوت اسطوانات. موسيقى كلاسيكية أو حديثة. كانت في الممرّ ذاته. كان فتى طاولة

العرض يضعُ على أذنيه سمّاعة ويصغي منسجماً. انتظر فيرمينو بصبرٍ أن ينتبه إلى وجوده.

ـ هل تعرف فرقة تُدعى *Stones of Portugal «حجارة البرتغال»*؟ ـ سأل.

نظر إليه البائع واتخذ وضعيّة المتفكّر.

ـ لا أذكر ـ أجابَ ـ هل هي فرقة جديدة؟

ـ ممكن ـ ردّ فيرمينو.

ـ جديدة جدّاً؟ ـ سأل البائع.

ـ ممكن ـ أجاب فيرمينو.

ـ نحنُ على معرفة عادة بالجديد ـ أكّد البائع ـ أجَدُّ الفرَق هي الأثرياء الجدد Novos Ricos و غربان لشبونة lisbon Ravens لكن الفرقة التي تبحث عنها بصراحة لم أسمع بها، اللهمَّ إلا إذا كانت فرقة هواة.

ـ هل تعتقد أنّ فرقة هواة يمكن أن تصمّم قمصاناً دعائية؟ ـ سأل فيرمينو، وإن كان الآن دون أمل.

ـ لا يخطرْ ببالك ذلك ـ أجاب البائع ـ فهذا ما لا تستطيع عمله أحياناً حتى الفرق المحترفة، هل تعلم؟ نحنُ نعيش في البرتغال وليس في الولايات المتحدة الأمريكية.

شكره فيرمينو وخرج. كانت الساعة الثانية ظهراً تقريباً. لم تكن لديه رغبة للبحث عن مطعم. ربما استطاع أن يأكل شيئاً في نزل السيّدة روسا. اللهم إلا إذا كان صحن اليوم كرشة.

6

كان صحن السيدة ورسا في ذلك اليوم rojoes على طريقة المينيو. ربما لم يكن أكثر الصحون ملاءمة خاصة في حرّ أوبّورتو، لكنّ فيرمينو كان يُجنُّ به، بشرحات صُلب الخنزير المحمّسة مع البطاطا في المقلاة.

لأوّل مرّة يجلس في مطعم النزل منذ أن وصل. كان هناك ثلاث طاولات مشغولة. اقتربت السيّدة روسا وأرادت أن تُقدّمه إلى بقية النزلاء، فهي تحبّ ذلك. تبعها فيرمينو. الأوّل السيّد باولو، وهو سيد في حدود الخمسين من عمره، ويستورد لحماً لمنطقة سِتابول. كان أصلع وممتلئاً. الثاني السيّد بيانتشي، إيطاليّ لا يتكلّم البرتغالية ويعبّر عن نفسه بفرنسية متلعثمة. عنده شركة تشتري الفطر الطازج والجاف تصدّره إلى إيطاليا. حكى مبتسماً أنّ تجارته على أحسن حال وأنّه يأمل أن يبقى البرتغاليون لا يولون الفطر إلا قليلاً من الأهمية. أخيراً كان هناك زوجان من أفِيْرو يحتفلان بعيد زواجهما الفضّي وهما في شهر عسلهما الثاني. من يدري لماذا اختارا هذا النزل بالتحديد؟

قالت له السيدة روسا إنّ المدير كان يبحثُ عنه ويريده أن يهتف له بالسرعة القصوى. ترك فيرمينو المدير ينتظر معلقاً لحظة وإلا فكلّ تلك العجائب التي تدور في المصادر ستبرد. أكل بهدوء

ومتعة، لأنّ الخنزير كان فعلاً رائعاً. طلب قهوة لكنّه أذعن أخيراً لعاملة هاتف الصحيفة.

كان الهاتف في الصالة الصغيرة، ففي الغرف لم يكن يوجد إلا إنترفون يصل بالاستقبال حصراً.

أدخل فيرمينو النقود في الحصّالة وأدار القرص. لم يكن المدير موجوداً فوصلته مع السّيد سيلفا، الذي ناداه فيرمينو بالسيّد هوبِّرث كي لا يزعل منه فبدا السيّد هوبِّرت لطيفاً وأبوياً.

ـ هتف شخص دون أن يكشف عن هويّته ـ قال ـ وهو لا يريدُ أن يتكلّم معنا بل مع المبعوث، أي معك، أعطيناه رقم النزل، سيهتف لك في الرابعة، بالنسبة إلي إنّه يهتف من أوبّورتو.

توقّف السيد سيلفا ثمّ سأله بنبرة غادرة.

ـ هل تحبّ الكرشة؟

أجابه فيرمينو أنّه أكل صحناً منه لا يمكن أن يحلم به ولا في أيّام سعده.

ـ لا تخرج من النزل ـ أكّد سيلفا ـ قد لا يكون أكثر من مجنون، لكنّه لم يولّد عندي هذا الانطباع. أحْسِنْ مُعاملته، فربّما كانت عنده أشياء مهمّة يقولها لك.

نظر فيرمينو إلى الساعة وجلس على الأريكة. غريب، فكّر، الآن حتى هذا المعتوه سيلفا صار يسمح لنفسه بإسداء النصائح إليه. أخذ مجلّة من حاملة المجلات الخيزرانية. كانت تُدعى *فولتوس* وتهدي صفحاتها للجِت ـ سِتْ jet - set البرتغالية والدولية. شرع يقرأ باهتمام تقريراً له علاقة بالطامح لعرش البرتغال، دونْ دوارتِ دِ بارغانثا، الذي أنجب توّاً طفلاً ذكراً. الطامح له شاربان على طريقة القرن التاسع عشر، كان متخشّباً على مقعد من الجلد، عالي الظهر ويشد بيده على قرينته الغارقة في كرسيّ منخفض، بشكل لا يُرى منها سوى ساقيها وعنقها وكأنّ جذعها قد جُزّ. خلُص فيرمينو

إلى أنّ المصوّر كان سيّئاً جدّاً، لكنّه لم يملك الوقت لإنهاء المقالة فقد رنَّ الهاتف. انتظر أن تردَّ السيّدة روسا.

ـ إنّه لك، يا سيّد فيرمينو ـ قالت السيّدة روسا بلطف.

ـ نعم؟ ـ قال فيرمينو.

ـ انظر في الصفحات الصفراء ـ همسَ الصوتُ في السمّاعة.

ـ في الصفحات الصفراء، وعمّ سأبحث؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*» ـ قال الصوت ـ في قسم الاستيراد والتصدير.

ـ ومن أنت؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ هذا لا يهمّ ـ أجاب الصوتُ.

ـ ولماذا لا تهتف للشرطة بدل أن تهتف لي؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ لأنّني أعرف الشرطة أفضلَ منك ـ أجاب الصوت وعلّق الهاتفَ.

راح فيرمينو يفكّر. كان صوتاً شابّاً، وذا نبرة شمالية واضحة. لم يكن شخصاً متعلماً، هذا ما تَبَيَّنَهُ من كلامه. وماذا؟ ماذا يهمّ هذا؟ فالشمال البرتغاليّ كان مليئاً بالشباب ذوي النبرة الشمالية الواضحة غير المتعلمين. أخذ عن الطاولة الصفحات الصفراء وبحث عن قسم الاستيراد والتصدير. قرأ *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*» فيلا نوفا دِ غايا، شارع هيرويس دو مار العريض، 123. نظر في دليله، لكنّه لم يعد عليه بالمساعدة الكبيرة. لم يبق أمامه إلا الاستعانة بالسيّدة روسا. فتحت السيّدة روسا بكثيرٍ من الصبر خريطة أوبّورتو من جديد ودلّته على المكان. الحقيقة لم يكن على بعد خطوتين. بل على الطرف الآخر وعملياً ليس في أوبّورتو. ففيلا نوفا قرية صغيرة مستقلة إدارياً، لها بلديتها وكلّ شيء. هل كان مستعجلاً؟ إذا كان مستعجلاً ليس أمامه إلا أن يأخذ سيّارة أجرة، لأنّه في النقل العام لن يصل حتى ساعة العشاء، ولا تعرف أن تقول له كم سيكلّفه، فهي لم تذهب قط في سيّارة أجرة إلى فيلا نوفا دِ

غايا، لكن من الواضح أن للرفاهية ثمنها. والآن وداعاً أيّها الفتى، فهي ستنام قيلولتها القصيرة، حاجتها تماماً.

كان شارع هيرويس دو مار العريض شارعاً طويلاً من شوارع الضواحي محاط ببعض الأشجار الهزيلة، وتحيط به أراض تشاد عليها أبنية، وفيها ورشات صغيرة وشاليهات حديثة البناء بحدائق مليئة بتماثيل بياض الثلج والسنونو الخزفية على جدران الشرفات. كان البناء رقم 123 أبيضَ فضيّاً، وله رواق قرميدي وجدار متموج على الطريقة المكسيكية. خلف البناء ينهض عنبر مغطى بالصفيح. على الجدار إعلان من الصفيح يقول *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*». ضغط فيرمينو على زرّ ففتح باب القضبان. كان للبناء رواق صغير مثل بقية شاليهات الشارع وعلى أحد الأعمدة إعلان يقول « الإدارة ». دخل فيرمينو. كانت عبارة عن صالة صغيرة مزودة بفرش حديث، لكنّه لا يخلو من بعض الذوق. وهناك خلف طاولة زجاجية مليئة بالأوراق عجوز أصلع يضع نظارة ويكتب على الآلة الكاتبة.

ـ صباح الخير ـ قال فيرمينو.

قطع العجوز الصغير عمله ونظر إليه. ردَّ التحيّة.

ـ ما الدافع من زيارتك؟ ـ سأله.

جلس فيرمينو وقد استحوذته المفاجأة. فكّر إنّه أبله حقيقيّ، طوال الطريق وهو يفكّر بمانولو، ثمّ بخطيبته، التي يشعر بالشوقِ إليها ثم كيف ستكون ردّة فعل لوكاتش لو أنّه اضطر ليواجه حقيقة خالصة، كالحالة التي يعيشها الآن، بدلِ أن يكون أمام حالة روائية من حالات بلزاك. فكّر بكلّ هذا ولم يفكّر كيف سيُقَدّم نفسه.

ـ أريد المدير ـ أجاب شبهَ متلعثم.

ـ المالك في هونغ كونغ ـ قال العجوز الصغير ـ سيغيب كلّ الشهر.

ـ مع من أستطيع الكلام؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ أمينة السرّ أخذت إجازة لمدّة أسبوع ـ وضّح له العجوز الصغير ـ ولم يبق هنا غيري، أنا المكّلف بأمور المحاسبة، وعامل المخزن الشاب. هل الأمر مستعجل؟

ـ بلى ولا ـ أجاب فيرمينو ـ ذلك أنّني عابر بأوبورتو وأردت أن أقدّم اقتراحاً للمالك.

وتابع بعد ذلك كما لو ليضفي مصداقية أكبر على حضوره:

ـ أنا بعيد ، فعندي شركتي الصغيرة في لشبونة.

ـ هاه ـ أجاب الموظّف دون أدنى اهتمام.

ـ هل أستطيع الجلوس لحظة؟ ـ سأل فيرمينو.

أشار الموظّف بيده إلى المقعد الموجود أمام المكتب. كان عبارة عن كرسيٍّ قماشه رمليّ اللون، له ذراعان من النوع الذي يستخدمه مخرجو السينما. فكّر فيرمينو بأنّ مصمم ديكور *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*» شخصٌ حسن الذوق.

ـ وبماذا تختصون؟ ـ سأل بألطف ابتسامة عنده.

رفع العجوز الصغير أخيراً رأسه عن أوراقه. أشعل سيجارة غلواز من علبة موجودة على الطاولة ونفث ملء فمه بشراهة.

ـ اللعنة ـ قال ـ هذه الحسابات مع الصينيين جهنمية. يرسلون اللوائح بالدولار من هونغ كونغ وعليّ أن أحوّلها هنا إلى اسكودات برتغالية، مع فارق أنّ دولار هونغ كونغ لا يتذبذب قيد شعرة، ولا حتى سنتيماً واحداً، بينما عملتنا زبدة، لا أدري ما إذا كنتَ تتابع بورصة لشبونة أم لا.

وافق فيرمينو وفتح ذراعيه كمن يقول : نعم، نعم، أعرف ذلك تماماً.

ـ بدأنا بالرخام ـ قال العجوز الصغير ـ كنّا منذ سبع سنين الزعماء، أنا وكلب راع وكوخ من الصفيح.

ـ أتصوّر ذلك ـ شجّعه فيرمينو ـ الرخام في هذا البلد أموره جيّدة.

ـ أموره جيّدة ـ هتف العجوز الصغير ـ أموره جيّدة. لكن يجب التكهن بالسوق المناسبة. والمالك له حاسّة شمّ استثنائية، ربّما حالفه الحظّ قليلاً أيضاً، لكن إحساسه بالتجارة لا يمكن نكرانه، ولذلك فكّر بإيطاليا.

قام فيرمينو بحركة استغراب.

ـ يبدو لي تصدير الرخام إلى إيطاليا فكرة مدهشة ـ قال ـ فالإيطاليون عندهم من الرخام ما يعطون ويأخذون.

ـ هذا ما تظنّه، يا سيّدي العزيز ـ هتف العجوز الصغير ـ وكنت أنا أيضاً أظنّه، لكن هذا يعني أنّه ليس عندنا حاسّة شم ولا نعرف قوانين السوق. سأقولُ لك شيئاً واحداً: هل تعلم ما هو الرخام الأكثر تقديراً في إيطاليا؟ شيء بسيط جدّاً، رخام كارّارا. وهل تدري ما الذي تطلبه السوق الإيطالية؟ هذا أيضاً بسيط جدّاً، تطلب رخام كارّارا. لكن الذي يحدث هو أنّ كارّارا لم تعد تعطي ما يغطي الطلب، يا سيّدي العزيز، أمّا الأسباب الدقيقة فأجهلها، لنقل لأنّ اليد العاملة مرتفعة السعر، فعمال السابرات فوضويون، ولهم نقابة متشدّدة في مطالبها، والبيئيون يزعجون الحكومة لأنّ لوس ألبِّسْ أبّوانوس انحسرت حتى صارت قمعاً، أشياء من هذا القبيل.

مجّ العجوز الصغير سيجارته بنهم.

ـ حسن ـ تابع ـ بالمصادفة، هل أنت في جوّ رخام إشترِموثْ؟

قام فيرمينو بحركةٍ مبهمة من رأسه.

ـ له خصائص رخام كارّارا ذاتها ـ قال العجوز الصغير برضىً ـ مساميّته ذاتها، العروق ذاتها، مقاومة الصقل ذاتها، رخام كارّارا ذاته.

أفلتَ العجوزُ تنهيدة وكأنّه كشف سرَّ القرن.

ـ هل تفهمني؟ ـ سأل.

ـ أفهمك ـ قال فيرمينو.

ـ إذن حسن ـ تابع العجوز ـ إنّه بيضة كولومبوس. المعلّم يبيع رخام إسترِموث إلى كارّارا، ويعودون هم فيبيعونه في سوق إيطاليا على أنّه من كارّارا، بمعنى أنّ فناءات أبنية روما وحمامات الإيطاليين الأقوياء مغطاة بالرخام الرائع القادم من إسترموث، البرتغال. هذا مع أنّ المعلّم لم يبغ أن يقوم بالأشياء على مستوى كبير، فقط تعاقد عقداً صغيراً مع شركة من إسترموث تأخذ على عاتقها قطع الكتل وتخرجها من سِتوبال، فقط بكلفة اليد العاملة البرتغالية. هل تعلم ماذا يعني هذا بالنسبة إلينا؟

انتظرَ من فيرمينو بقلق جواباً لم يأتِه.

ـ ملايين ـ أجاب نفسه. ثمّ تابع ـ: وبما أنّ شيئاً يقود إلى آخر فقد حاول المعلّم العثور على أسواقٍ جديدة ووجدها في هونغ كونغ، ذلك أنّ الصينيين يُجَنّون أيضاً بالرخام المدعو رخام كارّارا، وبما أنّ شيئاً يقود إلى آخر فقد فكرّ المعلّم أنّ اللحظة قد حانت كي نتحوّل إلى شركة للاستيراد والتصدير طالما أنّنا نختصّ بالتصدير، هل تعلم؟ مظهرنا هكذا لا يدلّ علينا، فمقرّنا متواضع، لكن فقط كي لا نلفت الانتباه. في الحقيقة نحن واحدة من أكثر الشركات مبيعاً سنوياً في أوبورتو، وبما أنّك مثلنا تعرف أنه يجب الإبقاء على المالية بعيدة عنا. هل تدري بأنّ معلمي يملك سيارتَيّ فِرّاريس وسيارتَيّ تستاروسا؟ إنّها في بيته الريفي. وهل تدري ماذا كان يعمل قبل ذلك؟

ـ ليس عندي أدنى فكرة ـ أجاب فيرمينو.

ـ كان مستخدماً في البلدية ـ قال العجوز الصغير برضى هائل ـ كان يعمل في مكاتب أملاك البلدية، هذا هو الشيء الذي يعني أنّ عنده حاسّة شمّ ، طبعاً اضطرّ أن يدفع للشرطة أتاوة، لأنه شيء منطقي، ففي هذا البلد لا يمكن للمرء أن يصل إلى مكان دون الشرطة، راح ينظّم الحملة الانتخابية للمتطلع إلى منصب العمدة، يأخذه في سيارته إلى جميع انتخابات المينيو، والنتيجة أنّ العمدة انتخب، وكمكافأة له جعلهم يمنحونه هذه الأراضي بسعر بخس، وحصل له على رخصة للشركة. لكن بالمناسبة، فيما تختصُّ شركتك؟

ـ بالملابس ـ أجاب فيرمينو بخبث.

وأشعل العجوز الصغير سيجارة غلواز أخرى.

ـ و؟ ـ سأل.

ـ نفتتح الآن سلسلة من الحوانيت في ألغربِ. فألغرب منطقة شبان، شواطئ وديسكوتيكات، بشكل جعلنا نستثمر تجارة أكثر القمصان غرابة، لأنّ الشبان يريدون الآن قمصاناً غريبة، فإذا أردت أن تبيعهم قمصاناً بشعارات مثل Harvard University فلا أحد يشتريها بينما يشترون قمصاناً مثل قمصانكم ونحن نستطيع أن ننتجها في سلسلة.

نهض العجوز الصغير وتوجّه إلى خلفية فيها باب سحاب وبحث في صندوق.

ـ هل تعني هذا؟

كان قميصاً أزرق، وعليه كتابة *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*». القميص الذي وصفه مانولو.

نظر المستخدم إليه وقدّمه له.

ـ أبقه لك ـ قال ـ لكن عليك أن تتكلّم مع أمينة السرّ في الأسبوع القادم، فأنا لا أعرفُ ماذا أقول لك.

ـ ما الذي تستوردونه؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ أجهزة عالية التقنية من هونغ كونغ ـ أجاب العجوز الصغير ـ مواد عالية الجودة لتجهيز المشافي. لهذا السبب بالضبط حُشرنا في ورطة كبيرة.

ـ ولماذا؟ ـ سأل فيرمينو برقّة.

ـ سُرِقنا منذ خمسة أيام ـ أجاب العجوز الصغير ـ حدث ذلك ليلاً، تصوّر، أبطلوا مفعول جهاز الإنذار ومضوا إلى المستودع حيث الأجهزة، وكأنّهم في أمان، وسرقوا فقط جهازين حساسين لآلة التاك. هل تدري ما هو التاك؟

ـ تصوير طبقي محوري مبرمج على الحاسوب ـ أجاب فيرمينو.

ـ وكلب الحراسة ـ تابع العجوز الصغير ـ كلب الراعي الألماني نفسه لم ينتبه، مع أن اللصوص في الحقيقة لم يخدِّروه.

ـ يبدو لي صعباً جدّاً بيع أجهزة لآلة التاك ـ أقرّ فيرمينو.

ـ بالعكس ـ قال العجوز الصغير ـ فمع العيادات الخاصّة التي تتكاثر مثل الفطر في البرتغال، عفواً هل أنت على اطلاع على نظامنا الصحيّ؟

ـ بشكل بسيط ـ قال فيرمينو.

ـ قرصنة خالصة ـ وضّح العجوز الصغير بقناعة ـ لذلك تكلّف الأجهزة الصحية سعراً غالياً، لكن الواقع أن السرقة كانت غريبة فعلاً، لا يمكن أن يوجد أغرب منها، تصوّر، حاسوبان إلكترونيان لآلة التاك سُرِقا بمهارة من مستودعنا وتُركا مرميين على حافّة الطريق على بعد خمسمئة متر من هنا.

ـ مرميان؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ كما لو أنهم رموا بهما من النافذة ـ قال العجوز الصغير ـ لكنّهما صارا عجينة كأنّ سيارة مرّت فوقهما.

ـ وهل أعلمتم الشرطة؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ طبعاً ـ قال المحاسب ـ خاصّة وأنّ الأمر يتعلّق بجهازين صغيرين حجمهما بضع سنتيمترات لكن قيمتهما تساوي مالاً كثيراً.

ـ صحيح؟ ـ قال فيرمينو.

ـ وللطامّة الكبرى أنّ المعلم في هونغ كونغ وأمينة السر في إجازة ـ قال العجوز الصغير ببعض القنوط ـ كلّ شيء على كاهلي، حتى الفتى يبدو أنّه وقع مريضاً.

ـ أيّ فتى؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ فتى الخدمة ـ أجاب العجوز الصغير ـ على الأقل كان عندي

بديل أرسله إلى هنا أو إلى هناك، لكنّه لم يأت إلى العمل منذ خمسة أيّام.

ـ هل هو فتى شاب؟

ـ نعم، صبي ـ أكّد العجوز الصغير ـ صانع، جاءنا إلى هنا منذ قرابة الشهرين يطلب عملاً وقبله المعلّم كعامل خدمة.

شعر فيرمينو فجأة بشرارة في مخّه.

ـ ما اسمه؟ ـ سأل.

ـ ولماذا يهمّك؟ ـ قاطعه العجوز الصغير.

كان في طريقة تعبيره ريبة مبهمة.

ـ لا لشيء ـ برّر فيرمينو ـ إنّه سؤال كأيّ سؤال آخر.

ـ ينادونه داكوتا ـ قال العجوز الصغير ـ لأنّه يُجنُّ بالأشياء الأمريكية، دائماً كنتُ أناديه داكوتا، لكنّني أجهل اسمه الحقيقي، ومن بين الأشياء الأخرى أنّ اسمه لا يرد حتى في سجل العاملين، فهو كما قلت لك ليس أكثر من صبيّ. لكن عفواً لماذا يهمّك الأمر إلى هذا الحدّ؟

ـ لا لشيء ـ أجاب فيرمينو ـ لمجرّد السؤال.

ـ حسن ـ ختم العجوز الصغير ـ إذا عذرتني عليّ أن أعودَ إلى حساباتي، يجب أن أرسل فاكساً هذه الليلة إلى هونغ كونغ، إنّها فاتورة مستعجلة، إذا أردت مزيداً من المعلومات فعُدْ خلال أسبوع، لا أضمن لك وجود المعلم، لكنّ أمينة السر ستكون قد عادت بكلّ تأكيد.

7

ـ اسمع، يا سيدي المدير ـ قال فيرمينو ـ وقعت على ضوء، أعتقد أنّني عثرت على ضوء جيّد، لقد حدّدت هوية قميص الجثّة، إنّه لشركة استيراد وتصدير في فيلا نوفا دِ غايا، يصنعون قمصاناً مماثلة تماماً للقميص الذي وصفه مانولو.

ـ وهل من شيءٍ آخر؟ ـ سأل المدير ببرودة.

ـ وكان فيها غلامُ خدمة ـ أجاب فيرمينو ـ فتى ، لا يُعرَف عنه شيء منذ خمسة أيّام، لكنني لم أتمكن من التحقّق من اسمه. هل نصدر الخبر؟

ـ وهل من شيء آخر؟ ـ أصرّ المدير.

ـ تعرّضت الشركة إلى عملية سرقة منذ خمسة أيّام ـ قال فيرمينو ـ وقد أخذ اللصوص جهازين عاليي التقنية وتركوهما فيما بعد على حافّة الطريق مهروسين بعجلات السيارة. Stones of Portugal *«حجارة البرتغال»*، استيراد وتصدير، هل نصدر الخبر؟

ساد صمت قصير ثم قال المدير:

ـ على رسلك. سننتظر.

ـ لكنّه يبدو لي خبراً قنبلة ـ قال فيرمينو.

ـ استشر السيّدة روسا بالأمر.

ـ عفواً، سيّدي المدير ـ سأل فيرمينو ـ لكن كيف صارت السيّدة روسا على اطلاع جيّد بالأمر؟

ـ السيّدة روسا تعرف نوع الأشخاص الذين يمكن أن يعودوا علينا بالفائدة في هذه الحالة ـ دقّق المدير ـ وأكثر من ذلك، فهي بمعنى من المعاني سيّدة أوبّورتو.

ـ عفواً، بأيٍّ معنى؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ ألا تبدو لك امرأة مهمّة؟ ـ حاصره المدير.

ـ بل أكثر بكثير من حجم نزل مثل هذا النزل ـ ردّ فيرمينو.

ـ هل سمعتهم يتحدّثون ذات مرّة عن الباكتشو؟ ـ سأل المدير.

لم يقل فيرمينو شيئاً.

ـ تلك كانت أزمنة أخرى ـ قال المدير ـ كان باراً أسطورياً، يؤمّه جميع الناس المهمين في أوبورتو وأيضاً من لم يكن كذلك. وما إن يسود الليل ويثير كأس زائد أشجانَ الناس حول حياتهم ذاتها، حتى تنسكب دموع الجميع، بعضهم أكثر وبعضهم أقل، على كتف المالكة. التي لم تكن غير السيّدة روسا.

ـ وهل انتهى الأمر هنا؟ ـ هتف فيرمينو.

ـ اسمع، يا فيرمينو ـ انفجر المدير ـ لا تَحصْ كثيراً وابقَ هادئاً منتبهاً للكيفية التي تجري بها الأمور.

ـ نعم ـ قال فيرمينو ـ لكنّ اليوم سبت، أستطيع أن آخذ القطار هذه الليلة وأقضي الأحد وصباح الاثنين في لشبونة. ألا ترى معي ذلك؟

ـ عفواً، يا فتى. وماذا ستفعل في لشبونة الأحد وصباح الاثنين؟

ـ شيء واضح ـ أجاب فيرمينو بعنف ـ الأحد أقضيه مع خطيبتي، أعتقد أنّ لي حقّاً بذلك والاثنين صباحاً أذهب إلى المكتبة الوطنية.

اكتسبَ صوتُ المدير نبرةً منفعلة قليلاً.

ـ الخطيبة قبلنا ـ قال ـ جميعنا مررنا بمرحلة رومانسية في حياتنا، لكن هل تريد أن تفسّر لي لماذا ستذهب صباح الاثنين إلى المكتبة الوطنية؟

استعدّ فيرمينو لتقديم توضيح مقبول. كان يعرف أنه يحتاج إلى كياسة مع المدير.

ـ في قسم المخطوطات رسالة من إلْيو فيتوريني إلى كاتب برتغالي ـ قال ـ هذا ما قاله لي الدكتور لويس براث فِرّيْرا.

بقي المدير صامتاً لحظة ثم سعل في السماعة.

ـ ومن يمكن أن يكون هذا الدكتور لويس براث فرّيْرا؟

ـ إنّه خبير عظيم بالمخطوطات في المكتبة الوطنية ـ أجاب فيرمينو.

ـ هذا أسوأ له ـ قال المديرُ بنبرة احتقار.

ـ ماذا تريد أن تقول؟ ـ سأل فيرمينو ببلاهة.

ـ أريد أن أقول إنّ هذا أسوأ له، لأنّ المسألة مسألته ـ كرَّر المدير.

ـ لكن اعذرني، سيدي المدير ـ أصرّ فيرمينو جاهداً كي يبقى مهذباً ـ الدكتور لويس براث فرّيْرا يعرف جميع مخطوطات القرن العشرين المحفوظة في المكتبة الوطنية.

ـ وهل يعرف أيضاً الجثث مقطوعة الرؤوس؟ ـ سأل المدير.

ـ ليس اختصاصه ـ قال فيرمينو.

ـ إذن هذا أسوأ له ـ ختم المدير ـ أنا تهمّني الجثث مقطوعة الرؤوس وأنت أيضاً في هذه اللحظة.

ـ نعم ـ وافق فيرمينو ـ موافق. لكن اعلم أن الرسالة المشار إليها تتعلّق بكتب «النحلات الثلاث» وسواء همّك أمرها أم لا كانت كتباً أساسية بالنسبة للثقافة البرتغالية في نهاية الأربعينات، لأنّهم

كانوا ينشرون أعمال كتاب أمريكيين وجميعها وصلت من خلال فيتوريني، بفضل مختارات نشرها في إيطاليا واسمها *الأمريكية*.

ـ اسمعني، أيها الشاب ـ قاطعه المدير ـ أنت تعمل *للحوادث*، التي هي عملياً أنا، و*الحوادث* تدفع لك راتباً. وأنا أريدك أن تبقى في أوبورتو وبالتحديد في نزل السيّدة روسا. لا تخرج للقيام بنزهات طويلة ولا تفكّر بنُظُمِ العالم الكبرى ، بالنسبة للأدب ستنشغل به حين تأتيك فرصة، اجلسَ على الأريكة واحكِ نكاتاً للسيّدة روسا، واصغِ إلى نكاتها بخاصّة، فهي صحيحة والآن وداعاً.

أصدر الهاتف صوت كلِكْ، ونظر قانطاً إلى السيّدة روسا، التي دخلت من باب المطعم.

ـ ما هذا الوجه، يا بني! ـ ابتسمت له السيدة روسا وكأنّها سمعت كلّ شيء ـ لا تنشغل، المديرون جميعهم هكذا، جبابرة، أنا أيضاً تعرّفتُ في حياتي على أشخاصٍ كثيرين جبابرة، يجب أن تتحلّى بالصبر، سنجلس في يوم من هذه الأيام هنا وأوضّح لك كيف تتعامل مع الجبابرة، المهم هو أن يقوم المرء بعمله جيّداً ـ ثمّ أضافت بروح أموميّة ـ لماذا لا تذهب وتنام قيلولة؟ فقد ازرقّ حول عينيك، فغرفتك رطبة والملاحف نظيفة، فأنا أجعلهم يغيرونها لك كلّ ثلاثة أيّام.

ذهب فيرمينو إلى غرفته. غاص في حلم جميل، كما كان يرغب، حلم بشاطئ مادِيْرا، ببحر أزرق وخطيبَته. استيقظ ساعة العشاء، ارتدى سترة ونزل. حالفه الحظ بالوقوع على صحن من صحون طفولته، أسماك صغيرة مقلية. تناول عشاءه برغبة تحت نظر النادلة الشابة المهذّبة، فتاة ممتلئة ذات شارب ظاهر. حاول الإيطاليّ من الطاولة المجاورة أن يقيم حواراً معه حول المطبخ، وراح يشرح له صحناً مؤلفاً من البَلَم (نوع من السمك الصغير) والفليفلة. تظاهر بالاهتمام. لكنّ السيّدة روسا اقتربت منه في تلك اللحظة وانحنت فوق أذنه.

ـ لقد عُثِرَ على الرأس ـ تمتمت.

كان فيرمينو ينظر إلى رؤوس السميكات التي بقيت في الصحن.

ـ الرأس؟ ـ سأل كأبله ـ أيّ رأس؟

ـ رأس الجثّة الناقص ـ قالت السيّدة روسا بلطف ـ لكن لا يوجد عجلة، أنْهِ عشاءك أوّلاً، وبعدها أعطيك كلّ التفاصيل حول القضيّة. أنا بانتظارك في القاعة.

لم يستطع فيرمينو الحفاظ على هدوئه فتبعها على الفور.

ـ عثر عليه السيّد ديوكلِثيانو مقطوعاً ـ قالت السيّدة روسا بهدوء ـ اصطاده في الدْويرو، والآن اجلس واسمعني جيّداً، اجلس هنا بجانبي.

طرقت طرقتين خفيفتين على الأريكة، كما هي عادتها وكأنّها تدعوه لتناول الشاي.

ـ صديقي ديوكلِثيانو في الثمانين من عمره ـ تابعت السيّدة روسا ـ كان بائعاً جوّالاً، صاحب باخرة ويصطادُ الآن جثثَ منتحرين في الدويرو. يقولون بأنّه أخرج خلال حياته سبعمئة جثّة من النهر. ويسلّم جثث الغرقى في المصح (مكان تحفظ فيه الجثث ويسهر عليها) والمصح يعطيه راتباً، إنّه عمله. لكنّه كان على اطلاع على مجريات القضيّة ولم يسلّمها للسلطات. كما يعمل حارساً للأرواح في أركو داس ألمينياس، بمعنى أنّه لا يهتمّ فقط بالجثث بل وبراحتها الأبدية أيضاً، يشعل لها الشموع في ذلك المكان المقدّس، ويصلّي لها صلاة، إلخ. الرأس في بيته اصطاده في النهر منذ قرابة الساعتين وأخبرني بذلك. هذا هو عنوانه. لكن لا تنسَ حين تعود أن تتوقّف في أركو داس ألمينياس وتصلي على روح الموتى، بالمناسبة لاتنسَ كاميرا التصوير، قبل أن يذهب الرأس إلى المصح.

صعد فيرمينو إلى غرفته، أخذ الكاميرا ونزل في طلب سيارة أجرة، صامّاً أذنه عن نقد زميل له حسود يكتب في صحيفته، ومفادها أنّ المساهمين في *الحوادث* يأخذون سيارات أجرة كثيرة. كان الطريق قصيراً بين أزقّة المركز التاريخي. مسكنُ السيّد ديوكلِثيانو قديم وواجهته مقشورة. فتحت له عجوزٌ بدينة.

ـ ديوكلِثيانو بانتظارك في القاعة ـ قالت فاسحة له الطريق.

كانت قاعة أسرة ديوكلِثيانو غرفة فسيحة فيها ثريا من البلور النقي. الفرش تمّ شراؤه من أحد المجمعات التجارية، كان أثاثا يقلّد الكلاسيكي، بأرجل ذهبية مغطاة بصفائح من البلور. على طاولة الوسط يوجد رأس في صحنٍ كما في الحكاية التوراتية. نظر فيرمينو إليه للحظات بشيءٍ من الاشمئزاز ثمّ نظر إلى السيّد ديوكلِثيانو، الجالس على رأس الطاولة، وكأنّه في حفلة عشاء مهمّة.

ـ اصطدته في مصب الدويرو ـ قال كي يخبره ـ رميت صنارات اللونتشات وشبكة صغيرة للسرطانات، فعلق الرأسُ بصنارات اللونتشات.

نظر فيرمينو إلى الرأس الموضوع في الصينية محاولاً التغلّب على اشمئزازه. ربّما مضى عليه في النهر عدّة أيام. كان منتفخاً ومزرقّاً وأكلت الأسماكُ إحدى عينيه. حاول أن يقدِّر عمره ولم يستطع. قد يكون عشرين سنة لكنّه من الممكن أن يكون أربعين.

ـ عليّ أن أسلِّمه ـ قال السيّد ديوكلِثيانو كما لو كان الأمر من أكثر الأمور طبيعية في العالم ـ إذا أردت أن تصوّره فعليك أن تسرع لأنّني اصطدته في الخامسة ولا أستطيع أن أتجاوز هامشاً معيّناً من الكذب.

أخذ فيرمينو كاميرته وضغط. صوّرَ الرأسَ من الأمام والجانبين.

ـ هل رأيت هذا؟ ـ سأل السيّد ديوكلِثيانو ـ اقترب.

لم يتحرّك فيرمينو. أشار بإصبعه إلى الصدغ.

ـ انظر هنا.

اقترب فيرمينو أخيراً ورأى الثقب.

ـ إنّه ثقب ـ قال.

ـ إنّها رصاصة ـ حدّد السيّد ديوكلِثيانو بدقّة.

سأل فيرمينو ما إذا كان يستطيع أن يهتف، ستكون مكالمة قصيرة. رافقاه إلى هاتف المدخل. ردّ عليه في الصحيفة جهاز تسجيل المكالمات الآلي، فترك رسالةً للمدير.

ـ أنا فيرمينو، لقد عثر صيّاد جثثٍ على رأس الرجل المقطوع. صوّرته. في صدغه الأيسر ثقب رصاصة. سأرسل إليك الصور بالفاكس أو بأيّة وسيلة أخرى حالاً. سأمرّ على وكالة لوسو، ربّما استطعت أن تخرج طبعة استثنائية، لا أظنّني سأكتب شيئاً في الوقت الحالي، فالتعليقات تفيض، غداً نتكلّم.

خرج إلى ليل أوبورتو الحار. لم يكن لديه أيّة رغبة بأخذ سيارة أجرة، فهو بحاجة إلى مشوار جيّد. لكن ليس إلى النهر وإن كان على بعد خطوتين. كما لم تكن لديه أيّة رغبة في تلك الليلة للنظر إلى النهر.

8

في الثامنة أيقظ الإنترفون فيرمينو. كان صوت الخادمة ذات الشوارب.

ـ مديرك يكلّمك بالهاتف، يقول إن الأمر مستعجل.

سارع فيرمينو إلى الأسفل بدثار النوم. كان النزل ما يزال نائماً.

ـ المطبعة الرحوية ستدخل العمل خلال نصف ساعة ـ قال المدير ـ سأُخرج اليومَ بالذات طبعةً خاصّة، في قرابة صفحتين مع كلّ صورك، لا حاجة للنص، يفضّل الآن أن تلزم الصمت، ستنتشر صورة الوجه الغامض عند الثالثة مساءً في جميع أنحاء البلد.

ـ كيف خرجت الصور؟ ـ أراد فيرمينو أن يعرف.

ـ مريعة ـ قال المدير ـ لكن من يريد أن يتعرّف إليه سيعرفه.

شعر فيرمينو بقشعريرة تسري في ظهره حين فكّر بالأثر الذي ستتركه الصحيفة: أسوأ من فيلم مرعب. تجاسر على السؤال بخجل عن كيفية توزيع الصور.

ـ على الغلاف صورة للوجه ملتقطة من الأمام ـ أجاب المدير ـ في الصفحتين الداخليتين الجانب الأيمن والجانب الأيسر وفي الصفحة الأخيرة صورة معهودة لأوبورتو مع نهر الدويرو والجسر الحديدي، طبعاً بالألوان.

صعد فيرمينو إلى غرفته. استحمّ، حلق ذقنه وارتدى بنطلوناً قطنيّاً وقميص لاكوست أحمر أهدته إليه خطيبته. تناول بأقصى سرعة فنجان قهوة وخرج إلى الشارع. كان يوم أحد والمدينة شبه مقفرة، فالناس ما زالوا نياماً، وسيذهبون فيما بعد إلى البحر. راودته رغبة بالذهاب أيضاً، وإن لم يكن عنده سروال استحمام، فقط كي يستنشق بعضَ الهواء الصحيّ. لكنّه تراجع عن الفكرة. كان معه دليله فقرّر الذهاب لاكتشاف المدينة، الأسواق مثلاً، المناطق الشعبية التي لا يعرفها. بدأ، وهو يهبط الشوارع الضيقة المنحدرة من المدينة المنخفضة، يجد في المدينة حيويّة لم يتوقّعها. الحقيقة أنّ أوبورتو كانت تحتفظ ببعض التقاليد التي فقدتها لشبونة: مثلاً بعض باعة السمك، على الرغم من أنّ اليوم أحد، والسلال على رؤوسهم ثم مناداة الباعة الجوّالين التي ذكّرته بطفولته: أوكارينات الشاحذين(*)، أبواق الخضريين الناعقة. عَبَرَ ساحة براثا ألِغْرِيّا (الفرح) الفَرِحة فعلاً كما يدلّ اسمها. كان هناك سوق صغير من أكشاكٍ خضراء يباع فيها قليل من كلّ شيء: ملابس مستعملة، أزهار، بقول، ألعاب شعبية من الخشب والخزف اليدوي. اشترى صحنَ فخّارٍ رَسمت عليه يدٌ ساذجة برجَ لوس كلِريكوس. كان واثقاً من أنّه سينال إعجاب خطيبته. وصل حتى لارغو دو بادراو، وهو سوق دون أن يكون كذلك، لأنّ الفلاحين وباعة السمك ارتجلوا حوانيت مؤقتة في فجوات البوّابات وعلى أرصفة روا دِ سانتو إلْدِفونْسو. وصل إلى لاس فونْتاييناس، حيث يوجد سوق صغير للسلع المستعملة. حوانيت كثيرة كانت مغلقة لأنّها سوق تعمل أيام السبت بشكل خاص، لكنّ بعض التجار يعملون أيضاً صباح أيام الآحاد. توقّف أمام كشك أقفاصٍ يبيع عصافير غريبة. فوق الأقفاص الصغيرة إعلانات ورقية تدلّ على أسماء العصافير وبلد

(*) هي آلة موسيقية يستخدمها الذين يشحذون السكاكين والأدوات الحادة في الأسواق الشعبية والحارات للفت الانتباه إليهم ـ المترجم.

المصدر. معظمها جاء من البرازيل ومن ماديْرا. فكّر فيرمينو بماديْرا، بجمال أن يقضي هناك إجازة حالمة، كما تَعِدُ إعلانات شركة الخطوط الجوية البرتغالية الدعائية. بجانبه دكّان لبيع الكتب المستعملة فراح فيرمينو يطّلع عليها بفضول. اكتشف كتاباً يتحدّث عن كيف كانت المدينة تتواصل قبل قرنٍ مع العالم. ألقى نظرة على الفصل الذي يتحدّث عن الصحافة والإعلانات الدعائية في العصر. اكتشف أنّه كان يوجد في بداية القرن التاسع عشر صحيفة تدعى *أوْ أرتيليبيرو* حيث يظهر هذا الإعلان الغريب « الأشخاص الذين يرغبون بإرسال طرود إلى لشبونة أو كويمبرا باستخدام جيادنا يستطيعون أن يضعوا بضاعتهم في مكتب البريد الكائن أمام معمل التبغ». كانت الصفحة التالية مخصّصة لصحيفة تسمّى صحيفة الفقراء «*أو بريوديكو دوس بوبرِسْ*» الذي تظهر فيها إعلانات حوانيت بيع الكرشة المجانية لأنّها كانت معتبرة ذات فائدة عامّة. شعر فيرمينو باحتدام تعاطفه مع تلك المدينة، التي مرّ تجاهها ببعض عدم الثقة دون أن يدري. وصل إلى نتيجة مفادها أنّنا جميعاً ضحايا أحكامنا المسبقة، وأنّه قد خلا، دون أن ينتبهَ، من الروح الجدلية، الجدلية الأساسية التي منحها لوكاتش كلّ تلك الأهمية.

نظر إلى الساعة وقرّر أن يذهب ليتناول شيئاً، فالساعة ساعة غداء، توجّه غريزياً إلى مقهى أنكورا. كان المقهى يضجّ بالحركة وكذلك المنطقة المحجوزة للمطعم. وجد فيرمينو طاولة فارغة فجلس. وعلى الفور تقريباً جاءه النادلُ اللطيف.

ـ هل عثرتَ على الغجريّ؟ ـ سأله بابتسامة.

هزّ فيرمينو بالإيجاب.

ـ فيما بعد إذا سمحت لي سنتكلّم عن الموضوع ـ قال النادل ـ أعني عن الغجر، إذا أردت صحناً سريعاً وطازجاً فإنّني أنصحك بالأخطبوط مع الزيت والليمون والبقدونس.

قَبِلَ فيرمينو وما هي إلا لحظة حتى جاء النادلُ بالفسقية.

ـ هل يزعجك أن أجلس لحظةً؟ ـ سأل.

دعاه فيرمينو للجلوس.

ـ عذراً ـ قال النادل بأدب ـ هل أستطيع سؤالك عن مهنتك؟

ـ أنا صحافي ـ أجاب فيرمينو.

ـ شيء مهم! ـ هتف النادل ـ إذن فعلاً تستطيع مساعدتنا. أين؟ في لشبونة؟

ـ في لشبونة ـ أكّد فيرمينو.

ـ نحن نتحرّك لصالح غجر البرتغال ـ همس النادلُ ـ لا أدري ما إذا رأيت المظاهرات المعادية للغجر التي قامت في بعض القرى في المحيط. هل رأيتها؟

ـ سمعت قليلاً عنها ـ أجاب فيرمينو.

ـ لا يحبّونهم ـ قال النادل ـ وصل بهم الأمر في إحدى القرى أن اعتدوا عليهم، إنّها موجة عنصرية. لا أدري ما الأحزاب التي تغذّي السكّان، لكنّك تستطيع أن تتصوّرها، نحن لا نريد للبرتغال أن يتحوّل إلى بلد عنصري فقد كان دائماً بلد التسامح. أشكّل جزءاً من جمعية تدعى حقوق المواطن ونجمع الآن توقيعات؟ هل يهمّك أن توقّع؟

ـ بكلّ سرور ـ أجاب فيرمينو.

أخرج النادلُ من جيبه ورقة مع مذكرة «حقوق المواطن».

ـ كان عليّ ألا أجعلك توقّع في المطعم ـ دقّق ـ لأنّه ممنوع جمع التوقيعات في الأماكن العامّة. عندنا نقاط جمع توقيعات في جميع أنحاء المدينة، على كلّ الأحوال المالك لا ينظر. هذه هي المسألة، توقيع هنا مع المعلومات ورقم الهويّة.

كتب فيرمينو اسمه ورقم هويّته وفي خانة « المهنة » كتب: صحافي.

ـ لماذا لا تكتب مقالاً حول الموضوع في صحيفتك؟ ـ سأل النادل.

ـ لا أعدك بشيء ـ قال فيرمينو ـ فأنا الآن مشغول بتحقيق صحفيّ آخر.

ـ تحدث الآن في أوبورتو أشياء رهيبة ـ علّق النادل.

دخل في تلك اللحظة إلى المقهى فتى صغير ومعه رزمة من الصحف تحت إبطه وراح يصيح بين الطاولات: « عُثِر على الرأس المقطوع، لغز أوبورتو».

اشترى فيرمينو *الحوادث* وألقى عليها نظرة سريعة وطواها بتأنٍّ أربع طيّات لأنّه كان يشعر ببعض القلق. وضعها في جيبه ومضى. فكّر أنّ من الأفضل له أن يعود إلى النزل.

كانت *الحوادث* مفتوحة أمام السيّدة روسا الجالسة على أريكة في القاعة الصغيرة . أنزلت الصحيفة ونظرت إلى فيرمينو.

ـ يا للهول ـ همست ـ يا له من رجلٍ مسكين. ـ أضافت ـ ويا لك أنت، الذي عليك أن تواجه في هذا العمر بؤساً كهذا، من مسكين أيضاً.

ـ إنّها الحياة ـ تنهّد فيرمينو جالساً بجانبها.

ـ المتطلّعون إلى العرش يعيشون أفضل بكثير ـ علّقت السيّدة روسا ـ في الـ*فولتوس* تحقيق عن استقبالٍ رائع في مدريد. الجميع يذهبون بكامل أناقتهم.

رنّ الهاتف في تلك اللحظة فهرعت السيّدة روسا للردّ، كان فيرمينو يراقبها، أشارت إليه برأسها وسبّابتها ونادته منحنية عدّة مرات.

ـ نعم ـ قال فيرمينو.

ـ هل معك ما تكتب به؟ ـ سأل الصوتُ.

عرف فيرمينو على الفور أنّه الصوت الذي هتف له في المرّة السابقة.

ـ معي ما أكتبُ به ـ أجاب.

ـ لا تقاطعني ـ قال الصوت.

ـ لن أقاطعك ـ طمأنه فيرمينو

ـ الرأس المقطوع هو رأس داماسيِنو مونتيِرو ـ قال الصوتُ ـ ثمانية وعشرون عاماً، يعمل عامل خدمة في *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*». كان يعيش في شارع روا دوس كاناستريِروس، اعثرْ على الرقم بنفسك، موجود في لا ريبيِرا، أمام بَحْرةٍ، أخبر أنت الأسرة، فأنا لا أستطيع ذلك لأسبابٍ يطول شرحها. وداعاً.

علّق فيرمينو الهاتف وطلب رقم الصحيفة فوراً ناظراً إلى الملاحظات التي سجّلها في الدفتر. سأل عن المدير لكنّ عاملة الهاتف أعطته السيّد سيلفا.

ـ آلو، هوبّرت ـ أجاب السيّد سيلفا.

ـ أنا فيرمينو ـ قال فيرمينو.

ـ هل الكرشة طيّبة؟ ـ سأل سيلفا بنبرة ساخرة.

ـ اسمع، يا سيلفا ـ قال فيرمينو مؤكِّداً بشكل جيّد على الإسم ـ لماذا لا تذهب ليُلاط بك؟

ساد صمت على الجانب الآخر سأل بعدها السيّد سيلفا بصوتٍ مصدوم:

ـ ماذا قلت؟

ـ سمعتَ جيّداً ـ قال فيرمينو ـ والآن صِلني بالمدير.

سُمعَت موسيقى، تبعها صوت المدير.

ـ اسمه داماسيِنو مونتيِرو ـ قال فيرمينو ـ ثمانية وعشرون عاماً، يعمل مناولاً في *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*» في فيلا نوفا دِ غايا أنا سأتكفّل بإعلام الأسرة، يعيش في لا ريبيِرا، بعدها سأذهب إلى المشفى.

ـ إنّها الرابعة ـ أجاب المدير ببرود ـ إذا تمكّنت من إرسال

التحقيق قبل التاسعة استطعنا أن نُخرج غداً عدداً خاصّاً آخر. طبعة اليوم نفدت في ساعة واحدة، مع أنّه يوم أحد وكثير من الأكشاك مغلقة.

ـ سأحاول ـ قال فيرمينو دون قناعة كبيرة.

ـ ضروريّ ـ دقّق المدير ـ وخاصّة مع كثير من التفاصيل المثيرة، أكِّدْ على ما هو مؤثِّر ومأساوي، كما في الروايات المصورة.

ـ ليس هذا بأسلوبي ـ أجاب فيرمينو.

ـ إذن امضِ في البحث لي عن أسلوبٍ آخرٍ ـ ردّ المديرِ ـ عن الأسلوب الفاعل في *الحوادث* وليكن مقالاً طويلاً، طويلاً جدّاً.

9

«مسرح هذه القصّة المحزنة والغامضة بل نستطيع أن نقول الوحشية هو مدينة أوبورتو الفرحة والمتعبة. إنّها بالفعل أوبورتو المغرقة في برتغاليتها، المدينة الفاتنة التي تداعبها هضاب ناعمة ويخترقها الدوِيرو الهادئ، الذي تبحر فيه منذ أزمنة مغرقة في القدم مراكب الرابِلو المتميّزة، المحمّلة ببراميل السنديان التي تنقل إلى دهاليزِ المدينةِ السُلافَ الرائعَ، الذي سيشرع بعد أن يُعبّأ في القناني الأنيقة طريقَه إلى بلاد العالم القصيّة، مساهماً بذلك بشهرة سرمدية لواحد من أكثر أنواع النبيذ في العالم تقديراً.

«وقرّاء صحيفتنا يعرفون أنّ هذه القصّة المحزنة والغامضة والوحشيّة تشير لا أكثر ولا أقل إلى الجثّة مقطوعةِ الرأس: جثّة مجهول بائسة، التي قطعها القاتلُ (أو القتلة) بشكل مريع وتركها في منطقة برّية من الضواحي، كما لو كانت حذاء عتيقاً أو قِدراً مثقّباً.

«هكذا يبدو أن الأمور تسير مع الأسف في بلدنا اليوم. هذا البلد الذي استعاد الديمقراطيّة مجدّداً ورحّبت به الوحدة الأوروبية وأكثر البلدان تحضّراً في القارّة العجوز. بلد الناس الشرفاء والمجدّين الذين يعودون إلى بيوتهم ليلاً تعبين بعد يوم عملٍ شاقّ فتقشعرّ أبدانهم وهم يقرؤون الوقائع القذرة في الصحافة الحرّة والديمقراطيّة، كهذه الصحيفة، التي يجب أن تخبركم بها بكلّ حزن وقلب يتقطّر ألماً.

«فعلاً وبقلب يتقطّر ألماً وحيرة عميقة في آن معاً، كما هو حال هذا المبعوث إلى أوبورتو الذي يجد نفسه مدفوعاً بواجبات المهنةِ الأدبيّة كي يصف القصّة المحزنة والغامضة والوحشيّة التي عاشها بنفسه وشخصه. القصّة التي تبدأ في واحد من فنادق هذه المدينة الكثيرة، يتلقّى فيه المبعوث مكالمة مجهولة، لأنّه يتلقى كجميع الصحافيين الذين يتابعون حالات صعبة، عشرات المكالمات المجهولة. يردّ على هذه المكالمات بريبة الصحافي المحنّك والقديم، مستعدّاً للاستماع إلى متنوّر محتمل يتّهم نائباً بالفساد أو يقول له إنّ زوجة أحد رؤساء الأندية الرياضيّة تنام مع مصارع ثيران. لكن لا، فالصوت جافّ ويكاد يكون آمراً بنبرته الشمالية الواضحة: صوت فتيّ، يمكن أن يكون متعجرفاً إذا لم يتكلّم بنبرة وديعة. يقول له: الرأس يعود للسيّد داماسِئنو مونتيْرو، ثمانية وعشرون عاماً، يعمل عامل خدمة في Stones of Portugal *«حجارة البرتغال»*، عنوانه في لاريبيْرا، شارع روا دوس كاناستِريْرُوس، لا أعرف الرقم، لأنّه ليس لبيته رقم، إنّه أمام بحرة، أخبر أنت الأسرة، فأنا لا أستطيع لأسباب يطول شرحها. وداعاً. ارتبك المبعوث الخاص، وهو الصحافيّ المحنّك الذي عاش على امتداد سنواته الخمسين حالات أكثر فظاعة، عليه أن يتخذ على عاتقه المهمّة المؤلمة والمسيحية في آنٍ معاً، أن يحمل إلى أسرة الضحية الخبر المشؤوم. ماذا يفعل؟ يتخبّط هذا المبعوث في التردّد، لكنّه لا يسمح للغمّ بالانتصار عليه. يعرفُ أنّ مهنته تنطوي على مشاقّ مثل هذه، مؤلمة لكنّها ضروريّة. يهبط إلى الشارع، يأخذ سيّارة أجرة ويطلب نقله إلى منطقة لاريبيْرا، شارع روا دوس كاناستِريْرُوس فينفتح أمامه هناك مشهد آخر في مدينة أوبورتو الفرحة والمتعبة، لا تناسبه ريشة هذا المبعوث، فهو يتطلّب عالم اجتماع، أنتروبولوجياً، وهو ما لا يمثله هذا الصحافي طبعاً. هذه اللاريبيْرا، أكثر مناطق المدينة شعبية، لا ريبِيْرا المجيدة، المتكئة على ضفّة الدويرو؛ التي تنتمي إلى الحرفيين اليدويين وصنّاع البراميل، إلى شعب القرون الماضية المتواضع، هذه اللاريبيْرا التي تحاول بعض الكتب السياحية السطحية أن تمرّرها على أنّها أغرب مكان في المدينة،

حسن، ما هذه اللاريبيِرا فعلاً؟ لا يريد هذا المبعوث أن يتحذلق حذلقة رخيصة، كما لا يريد أن يلجأ إلى أمثلة شهيرة في الأدب، ويؤجّل حكمه. يقتصر على وصف البيت، لنسمّه هكذا، بيتاً مثل الكثير من البيوت في لاريبيِرا، بيت أسرة الضحيّة. المدخل الذي يقوم أيضاً بوظيفة المطبخ، بموقد غازٍ بائس وحنفية. جدار من الكرتون يفصل المدخل عن المخدع الذي هو غرفة نوم والدي داماسيِنو مونتيِرو. للدخول إلى غرفة داماسيِنو الموجودة في فجوة درج البناء يجب حني الرأس: فراش، بطانية من النوع المكسيكي وملصق هندي داكوتا على الجدار. أما المرحاض فهو مشترك بين جميع سكان القصبة.

«هذا المبعوث حامل الخبر الفظيع تمكّن من التلعثم بأنّه صحافيّ من لشبونة يتابع قضيّة الجثة مقطوعة الرأس. استقبلته الأم، وهي امرأة في قرابة الخمسين من العمر، يوحي مظهرها بالمرض. قالت له إنّها حتى الشهر الماضي كانت تكسب عيشها من غسل ملاحف أسرّة بعض عائلات أوبورتو، لكنّها اضطرت الآن لترك العمل لأنّها تعاني من فقدان الدم، فالطبيب قد شخّص عندها ورماً ليفياً وأنّها عالجت نفسها عند طبيبة شعبية في لاريبيِرا تُعدُّ نقيعاً. لكنّ النقيع لم يجدها نفعاً، على العكس فالنزيف ازداد : وعليها الآن أن تدخل المشفى، لكنّه لا يوجد في الوقت الراهن أيّ سريرٍ فارغ، لذلك عليها الانتظار. زوجها، السيّد دومينغو، كان سابقاً صانع سلال، لكنه منذ ترك العمل بدأ يحضر إلى الخصّ كلّ ليلة. يتناول الآن أنتابوس لأنّه كحوليّ لكن وبما أنّه يتناول أنتابوس كما أمره الطبيب ويشرب في آنٍ معاً أغواردييتنِ صار يعاني من أزمات تسمّمٍ يتقيّأ خلالها كلّ يوم. والآن هو في الغرفة يتقيّأ. داماسيِنو هو الابنُ الذكر الوحيد، قالت الأم، السيّدة ماريّا دِ لوردِس. عندها أيضاً ابنة في الثانية والعشرين من عمرها هاجرت إلى بروكسِل لتعمل نادلةً في بار، لكن أخبارها انقطعت منذ زمن.

«اضطرّ هذا المبعوث أن يخبر هذه المرأة المسكينة المشوّشة أنّ الرأس موجودٌ في معهد التشريح الطبي وأنّ من الضروري أن

تتعرفّ عليه. وهرعت المرأة المفجوعة إلى غرفتها وعادت على الفور بصندل أسود عالي الكعب وشال مهدّب. قالت إنّها هدية من مغنية أحد المحلات في أوبورتو، البوربولِتا الليليّة، حيث كان يذهب ابنها داماسِئِنو للقيام ببعض الإصلاحات الكهربائية وهي الملابس الوحيدة المقبولة عندها.

«حين وصل هذا المبعوث مع المرأة المسكينة، بعد بحث غير مجدٍ عن وسيلة نقل، إلى معهد التشريح الطبي، كان الطبيب قد خلع توّاً قفازيه وراح يأكل شطيرة. كان طبيباً شابّاً وظريفاً، ذا مظهر رياضي. سألنا ما إذا جئنا للتعرّف ودقّق بأنه مستعجل، لأنّ عنده ليلاً مباراة هوكي على المزالج مع فريق إنفيكتوس، الفريق الذي يلعب فيه كحارس مرمى. قادنا إلى القاعة المجاورة و...

«حسن، ما سأتجنّب وصفه لقرّائي، ويستطيعون تصوّره كما هو طبيعي، هو ردّة فعل الأمّ المسكينة. صرخة مرعبة: داماسِئِنو! داماسِئِنويَ! نوع من النحيب، الحشرجة تقريباً، ارتطام جافّ على الأرض: أغمي على المرأة المسكينة قبل أن نتمكّن من نجدتها. الرأس، ذلك الرأس المرعب كان موضوعاً على طاولة من الرخام مثل صنم أمازوني. كان القصّ حول الرقبة متناسق ودقيق وكأنّه نفّذ بمنشار كهربائي، الوجه منتفخ وبنفسجي إذ من المحتمل أنّه قضى في النهر عدّة أيام، لكنّ السيماء يمكن التعرف عليها، فهي لشاب بارز وعاديّ الملامح، يستشفّ منها بعضُ النبل الشعبي: الشعر كهرمانيّ أسود، الحنك بارز. داماسِئِنو مونتِيْرو.»

رفعت السيّدة روسا نظرها عن الصحيفة، نظرت إلى فيرمينو وقالت:

ـ اقشعرّ بدني، فهي في غاية الواقعية ومكتوبة في الوقت ذاته بأسلوب كلاسيكيّ تماماً.

ـ إنّه ليس أسلوبي تماماً ـ حاول أن يوضّح فيرمينو، لكنّه قوطِعَ.

ـ لكنّه أذهل مديرك ـ هتفت السيّدة روسا ـ يقول إنّ الناس تتاجر بالطبعة الخاصّة.

ـ بَهْ ـ أجاب فيرمينو.

ـ ما أشجعها ـ قالت السيّدة روسا بإعجاب ـ هذا ما يعجبني، صحيفة شجاعة وليست مثل الـ *فولتوس،* التي لا تتكلّم إلا عن الاستقبالات الراقية.

ـ قال لي مديري إنّ صحيفتنا ستدعم أسرة مونتِيْرو كي تقوم باتهام خاص ـ قال فيرمينو ـ ونحتاج إلى محام. المسألة فقط في أنّه ليس عندنا فائض من المال، لذلك يجب أن يكون محامياً معقولاً في سعره واقترحَ عليّ سؤالك، يا سيّدة روسا، لأنّك تعرفين دون شكّ محامياً منسجماً مع حاجاتنا.

ـ طبعاً أعرفه ـ أكّدت السيّدة روسا ـ متى تريد أن تذهب لمقابلته؟

ـ شيءٌ رائع أن يكون غداً ذاته ـ قال فيرمينو.

ـ في أيّة ساعة؟

ـ لا أدري ـ فكّر فيرمينو ـ ساعة الغداء، مثلاً، أستطيع أن أذهب وأدعوه للغداء، لكن بمن يتعلّق الأمر؟

ابتسمت السيّدة روسا واستعادت أنفاسها.

ـ فرناندو دييغو ماريّا دِ خِسوس دِ مِلّو سِكِيْرا ـ قالت.

ـ وواويلتاه ـ هتف فيرمينو ـ ياله من اسم.

ـ لكن إذا ناديته هكذا لن يعرفه أحد ـ أضافت السيّدة روسا ـ يجب أن تقول المحامي لوتون، هذا هو الإسم الذي يعرفه به الجميع في أوبورتو.

ـ هل هو لقب؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ إنّه لقب ـ أجابت السيّدة روسا ـ لأنّه يشبه ذلك الممثل الإنكليزي الذي كان يمثل دور المحامي دائماً.

ـ هل تعنين تشارلز لوغتون؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ في أوبورتو يقال لوتون ـ قاطعته السيدة روسا وأضافت بعدها ـ: ينتمي إلى أسرة عريقة كانت تملك في القرون الماضية المنطقةَ كلّها، لكنّها فقدت الآن كلَّ شيءٍ تقريباً. إنّه عبقريّ، من يرى لباسه لا يشتريه بسنتيم واحد، لكنّه عبقريّ. درس في الخارج.

ـ عفواً، يا سيّدة روسا ـ سأل فيرمينو ـ لكن لماذا سيقبل الدفاع عن مصالح عائلة داماسڤنو مونتيْرو؟

ـ لأنّه محامي البؤساء ـ أجابت السيدة روسا ـ لم يفعل في حياته شيئاً آخر غير الدفاع عن المساكين. إنّها هوايته.

ـ إذا كان هكذا ـ أجاب فيرمينو ـ أين أستطيع أن ألقاه؟

أخذت السيّدة روسا قطعة ورق وكتبت عليها العنوان.

ـ الموعد على عاتقي ـ قالت ـ لا تهتمّ. اذهب بطلبه عند الظهيرة.

في تلك اللحظة قرع الهاتف. ذهبت السيّدة روسا لتردّ ونظرت إلى فيرمينو مستدعية إياه كما هي العادة بسبابتها.

ـ نعم ـ قال فيرمينو.

ـ التعرّف أكّد الأمر ـ قال الصوت ـ كنتُ كما ترى على حقّ.

ـ اسمع ـ قال فيرمينو مستغلاً الفرصة بلمح البصر ـ لا تغلق أنت بحاجة للكلام، أستشفّ ذلك. عندك أشياء مهمة تقولها وتريد أن تقولها لي وأنا أيضاً أريدك أن تقولها لي.

ـ بالهاتف طبعاً لا ـ قال الصوت.

ـ بالهاتف طبعاً لا ـ قال فيرمينو ـ قل لي أين ومتى.

ساد صمت على الطرف الثاني.

ـ غداً صباحاً؟ ـ سأل فيرمينو ـ هل يبدو لك مناسباً غداً في التاسعة؟

ـ موافق ـ قال الصوت.

ـ أين؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ في سان لاثارو ـ قال الصوت.

ـ وما هذا؟ ـ سأل فيرمينو ـ فأنا لستُ من أوبورتو.

ـ إنّها حديقة عامّة ـ أجاب الصوت.

ـ وكيف سأتعرف عليك؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ أنا سأتعرّف عليك. اختر مقعداً منفرداً وضع صحيفة على ركبتيك، أمّا إذا كان معك أحدٌ فلن أتوقّف.

وانقطع الخطّ.

10

على العشب الممتدّ أمامه سيّدٌ أبيض الشعر عُقِدَ بشال يمارس تمارين رياضية. ومن حين إلى آخر يشرع بعملية جري خجولة، لا يكاد يرفع فيها قدميه عن الأرض ثم يعود القهقرى على خطواته، إلى جانب كلب دوبرمان مستلقٍ يستقبله بفرح في كلّ مرّة يعودُ فيها. كان الرجل يبدو راضياً وكأنّه يقوم بأهمّ شيءٍ في العالم.

نظر فيرمينو إلى الصحيفة المنشورة تماماً على ركبتيه. إنّها *الحوادث* بالعناوين الكبيرة لطبعتها الخاصّة. طوى فيرمينو ذلك القسم من الصحيفة وترك الترويسة وحدها مرئية. أخرج حبّة سكاكر من جيبه وانتظر. في تلك الساعة لم يكن لديه أدنى رغبة بالتدخين، لكن من يدري لماذا أشعل سيجارة. مرّت أمامه سيّدة عجوز ومعها حقيبة مشترياتها وطفل تمسك به أمّه من يده. كان ينظر بهدوء إلى رجل التمارين الرياضية. حاول أن يحافظ على هدوئه حين جلس شاب على الطرف الآخر من المقعد المقابل. نظر إليه فيرمينو شزراً. كان فتى في العشرين من عمره تقريباً، يرتدي بدلة عمل زرقاء وينظر أمامه بهدوء. أشعل الشابُ سيجارةً، سحق فيرمينو سيجارته على الأرض.

ـ أراد أن يلعبها ـ قال الفتى ـ لكنّهم لعبوا به.

لم يقل الفتى أكثر من ذلك وبقي فيرمينو صامتاً. بدا له صمتاً

لاينتهي. مرّ الرجل ذو الشعر الأبيض الذي يمارس التمارين الرياضية أمامهما مختالاً.

ـ متى حدث ذلك؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ منذ ستّة أيام ـ قال الفتى الصغير ـ ليلاً.

ـ اقتربْ ـ قال فيرمينو ـ لا أسمعك جيّداً.

اقترب الفتى منزلقاً على المقعد.

ـ حاول أن ترويه لي بمنطق ـ رجاه فيرمينو ـ خاصة تتالي الأحداث، وخذ بعين الاعتبار أنّني لا أعرف شيئاً على الإطلاق، وإلا لن أستطيع فهمك.

بدأ السيدُ ذو الشعر الأبيض، أمامهما على العشب، تمارينَه الرياضية من جديد. صمت الفتى وأشعل سيجارة أخرى. أخذ فيرمينو حبّة سكاكر أخرى.

ـ كل شيء حدث بسبب الحارس الليلي ـ تمتم الفتى ـ لأنّه اتفق مع الجدجد الأخضر.

ـ من فضلك ـ كرّر فيرمينو ـ بمنطق، حاول أن تحكيه لي بمنطق.

بدأ الفتى يتكلّم بصوت منخفض ونظره ثابت على العشب.

ـ في *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*» حيث كان يعمل داماسْثِنو عامل خدمة يوجد حارس ليليّ، مات فجأة بالسكتة القلبية، هو الذي كان يأخذ المخدرات ويقدمها للجدجد الأخضر والجدجد الأخضر يوزّعها في البترفلاي، أي في البوربولِتا الليليّة، ذلك كان طريقها.

ـ ومن هو الجدجد الأخضر؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ رقيب في الحرس الوطني ـ أجاب الفتى.

ـ والبوربولِتا الليلية؟

ـ بوتشيني بترفلاي، ديسكوتيك على الشاطئ، المحل له، لكنّه

وضعه باسم أخي زوجته. الجدجد الأخضر ذكيّ جدّاً، من هناك تخرج جميع المخدرات التي يُتاجر بها على شواطئ أوبورتو كلّها.

ـ تابعْ ـ قال فيرمينو.

ـ اتفقَ الحارس الليليّ مع بعض الصينيين من هونغ كونغ ممّن يضعون المخدرات في حاويات الأدوات عالية التقنية. الشركة لا تعرف شيئاً، وحده الحارس الليلي من كان يعرف والجدجد الأخضر طبعاً، الذي يقوم بجولته الليلية كلّ شهر ليجمع بضاعته. لكنّ داماسِتْنو استطاع أن يعرف بالموضوع، لا أعرف كيف. وهكذا وفي الليلة التي أُصيب فيها الحارس الليلي بالسكتة القلبية مرّ داماسِتْنو بِوَرْشَتي وقال لي: ليس من العدل أن يخرج الحرس الوطني بكل هذه العجائب، سنستبقهم هذه الليلة، فالجدجد الأخضر على كلّ حال لن يمرّ حتى الغد، فغداً يومه. فقلت له: يا داماسِتْنو أنت مجنون، لا يمكن القيام بفعلة كهذه مع هؤلاء الناس، فهم سينتقمون بعدها. لن أدخل في العملية، انسني. لكنّه مرَّ ببيتي في حوالى الحادية عشرة ليلاً. لم يكن معه سيّارة وطلب مني مرافقته بسيارتي، رضي بذلك، بمرافقتي له فقط وإذا لم أبغ اجتياز الحاجز فماذا سيفعل؟ سيقوم بكلّ شيءٍ وحده. اعتمد على صداقتنا. وهكذا حملته إلى هناك وحين وصلنا سألني ما إذا كنتُ سأتركه يقوم بكلٍّ شيءٍ وحده فعلاً. تبعته. دخل كما يدخل بدرو في بيته، كأنّ شيئاً لا يحدث. كان يحمل معه مفاتيح المكتب. أشعل الأضواء وكلّ شيء. فتّش في الأدراج بحثاً عن نظام المستودعات. فكلّ مستودع له قفل مشفّر. بدا الأمر في غاية السهولة. ذهب داماسِتْنو ليفتح باب المستودع، بدا واضحاً أنّه يعرف مكان البضاعة، لأنّه عاد بعد خمس دقائق، يحمل معه ثلاثة أكياس مليئة بالمسحوق، أعتقد أنّه كان هيروئيناً خالصاً وجهازين إلكترونيين. وبما أنّنا تورّطنا بأخذهما أيضاً، قال، سنبيعهما لعيادة خاصّة تحتاجهما في إستوريل. سمعنا في تلك اللحظة صوت سيارة.

كان السيّد ذو الشعر الأبيض الذي يمارس تمارين رياضية قد التقى بشخصٍ. سيّدة قصيرة الشعر، حيَّتْهُ بمودّة، عبرا العشب معاً

ووصلا إلى حافّة الدرب، أمام المقعد تماماً. كانت السيّدة قصيرة الشعر تقول له إنّها لم تتوقّع حتى بالمصادفة أن تلقاه يمارس الرياضة في الحديقة العامّة، ويجيبها السيّد ذو الشعر الأبيض إنّ إدارة مصرف مثل مصرفه عملٌ ذو تأثير مشؤوم على التهاب العمود الفقري. توقّف الفتى عن الكلام وأطرق بالأرض.

ـ تابعْ ـ قال فيرمينو.

ـ هنا يوجدُ أناس أكثر من اللازم ـ أجاب الفتى.

ـ لنبدِّل المقعد ـ اقترح فيرمينو.

ـ عليّ أن أرحل ـ أصرّ الفتى.

ـ حاول أن تنتهي بسرعة، على الأقل ـ حثّه فيرمينو.

شرع الفتى يتكلّم بصوت منخفضٍ وفيرمينو يفهم بعض الأشياء وأخرى لا يفهمها. استطاع أن يفهمَ أنّه حين سمع صوت السيارة اختبأ في خزانة ثياب. وأنّها كانت دورية من الحرس الوطني بقيادة الجدجد الأخضر. وأنّ الجدجد الأخضر أخذ داماسِتِنو من عنقه وصفعه ثلاث أو أربع صفعات، وأمره أن يذهب معهم. ورفض داماسِتِنو وأجابهم بأنّه سوف ينهي الحفلة لأنّه سيشي به كتاجر مخدرات، فانهال عليه في هذه اللحظة رجلان من الدورية بقبضاتهما وأدخلاه السيارة ومضيا به.

ـ أنا ذاهب ـ قال الفتى بعصبية ـ الآن عليَّ أن أذهب فعلاً.

ـ انتظر لحظة من فضلك ـ قال فيرمينو.

توقّف الفتى.

ـ هل أنت على استعداد للتصريح بذلك ـ سأله فيرمينو بحذر.

فكّر الفتى.

ـ بوديّ ذلك ـ أجاب ـ لكن من سيحميني؟

ـ محامٍ ـ أجاب فيرمينو ـ عندنا مُحامٍ جيّد.

ولكي يبدو أكثر إقناعاً تابع:

ـ والصحافة البرتغالية كلها. ثِقْ بالصحافة.

نظر إليه الفتى لأوّل مرّة. كانت عيناه عميقتين وداكنتين وملامحه غير عدوانية.

ـ اترك لي هاتفاً حيث أستطيع أن أجدك ـ طلب فيرمينو.

ـ اهتف لورشة فايسكا الإلكترونية الميكانيكية ـ قال الفتى ـ اسأل عن لئونِل.

ـ لئونِل ماذا؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ لئونِل تورّس ـ أجاب الفتى ـ إذا قلتُ لك هذه الأشياء فلأنّني أردت أن أريح ضميري، لأنّني أعرف أنّهم هم الذين اغتالوه. لا تكتب هذا في الوقت الحاضر، فربّما اتفقنا فيما بعد.

ودّعه بتحيّة الصباح ومضى. رآه فيرمينو يبتعد. كان قصيراً، بجذعٍ أطول من اللازم فوق ساقين قصيرتين أكثر من اللازم أيضاً. من يدري لماذا خطر بباله تورّس آخر. لكن هذا الأخير لم يتمكن من معرفته قط فقد رآه في بعض صور التلفزيون القديمة. كان تورّس طويلاً معبود والده، ذلك التورّس الذي كان يلعب في هجوم البنْفيكا في الستينات. لم يكن يعرف اللعب، كان يقول والده، لكن يكفيه أن يرفع رأسه كي تتسلّل الكرةُ إلى المرمى كالمعجزة.

11

كانت الساعة الثانية عشرة والربع. فكّر فيرمينو بأن هذا أفضل، فهو لا يريد أن يُظهر دقّة زائدة. كان شارعاً جميلاً، أنيقاً وشعبياً. كان ينزل في شارع روا داس فلورِس. الملمح الشعبي يأتيه من الأفاريز بأزهار الخبازي، التي ربّما كانت أصل اسمه، وأناقة محلات المجوهرات بواجهاتها الثرية. نسيَ فيرمينو أن يأخذ دليلَه، الأمر الذي أحزنه في أعماقه، لكن ماذا سيفعل، سيقرؤه فيما بعد. كانت البوّابة جليلة، لكن من الواضح أنّها عرفت أزمنة أفضل، بوابة من البلوط مزينة بالمسامير، ربّما تعود إلى القرن الثامن عشر. كانت مفتوحة على مصراعيها لتفسح المجال للسيارات بالمرور، ففي العمق فناء لإيقاف السيارات، بحثَ عن لوحة تحمل اسم المحامي مِلّو دِ سِكِيْرا، لكنّه لم يجدها. دخل في الدهليز مرتبكاً. كان هناك بوّابة جالسة في غرفة الحراسة تشتغل بالإبرة وهي من تلك البوّابات اللواتي يمكن العثور عليهن في أوبورتو وربّما في باريس أيضاً، لكن في بعض الأحياء فقط. بدينة، بثديين هائلين ونظرة متفحِّصة، لباسها لا يخلو من بعض الأناقة وحذاء بزهرتين.

ـ إنّني أبحث عن المحامي مِلّو دِ سِكِيْرا ـ قال فيرمينو.

ـ هل أنت الصحافيّ؟ ـ سألت البوّابة.

أجابها فيرمينو بالإيجاب.

ـ المحامي بانتظارك، في الطابق الأسفل يوجد أربعة أبواب، اقرعْ أيّاً منها، جميعها له ـ قالت البوّابةُ.

دخل فيرمينو في ممرات ذلك البناء القديم وقرع الباب الأوّل. لم يكن في الممرّ نور، فُتح الباب صارّاً. دخل وأغلقه خلفه. وجد نفسه أمام قاعة هائلة مقبّبة السقف، في شبه ظلمة. غرفة مغطاة بالكتب. الأرض أيضاً مليئة بها، أعمدة من الكتب في توازن حذر، صناديق صحفٍ وأوراقٍ مختلفة. حاول فيرمينو أن يُعوِّد عينيه على الظلمة. على الطرف الآخر من الغرفة رجل غائصٍ في أريكة. قال فيرمينو: صباح الخير وتقدّم نحوه. كان رجلاً بديناً،أو بالأحرى سميناً يشغل بضخامته نصف الأريكة، يبدو من النظرة الأولى أنّه في الستين من عمره، ربّما أكبر، كان أصلعاً، منتفخ الوجه ، مرتخي الوجنتين مكتنز الشفتين. يبقي رأسه إلى الخلف وينظر بثبات إلى السقف. فعلاً كان يبدو تشارلز لوغتون.

ـ تشرّفنا ـ قال فيرمينو ـ أنا صحافيٌ لشبونة.

ـ أشار البدين بإيماءة ساهية إلى كرسيّ فجلس فيرمينو. بجانب الرجل وعلى الأريكة النسخة الأخيرة من *الحوادث*.

ـ هل أنت صاحب هذا النصّ؟ ـ سأل السمين بصوتٍ محايد.

ـ بلى ـ أجاب فيرمينو لكن ليس بارتياح ـ ومع ذلك فهذا ليس أسلوبي تماماً، عليّ أن أقارب أسلوب صحيفتي.

ـ وهل أستطيع أن أسألك ما هو أسلوبك؟ ـ سأله السمين بالنبرة المحايدة ذاتها.

ـ أحاول أن يكون لي أسلوبي ـ أجاب فيرمينو بعدم ارتياح أكبر ـ لكن وكما تعرف يأتينا الأسلوب من قراءة كتب الآخرين.

ـ أيّ نوع من القراءة مثلاً؟ إذا كان مشروعاً لي أن أسألك هذا السؤال ـ قال السمين.

لم يعرف فيرمينو ماذا يقول. أجاب بعد ذلك:

ـ لوكاتش، مثلاً جورج لوكاتش.

سعل السمين مرّتين أو أكثر. رفع عينيه عن السقف ونظر إليه أخيراً.

ـ مهمّ ـ أجاب ـ وهل للوكاتش أسلوب؟

ـ حسن ـ قال فيرمينو ـ أعتقد ذلك، على الأقل على طريقته.

ـ وما هي؟ ـ سأل السمين بالنبرة المحايدة ذاتها.

ـ الماديّة الجدلية ـ أجاب فيرمينو باستعجال ـ لنسّمه بالأسلوب البحثي.

عاد السمين ليسعل فبدت هذه النوبات الصغيرة من السعال لفيرمينو نوعاً من الضحك المكبوت.

ـ إذن برأيك أنَّ المادية الجدلية أسلوب ـ أجاب السمين بلا رحمة.

كان فيرمينو يشعر بنفسه في كلّ مرّة أقل راحة. بل وشعر ببعض الغيظ. فذلك المحامي السمين المجهول له، الذي يستنطقه حول الأسلوب كما لو كان في امتحان جامعي، لا يمكن تصوّره.

ـ ما أريد قوله ـ حدّد بدقة ـ هو أن منهج لوكاتش يفيدني في دراسة ما أكرس نفسي له، بحث أريد أن أكتبه.

ـ هل قرأت *التاريخ والوعي الطبقي*؟ ـ سأل السمين.

ـ طبعاً ـ أجاب فيرمينو ـ إنّه نصّ أساسي.

ـ إنه عمل من العام الثالث والعشرين ـ علّق السمين ـ هل تعرف ما كان يجري في أوروبا في تلك السنوات؟

ـ تقريباً ـ أجاب فيرمينو.

ـ مجموعة ڤيينا ـ تمتم السمين ـ كارناب، أُسُس المنطق الشكلي، استحالة لاتناقض النظام وترّهات من هذا النوع. أما بالنسبة إلى أسلوب لوكاتش، وبما أنّك تهتمّ بالأسلوب، من الأفضل عدم الكلام عنه، ألا تظنّ ذلك؟ فهو يبدو لي أسلوب فلاح هنغاري متأقلم مع خيول بوزتا.

كان بود فيرمينو أن يردّ عليه بأنّه ليس هناك من أجل الكلام عن الأسلوب، لكنّه لم يفعل.

ـ إنه يفيدني لدراسة الكلاسيكية البرتغالية الجديدة ـ حدّد فيرمينو بدقّة.

ـ أوه ـ تثاءب السمين ـ هناك حاجة لوجود من يدرس أسلوب الكلاسيكية البرتغالية الجديدة.

ـ ليس الكلاسيكية الجديدة الأولى ـ حدّد فيرمينو ـ ليس كلاسيكية الأربعينات الجديدة ما يهمّني ، بل الثانية، كلاسيكية الخمسينات الجديدة بعد خطوة السريالية المتأخرة، وأعرّفها بالكلاسيكية الجديدة اصطلاحاً، لكنّها بالطبع شيء آخر.

ـ هذا يبدو لي أكثر أهمية ـ تمتم السمين ـ يبدو لي أكثر أهميّة، لكنّني ما كنت لأختار لوكاتش بالتحديد كأداة للبحث.

نظر السمين إليه بإمعان ومدّ يده بصندوق خشبي. سأله ما إذا كان يريد سيجاراً لكن فيرمينو رفض. أشعل السمين سيجاراً، بدا هافانياً هائلاً ورائحته قوية جدّاً. راح يدخن بصمت وهدوء. نظر فيرمينو حوله بضياع وراح يتأمّل تلك القاعة الهائلة الممتلئة بالكتب، بالكتب في كلّ مكان، على الجدران، على الكراسي، على الأرض، صناديق صحف وورق.

ـ لا تعتقد أنّك محشور في حالة كافكاوية ـ قال السمين، وكأنّه يقرأ تفكيره ـ بالتأكيد قرأت كافكا، ورأيت المحاكمة مع أورسون ويلز، أنا لست أورسون ويلز، حتى وإن كان هذا كهفاً مليئاً بالأوراق وكنت السمين وأدخن سيجاراً هائلاً، لا تخطئ بالشخصيات السينمائية، ففي أوبورتو ينادونني لوتون.

ـ هذا ما قالوه لي ـ أجاب فيرمينو .

ـ لننتقل إلى الأمور العملية ـ قال السمين ـ قل لي ما الذي تريده مني تماماً.

ـ اعتقدت أنّ السيّدة روسا قالت لك كلّ شيء ـ قال فيرمينو.

ـ جزئياً ـ تمتم السمين.

ـ حسن ـ قال فيرمينو ـ المسألة أنك قرأت في صحيفتي وإن لم يكن بأحب الأساليب إليك وصحيفتي تريد أن تقترح عليك اقتراحاً: إنّ عائلة داماسِئنو مونتِيْرو لا تملك المال لتدفع للمحامي، لكنّ صحيفتي تتطوّع لذلك. نحن بحاجة إلى محامٍ وفكّرنا بك.

ـ لا أدري ـ همهم السمين ـ المسألة أنّني مكلّف بأنجِلا، أفترض أنك سمعتهم يتحدثون عنها، فقد ظهرت في صحف الحوادث.

نظر إليه فيرمينو بارتباكٍ واعترف:

ـ لا، بصراحة، لا.

ـ بائعة الهوى التي عُذّبت حتى الموت تقريباً ـ قال السمين ـ المسألة التي تشغل صحف أوبورتو، أنا أمثلها. من المؤسف أنك وأنت الصحافي لا تتابع الصحف. فأنجِلا مومس من أوبورتو، اتصلوا بها من أجل قضاء ليلة خارج العاصمة رافقها إلى هناك قَوادها، حملوها إلى بلدة قريبة من غيمارايس، حيث يوجد فتى شاب من أسرة نبيلة جعل اثنين من أعوانه يربطانها لينزلا بها كلّ أنواع العنف الجسدي، لأنها كانت نزوة يريد ممارستها، لكنه لم يكن يعرف مع من يمارسه، فمارسه مع أنجِلا، فهي على كلّ الأحوال لم تكن إلا عاهرة.

ـ شيءٌ مريع ـ قال فيرمينو ـ وأنتَ تُمثِّلها؟

ـ نعم ـ أكّد المحامي ـ وهل تدري لماذا؟

ـ لا أدري ـ أجاب فيرمينو ـ يمكن أن أقول رغبة بالعدالة.

ـ لنقل ذلك ـ تمتم السمين ـ مع أنّه يمكن أن يكون تعريفاً. لتعلم فقط أنّ السادي صبيّ مدلّل لزعيم ريفي خرج من العدم وأثرى مع الحكومات الأخيرة، إنّها أسوأ بورجوازية ظهرت في البرتغال في السنوات العشرين الأخيرة: أموال وجهل وكثير من العجرفة. إنّهم أناس رهيبون، يجب تصفية الحسابات معهم. في الأسرة التي أنتمي إليها استغلّوا لقرونٍ نساءً من أمثال أنجلا واغتصبوهنّ أيضاً، ربّما ليس بالطريقة التي قام بها شابّنا، لنقل بطريقة أكثر أناقة. نستطيع

أن نفترض، إذا رأيت ذلك، أنّ حالتي نوع من التصحيح المتأخِّر للتاريخ، استثمار مناقض للوعي الطبقي، ليس بحسب آليات لوكاتشـك الأولية، لنقل بمستوى آخر، لكن هذه أمور خاصّة بي أفضِّل ألا أشرحها.

ـ بودّنا أن ندعوك لتأخذ على عاتقك دور المحامي للاتهام الشخصي ـ أجملَ فيرمينو ـ إذا ما اتفقنا حول أتعابك.

سعل السمين مرّتين بدتا ضحكتين. نفض رماد سيجاره في المرمدة. بدا ظريفاً. أشار إشارة مبهمة إلى الغرفة.

ـ هذا البناء لي ـ قال ـ كان لأسرتي وكذلك الشارع المجاور كان لأسرتي. لاوريث لدي ولاعقب وما دامت لدي هذه الأملاك أستطيع أن أتسلّى.

ـ وهل هذه الحالة تسلّيك؟ ـ سأل فيرمينو .

ـ ليس هذا بالضبط ما أردتُ قوله ـ أجاب المحامي بهدوء ـ لكنني أريدك أن تكون أكثر دقّة بالنسبة للعناصر التي تملكونها.

ـ لدي شاهد ـ قال فيرمينو ـ تقابلنا هذا الصباح في حديقة عامّة.

ـ وهل مخبرك على استعداد للمثول أمام القاضي؟ ـ سأل المحامي.

ـ إذا طلبت منه ذلك أعتقد أنّه سيفعل ـ أجاب فيرمينو.

ـ لندخل في الموضوع ـ قال المحامي.

ـ يبدو أنّهم قتلوا داماسِيْنو مونتِيْرو في قسم الحرس الوطني ـ قال فيرمينو بصراحة.

ـ الحرس الوطني ـ همس المحامي. مجّ سيجاره وضحك: إذن المسألة تتعلّق بـ *غروندنورم*.

نظر إليه فيرمينو محتاراً فقرأ المحامي في وجهه الحيرة.

ـ لا أستطيع أن أدعي أنك تعرف ما هو *الغروندنورم* ـ تابع

المحامي ـ أعي أنّنا نتكلّم نحن رجال القانون بالرموز أحياناً.

ـ اشرحه لي إذن ـ قال فيرمينو ـ أنا درست في كلّية الفلسفة والآداب.

ـ هل سمعت بهانز كِلسِن؟ ـ سأل المحامي بصوت خافت وكأنّه يكلّم نفسه.

ـ هانز كِلسِن ـ أجاب فيرمينو، محاولاً أن يقلّب معارفه القانونية النادرة ـ يبدو لي أنّني سمعتهم يتكلّمون عنه، إنّه فيلسوف القانون، كما أعتقد، لكن بالتأكيد أنت تستطيع أن توضِّحه لي بشكلٍ أفضل.

أطلق المحامي تنهيدة كانت من العمق بحيث بدا لفيرمينو أنّه سمع صداها.

ـ بيركلي، كاليفورنيا، ألف وتسعمئة واثنان وخمسون ـ قال ـ ربّما لن تستطيع أن تتصوّر ماذا كانت تعني كاليفورنيا في تلك المرحلة بالنسبة لشابّ قادم من أرستقراطيّة مدينة ريفية مثل أوبورتو ومن بلد قمعي كالبرتغال؛ بكلمة واحدة أستطيع أن أقول إنّها الحريّة. ليست الحريّة المزيفة التي نراها مصوّرة في بعض الأفلام الأمريكية آنذاك، ففي أمريكا كان هناك رقابة رهيبة أيضاً، بل حرّية حقيقيّة، داخلية، مطلقة. تصوّر أنّه كان عندي خطيبة وكنّا نلعب بالسكواتش squash، اللعبة التي كانت تجهلها أوروبا تماماً، كنّا نعيشُ في بيتٍ خشبيٍّ أمام المحيط جنوب بيركلي، تعود ملكيته لأبناء عمومة لنا أمريكيين ، فأسرتي من جهة الأم لها فرع أمريكي. ستسألني لماذا ذهبتُ إلى جامعة بيركلي. لأنّ أسرتي كانت غنيّة، لا جدل في ذلك، لكن على الأخص لأنّني كنت أريد أن أدرس الأسباب التي دفعت البشرية لوضع القوانين، ليست القوانين كما كان يدرسها معاصريَّ، الذين صاروا فيما بعد محامين مشهورين، بل أسبابها الخفيّة، ربّما بمعنى مجرّد، لا أدري ما إذا كنت أوضّحُ وإذا كنتُ لا أوضّح فماذا سأفعل لك.

توقّف السمين مرّة أخرى ومجّ ملء فمه من سيجاره. انتبه

فيرمينو إلى أنّ جوّاً معبّأً بالدخان يسود الغرفة الهائلة.

ـ حسن ـ تابعَ ـ أنا، بمعارف طالب في أوبورتو ركّزتُ اهتمامي على ذلك الرجل، هانز كِلسِن، المولود في براغ 1881، الذي كتب في العشرينات مقالة عنوانها مشكلة قانون الدولة الرئيسيّة Hauptprobleme der Staatsrechtslebre ، كنت قد قرأته وأنا طالب، لأنّ لغتي هي الألمانية، تعرف أنّ مربيَّ كانوا ألماناً، وهي عملياً لغتي الأم. وهكذا سجّلت في جامعة بيركلي. كان رجلاً طويلاً ونحيلاً، أصلعَ وثقيلاً، ولم يكن باستطاعة أحد القول من أوّل نظرة إنّه فيلسوف القانون الكبير ، بل موظّف دولة. هرب أوّلاً من ڤيينا ثم اضطرّ للهرب من كولونيا، بسبب النازية. علّم في سويسرا وانتقل بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية. تبعته على الفور إلى الولايات المتحدة. في العام التالي انتقل من جديد إلى جامعة جنيف وتبعتُه أيضاً إلى جنيف. نظرياته عن الـ *غروندنورم* تحوّلت إلى هَوَسٍ عندي.

لزم المحامي الصمت، أطفأ السيجار، واستنشق مرّة أخرى ملءَ فمه كما لو كان ينقصه الأوكسجين.

ـ *غروندنورم* ـ كرّر ـ هل التقطت المفهوم؟

ـ القاعدة الأساسية ـ قال فيرمينو محاولاً ان يستفيد من القليل الذي يعرفه من الألمانية.

ـ نعم، بالطبع، القاعدة الأساسية ـ حدّد السمين ـ لكنّها بالنسبة لكِلسن في قمّة الهرم. إنّها نظرية مقلوبة القاعدة، هي في قمّة نظريّته عن العدالة، والتي يعرِّفها على أنّها Stufenbau Theorie نظرية البناء الهرمي.

توقّف المحامي. تنهّد من جديد، لكن بشكل ضعيف هذه المرة.

ـ إنها قضيّة معيارية ـ تابع ـ في قمّة هرم ما نسميه بالقانون، لكنّها ثمرة خيال الدارس، محض فرضيّة.

لم يكن فيرمينو قادراً على أن يعرف ما إذا كان تعبيره تعليمياً، تأملياً أو مجرّد حنين.

ـ إذا أردت يمكن أن تكون فرضية ميتافيزيقية ـ قال المحامي ـ ميتافيزيقية تماماً. وإذا أردت فإنّها مسألة كافكاوية تماماً، إنّها القاعدة التي تلفنا جميعاً بشباكها، منها يُشتق، وإن بدا لك ذلك ساذجاً، جبروت غلام يعتقد أن من حقّه أن يسوط عاهرة. طرق *الغروندنورم* لا متناهية.

ـ الشاهد الذي تكلّمت معه هذا الصباح ـ قال فيرمينو مبدلاً الموضوع ـ واثق من أنّ الحرس الوطني قتل داماستِنو.

رسم المحامي ابتسامة تعبٍ ونظر إلى الساعة.

ـ حسن ـ قال ـ الحرس الوطني مؤسّسة عسكرية، المسألة تتعلّق بتجسيد دقيق *للغروندنورم*، المسألة بدأت تهمني، خاصّة وأنه من المحتمل ألا تعرف عدد الذين قُتِلوا أو عذِّبوا في الأقسام اللطيفة لشرطتنا في السنوات الأخيرة.

ـ أعرف تماماً مثلك ـ لفت فيرمينو انتباهه ـ الحالات الأربع الأخيرة تابعتها صحيفتنا.

ـ نعم، نعم ـ تمتم المحامي ـ وجميع المسؤولين أُطلق سراحهم، جميعهم يتابعون براحة خدمتهم، المسألة بدأت تهمّني فعلاً، أخيراً ما رأيك أن نذهب لنأكل؟ فالساعة الواحدة والنصف وبدأت أشعر بالشهية للطعام، يوجد مطعم موثوق بالنسبة إليّ هنا، قريب. بالمناسبة هل تحبّ الكرشة؟

ـ بشكل معتدل ـ أجاب فيرمينو مغموماً.

12

ـ لسوءِ الحظّ هذا الشابُ لا يحبّ الكرشةَ ـ قال المحامي موجّهاً كلامه لصاحب المطعم ـ قدّم له صحونك الخاصّة بالمحل، يامانوِل.

وضع صاحبُ المطعم يديَهِ على خصريه ونظر إلى فيرمينو شزراً، فخفض هذا رأسه لشعوره بالذنب.

ـ يا سيّد فرناندو ـ أجاب صاحبُ المطعم بهدوء ـ إذا لم أتمكّن من إرضاء ضيفك التزمتُ بتقديم الطعام لكما مجاناً. هل هو أجنبي؟

ـ تقريباً ـ ردّ المحامي ـ لكنّه بدأ يعتاد عادات هذه المدينة.

ـ أستطيع أن أنصحه برزِّنا مع الفاصولياء والسردين المقلي ـ اقترح صاحبُ المطعم ـ أو جذع الغادس بالفرن.

نظر فيرمينو إلى الرجل الضخم بضياع، وكأنه يريد أن يُفهمه أنّه يعتبر أيّ صحنٍ جيّداً.

ـ أحضر لنا الصحنين ـ قرّر المحامي ـ بهذا الشكل ننقّر من الاثنين. طبعاً مع الكرشة لي.

المطعم ، الذي لم يكن فعلا مطعماً بل أقرب إلى المشرب المليء بالبراميل، موجود في نهاية زقاق بجانب شارع روا داس فلورِس، ظاهرياً لم يكن له اسم. انتبه فيرمينو إلى أنّه يوجد فوق الباب نوع من الإعلان الخشبي المدهون بسذاجة يقول: : «هذه حانة العين».

ـ كيف تعتقد أنّ علينا أن نعمل؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ ما اسم الشاهِد؟ ـ سأل المحامي.

ـ يُدعى تورّس ، إنّه ميكانيكي كهرباء في ورشة فايسكا.

ـ سأذهب هذا المساء في طلبه وسأحمله معي ليمثل أمام قاضي الاستجواب ـ قال المحامي.

ـ وماذا لو أنّ تورّس رفض التصريح ـ اعترض فيرمينو.

ـ قلتُ لك سأحمله معي ليمثل أمام قاضي الاستجواب ـ أجاب المحامي برضى.

صبّ نبيذاً أخضرَ في كأسٍ ورفع كأسه علامة النخب.

ـ إنّه نبيذ ألفارينيو ، لا يصنع للتجارة، غير متوافر في السوق، لكنّه يستعمل كفاتح للشهية، فيما بعد نشرب نبيذاً أحمر.

ـ لستُ معتاداً على النبيذ ـ اعتذر فيرمينو.

ـ دائماً هناك وقت للاعتياد ـ أجاب.

ظهر صاحبُ المطعم في تلك اللحظة مع بعض الصينيات وتوجّه إلى المحامي كما لو أن فيرمينو غير موجود.

ـ هاهي ذي، يا سيّد فرناندو ـ هتف برضى ـ وإذا لم تعجب ضيفك دفعت أنا ثمن هذا الطعام، كما سبق وقلت، لكن من الأفضل في هذه الحالة أن يُغادر هذا السيّد هذه المدينة.

للرزّ بالفاصولياء المسبّحِ بمرق بني مظهرٌ كريه. أخذ فيرمينو فرخي سردين مقليين ووضع في صحنه شريحة من جذع الغادِس. نظر المحامي إليه بعينيه الصغيرتين المستقصيتين.

ـ كُلْ، أيُّها الشاب ـ قال ـ يجب استعادة القوى، فالمسألة ستكون طويلة ومعقّدة.

ـ وأنا ماذا عليّ أن أفعل بدءاً من الآن؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ أنت غداً ستذهب وتبحث عن تورّسْ وتجري معه مقابلة جيّدة ـ قال المحامي ـ أطول ما تستطيع وأكثرها تفاصيلاً، وتنشرها في صحيفتك.

ـ وماذا لو لم يرضَ تورّس ـ سأل فيرمينو.

ـ طبعاً سيرضى ـ أجاب المحامي بهدوء ـ ليس أمامه من خيار، السبب بسيط وسيلتقطه تورّس على الفور، لا أظنّه أبله.

نظّف المحامي ذقنه من مرق الكرشة الذي سال عليها بمنديله وتابع كأنه يشرح شيئاً أوّلياً بنبرة جافّة:

ـ لأنّ تورّس رجل محروق ـ قال ـ سيدلي بأقواله هذا المساء أمام القاضي، وتحت مراقبتي، أستطيع أن أؤكّد لك هذا، مع أنّ مَحْضَراً يبقى في أيدي المحقّقين لغماً طافياً، يجب عدم الاطمئنان كثيراً، فهذا المحضَر يمكن أن يعلم به أحدٌ لا يعجبه، تصوّر، كم من حوادث السير تقع يوميّاً. بالمناسبة هل تدري أنّ البرتغال على رأس البلاد الأوروبية في إحصائيات حوادث السير؟ يبدو أن البرتغاليين ليسوا مسؤولين أمام المقود.

نظر فيرمينو إلى المحامي بالارتباك الذي ما يزال يسبّبه له.

ـ والمقابلة في صحيفتي فيمَ ستفيده؟ ـ سأله.

ابتلع المحامي قطعة الكرشة بنهم. مع أنّها مُقَطّعة إلى قطع صغيرة إلاّ إنّه كان يأكلها محاولاً الإمساك بها بالشوكة، لكن دون جدوى.

ـ يا عزيزي ـ تنهّدَ ـ أنت تفاجئني: لم تتوقّف عن مفاجأتي منذ اللحظة الأولى، تكتب في صحيفة واسعة الانتشار ويبدو أنّك لا تعرف ما هو الرأي العام، شيء مستنكر، حاولْ أن تتابعني لحظة: يمكن أن يشعر تورّس بالطمأنينة إذا ما عزّزتْ صحيفتك موقفه بعد أن يكون قد أدلى بشهادته أمام السلطات القضائية، لأنّ الرأي العام كلّه سيكون معه، وسائق غافل سيفكّر مرّتين قبل أن يدهس بسيارته شخصاً تقع عليه نظرة الرأي العام. هل التقطّتَ الفكرة؟

ـ التقطتُ الفكرة ـ أجاب فيرمينو.

ـ ثمّ إنّ هذا يؤثّر عليك كثيراً كصحافي ـ تابع المحامي ـ هل تدري ما كان يقول جوهاندو؟

نفى فيرمينو برأسه. شرب المحامي كأسَ نبيذ ونظّف شفتيه المكتنزتين.

ـ كان يقول: بما أنّ الهدف الجوهري للأدب هو معرفة الكائن البشري، وبما أنّه لا يوجد مكان في العالم يمكن أن يُدرس فيه هذا الكائن أفضل من قاعات المحاكم، أليس من المرغوب به دائماً أن يوجد بين المحلّفين كاتب شرعي؟ فوجوده سيكون بالنسبة للجميع دعوة للتفكّر أكثر.

توقّف المحامي برهة قصيرة وشرب جرعة أخرى من النبيذ.

ـ حسن ـ تابع ـ من الواضح أنّك لن تجلس أبداً بين أعضاء محكمة محلفين، كما كان يرغب السيّد جوهاندو، بل وأكثر من ذلك لن تحضر الاستجوابات التي ستتم خلال التحقيق، لأنّ القانون لا يسمح لك بذلك، ثمّ إنّك لست كاتباً خالصاً تماماً، لكنّنا، وبما أنّك تكتب في صحيفة نستطيع أن نقومَ بجهدٍ ونعتبرك كذلك. لنقل أنّك ستصبح محلّفاً عملياً، سيكون هذا هو دورك، محلّف عملي ، هل استوعبت المفهوم؟

ـ يبدو لي ذلك ـ أجاب فيرمينو.

أراد بعد ذلك أن يكون معقولاً فسأل:

ـ لكن من يكون جوهاندو هذا؟ لم أسمع به قط.

ـ مارسِل جوهاندو ـ أجاب المحامي ـ لاهوتي فرنسي استفزازيّ كان يحب إثارة الفضائح، كما كان داعية خِسَّة وفسادٍ ميتافيزيقي، إذا سُمح لي بهذا التعبير. هل تعلم؟ كان يكتب بينما السرياليون يدعون للتمرّد، وبعد أن نظّر جيدْ حول الجريمة المجانية. لكنّه لم يملك كما هو طبيعي عظمةَ جِيدْ، في الحقيقة نظرياته رخيصة وإن قالَ بعض الجمل الرنانة عن العدالة.

ـ ما زال علينا أن نعالج المسألة الأساسية ـ قال فيرمينو ـ لأنّ صحيفتي تتحمّل طبعاً أتعابك.

نظر إليه المحامي بعينيه الصغيرتين الاستقصائيتين.

ـ يعني؟ ـ سأل.

ـ يعني أنّك ستُعَوَّضُ بشكل مناسب ـ قال فيرمينو.

ـ يعني؟ ـ كرّر المحامي ـ هل تعني هذا بالمصطلح الرقمي؟

شعر فيرمينو بقليلٍ من الانزعاج.

ـ لا أعرف كيف أقوله لك ـ أجاب ـ هذا ما يمكن أن يحدّده لك مديري بدقّة.

ـ هناك بيت في شارع روا دو فِرّاث ـ قال المحامي دونما منطق ظاهري ـ قضيتُ فيه طفولتي، تماماً فوق شارع روا داس فلورِس، إنّه قصر صغير من القرن الثامن عشر، عاشت فيه جدّتي المركيزة.

تنهّد بحنين.

ـ أين قضيت طفولتك؟ في أيّ نوعٍ من البيوت؟ ـ سأل بعد ذلك.

ـ على شاطئ كاسكايس ـ أجاب فيرمينو ـ كان والدي في حرس الشواطئ وينتفع ببيت قرب البحر، عملياً قضيتُ فيه أنا وأخوتي طفولتنا كلّها.

ـ آه، نعم ـ قال المحامي ـ شاطئ كاسكايس، بنور ظهيرته ناصعِ البياض الذي يصطبغ بالورديّ عند الغروب، زرقة المحيط، صنوبر غينتشو... بينما ذكرياتي هي ذكريات بناء كئيب، مع جدّة قاسية، تتناول الشاي وتضع حول عنقها الثخين في كلّ يوم شريطة مختلفة، لكنّها دائماً من الحرير الأسود، أحياناً بسيطة وأخرى مطرّزة قليلاً على حوافها. لم تلمسني قط، كانت في بعض المناسبات تمرّ بيدها الباردة على يدي وتقول لي إنّ الشيء الوحيد الذي على الطفل أن يتعلّمه في تلك العائلة هو احترام الأسلاف. كنتُ أنظر إلى أولئك الذين تسميهم أسلافاً. كانت رسوماً زيتية لوجوه رجالٍ متكبّرين، تعلو وجوههم وشفاههم المكتنزة مثل شفتيّ علامات ازدراء أورثوها لي.

تذوّق لقمة غادُس وقال:

ـ يبدو لي هذا الصحن إلهيّاً، قُلْ لي، أنت ما رأيك به؟

ـ يُعجبني ـ أجاب فيرمينو ـ لكنّك كنتَ تحدّثني عن طفولتك.

ـ حسن ـ تابع المحامي ـ هذا البيت مهجور، مع كلّ ذكريات السيِّدة المركيزة، التي عملت جدّة لي على طريقتها: لوحات الوجوه، الأثاث، مفارش أسرّة كاستِلو برانكو وأشجار عائلتها. لنقلْ إنَّ طفولتي محبوسة هناك كما لو في صندوق. حتى سنوات قليلة مضت كنتُ أذهب لأراجع أرشيف العائلة، لكن لا أدري ما إذا رأيتَ شارع روا دو فرّاث، للصعود إليه تحتاج إلى التلفريك. بجسمي الضخم لا أستطيع الوصول إلى هناك، يتوجّب عليّ استدعاء سيارة أجرة لقطع خمسمئة متر. لذلك لم أضع فيه قدماً منذ سبع سنين. حتى أنّني قرّرت بيعه، كلّفت به وكالة ، شيء جيّد أنّ الوكالات تلتهم الطفولة، هذه أكثر الطرق طهارة للتخلّص منها، وأنت لا تعلم كم من البرجوازيين الأثرياء، من هؤلاء الذين حصلوا على الثروة في السنوات الأخيرة بتمويل من الوحدة الأوروبية، يريدون هذا البيت. هل تعلم؟ إنّه مكان يقدّم لهم بحسب طريقة تفكيرهم الحالة الاجتماعية التي يبحثون عنها بقنوط، فبناء فيلا حديثة مع مسبح في مناطق السكن بمتناول أيديهم، لكنهم لا يملكون قصراً من القرن التاسع عشر يفصلهم عنه درجات كثيرة إلى الأعلى. هل التقطت الفكرة؟

ـ التقطت الفكرة ـ وافق فيرمينو.

ـ وهكذا قرَّرتُ بيعه ـ قال المحامي ـ أكثر المتطلعين إلى ملكيته لهفة يأتي من الريف. إنّه النموذج الممثل للمجتمع الذي نعيش فيه اليوم. كان والده مربي ماشية صغيراً. بدأ هو بشركة أحذية صغيرة متواضعة في ظل السالازارية. في الحقيقة كان يُصنّع أحذية من القماش المشمّع وعنده زوج من العمال. بعد ذلك وفي الرابعة والسبعين جاءت الثورة وانضمّ إلى الأفكار التعاونية، حتى أنّ إحدى الصحف المتحمّسة أجرت معه مقابلة تكاد تكون ثورية. ثمّ وبعد الأوهام الثورية جاءت الليبرالية الجديدة الجامحة وانضمّ إليها كما يجب. باختصار، هو شخص عرف كيف يُبحِر. عنده أربع

سيارات مرسيدس وملعب غولف في أَلْغَربِ واعتقد أنّ عنده منها في شبه جزيرة ترويا، إنّه شخص يتفاهم جيّداً مع كلّ أحزاب القوس الدستوري، بدءاً من الشيوعيين وحتى اليمين، ومن الطبيعي أنّ معمله يسير على أحسن ما يرام، يصدّر إلى الولايات المتحدة. ما قولك؟ هل أفعل جيّداً ببيعه له؟

ـ البيت؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ طبعاً البيت ـ أجاب المحامي ـ قد أبيعه له. منذ عدّة أيّام جاءت زوجته، التي أعتقد أنّها الوحيدة التي تعرف القراءة والكتابة في العائلة، لتتكلّم معي. سأوفّر عليك وصف هذه السيّدة المفرطة في مكياجها. لكنّني رفعت السعر، لأنّني قلتُ أبيع البيت بأثاثه القديم وبكلّ اللوحات النبيلة وسألتها: أيّتها السيدة النبيلة، ماذا يمكن أن تفعل أسرة مثل أسرتك ببيت مثل هذا البيت دون أثاثه القديم ولوحاته النبيلة؟ وأنت ماذا تقول، أيّها الشاب، هل عملت جيّداً؟

ـ برأيي أنّك عملت بشكل ممتاز ـ أجاب فيرمينو ـ بما أنّ رأيي يهمّك، أستطيع أن أقول إنّك عملت بشكل ممتاز.

ـ إذن ـ ختم المحامي ـ تستطيع أن تقول لمديرك إنّ نفقات داماسِئِنو مونتِيْرو مدفوعة تماماً بلوحتين من القرن الثامن عشر من بيتي في شارع روا دو فِرّاث وألا يأتيني باقتراحات حول أتعابي، رجاءً.

لم يردّ فيرمينو وتابع أكله. كان قد جرّب الرز بالفاصولياء بخجل فوجده لذيذاً، لذلك تناول دفعة أخرى . أراد أن يقول شيئاً، لكنّه لم يعرف كيف يقوله. أخيراً حاول صياغته.

ـ صحيفتي ـ تلعثم ـ صحيفتي هي هي، أريد أن أقول إنّك تعرف أسلوبها جيّداً، الأسلوب الذي يجب أن نكسب به قرّاءنا، أي إنّها صحيفة شعبية، ربّما جريئة، لكنّها صحيفة شعبية. تقدّم التنازلات التي عليها أن تقدّمها أخيراً كي تبيع نسخاً أكثر، لا أدري ما إذا كنتُ أوضّح.

كان المحامي مشغولاً بالطعام فلم يقل شيئاً. كان منهمكاً تماماً بأكل الغادس.

ـ لا أدري ما إذا التقطت الفكرة ـ قال فيرمينو مستعيناً بصيغة المحامي.

ـ لا، لم ألتقط الفكرة ـ أجاب المحامي.

ـ على كلّ الأحوال ـ تابع فيرمينو ـ أريد أن أقول إنّ صحيفتي هي الصحيفة التي تعرفها، وأنت، حسن، أنت محامٍ مهمّ، لك الكنية التي لك، أي ما أريد قوله إنّ عندك سمعة يجب أن تُحميها، لا أدري ما إذا كنتُ أوضّح.

ـ أنت ما زلت تخيّبني، أيّها الشاب ـ أجاب المحامي ـ تصر بكلّ الوسائل على أن تكون أدنى ممّا أنت. يجب ألاّ نكون أبداً أدنى من أنفسنا، ما الذي قلته عن نفسي؟

ـ إنّ لك سمعة يجب أن تدافع عنها ـ أجاب فيرمينو.

ـ اسمعني ـ تمتم المحامي ـ يبدو لي أنّنا لم نفهم بعضنا بعضاً، سأقول لك شيئاً وأنتهي، لكن افتح أذنيك جيّداً. أنا أدافع عن البؤساء، لأنّني مثلهم، هذه هي الحقيقة الخالصة والبسيطة. من نسبي الشهير أستخدم فقط الأشياء المادية التي خلّفوها لي، لكنّني أعتقدُ مثل البؤساء الذين أدافع عنهم أنّني عرفتُ بؤس الحياة، فهمته بل وتمثلته، لأنّك كي تفهم بؤس هذه الحياة عليك أن تُدخلَ يديك في الخراء، اعذرني على هذه الكلمة وعلى الأخص أن تعي ذلك. لا تجبرني على الخطابية لأنّ هذه خطابية رخيصة.

ـ لكن بماذا تؤمن أنت؟ ـ سأل فيرمينو بقوّة.

لا يعرف لماذا طرح هذا السؤال الساذج في تلك اللحظة. تماماً في اللحظة التي كان يصوغه فيها بدا له واحداً من تلك الأسئلة التي تُسأل في المدرسة لزميل المقعد، ويجعل من يطرحه ومن يُطرح عليه يحمرّ خجلاً. رفع المحامي رأسه عن الصحن ونظر إليه بعينيه الصغيرتين المستقصيتين.

ـ هل أنت توجّه إليّ سؤالاً شخصياً؟ ـ سأل بانزعاجٍ بادٍ.

ـ لنقل جدلاً إنّه سؤال شخصيّ ـ أجاب فيرمينو بجرأة.

ـ ولماذا تسألني هذا السؤال؟ ـ أصرّ المحامي.

ـ لأنّك لا تؤمن بشيء ـ أكّد فيرمينو ـ عندي انطباع بأنّك لا تؤمن بشيء.

ابتسم المحامي. بدا لفيرمينو أنّه غير مرتاح.

ـ يمكن أن أؤمن بشيء قد يبدو لك غير ذي معنى ـ أجابه.

ـ وضّح لي، مثلاً ـ أصرّ فيرمينو ـ شيء ما يمكن أن يكون مقنعاً.

الآن وقد وجد نفسه محشوراً في تلك الورطة أراد أن يلعب دوره.

ـ مثلاً قصيدة ـ أجاب المحامي ـ بعض الأبيات من الشعر، قد يبدو هذا حماقة، لكنّه أيضاً يمكن أن يبدو شيئاً أساسياً، مثلاً: كلّ ما عرفتُهُ / ستكتبه لي كي تذكرني به/ بالرسائل/ وأنا أيضاً سأفعل/ سأقول لك كلّ ماضيك.

سكت المحامي. كان قد أبعد الصحنَ وهصر المنديل بيده.

ـ هولدِرلن ـ تابع ـ إنّها قصيدة بعنوان wenn aus der ferne، أي «إذا كان من بعيد» إنّها واحدة من آخر قصائده. لنقل إنّ هناك أشخاصاً ينتظرون رسائل من الماضي، هل يبدو لك معقولاً ما أؤمن به؟

ـ ربّما ـ أجاب فيرمينو ـ يمكن أن يكون مقبولاً، وإن كنتُ أودّ لو أفهمه بشكلٍ أفضل.

ـ أمرٌ بسيط ـ تمتم المحامي ـ رسائل الماضي التي توضّح لنا زمناً من حياتنا لم نفهمه قط، تقدّم لنا أيَّ تفسيرٍ يجعلنا ندرك معنى كلّ تلك السنوات الماضية، تلك السنوات التي فاتنا فهمها، أنت شاب، وتنتظر رسائل من المستقبل، لكن لنفترض أنّ هناك أشخاصاً

ينتظرون رسائل من الماضي وقد أكون من أولئك الأشخاص بل وأُغامرُ أيضاً بتصوّر أنّها ستصلني ذات يوم.

توقّف، أشعل واحداً من سيجاراته وسأل:

ـ وهل تعرف كيف أتصوّر وصولها؟ حاوِل جهدك.

ـ ليس عندي أدنى فكرة ـ أجاب فيرمينو.

ـ طيّب ـ قال المحامي ـ في علبة مربوطة بشريطة حمراء، تماماً هكذا ومعطّرة بالبنفسج، كما في أسوأ روايات الحلقات. وفي هذا اليوم أُقرِّب أنفي القبيح من العلبة، أفكّ الشريطَ، أفتح الرسائل وأفهم بجلاءِ الظهيرةِ قصّةً لم أستطِع فهمها قط، قصّة فريدة وأساسية، أكرِّر، فريدة وأساسية، تسمح الآلهة بحدوثها مرّة واحدة في حياتنا ولا نوليها الانتباه المطلوب في لحظتها، تماماً لأنّنا كنّا بُلهاء متبجحين.

توقّف هذه المرّة وقفة أخرى أطول. فيرمينو كان ينظر إليه بصمت، يراقب خدّيه الضخمين والمترهلين، شفتيه المكتنزتين شبه الكريهتين، ذلك التعبير الضائع في ذكرياته.

ـ ثمّ ـ تابع المحامي بصوت خافت ـ *ماذا تفعل بغرامياتك القديمة* حسن هذا ما أسأله أنا أيضاً لنفسي، *ماذا تفعل بغرامياتك القديمة*؟ إنّه بيت من قصيدة للويز كولِتْ، التي تتابع على الشكل التالي: «هل تطردها كظلالٍ وهمية؟ لقد كانت هذه الأشباح الجليدية قلباً لقلب جزءاً من ذلك». من المحتمل أن تكون مهداة إلى فلوبير. يجب أن نوضّح أنّ لويز كولِتْ كانت تكتب قصائد شائكة. المسكينة، على الرغم من اعتقادها بأنّها شاعرة عظيمة وأرادت أن ترتقي إلى الصالونات الأدبية الباريسية فأشعارها بقيت دون أدنى شكّ فعلاً متواضعة. لكنّ هذه الأبيات القليلة شوكة في القلب كما يبدو لي إذ ماذا سنفعل بغراميات الماضي؟ هل نخبّئها في درجٍ مع الجوارب الممزّقة؟

نظر إلى فيرمينو كمن ينتظر تأكيداً، لكنّ فيرمينو لم ينبس ببنت شفة.

ـ هل تدري ما أقوله لك؟ ـ تابع المحامي ـ إذا كان فلوبير لم يفهمها فهذا يعني أنّه كان أبلهاً حقيقيّاً، وفي هذه الحالة يجب إعطاء الحقّ للمتبجح سارتِر؛ لكن من المحتمل أن يكون فلوبير قد فهمها، أنت ما رأيك؟ هل فهمها فلوبير أم لا؟

ـ ربّما فهمها ـ أجاب فيرمينو ـ هكذا فجأة، لا أستطيع أن أؤكّد لك ذلك، ربّما فهمها، وإن كنتُ لا أستطيع تأكيد ذلك.

ـ عفواً، أيّها الشاب ـ قال المحامي ـ أنت تريد أن تدرس الأدب، بل وتريد أن تكتب بحثاً عن الأدب، وتعترف لي أنّك لا تعرف كيف تبدي رأياً حول هذا الحدث الأساسي، حول ما إذا كان فلوبير قد فهم رسالة لويز كولِت المشفرة أم لا.

ـ لكنّني أدرس الأدب البرتغالي في الخمسينات ـ دافع فيرمينو عن نفسه ـ ما علاقة فلوبير بالأدب البرتغالي في الخمسينات؟

ـ ظاهرياً لا توجد علاقة ـ تابع المحامي ـ لكن ظاهرياً فقط، لأنّ كلّ شيء في الأدب مرتبط بعضه ببعض. انظر، يا عزيزي، إنّه مثل نسيج العنكبوت، هل تتصوّر نسيج العنكبوت؟ حسن، فكّر في كلّ هذه الحبكات المعقدة التي ينسجها العنكبوت، كلّ هذه الدروب تقود إلى المركز، ولا تبدو كذلك إذا ما نُظِرَ إليها من الأطراف، لكنّها جميعاً تقود إلى المركز، سأعطيك مثلاً، كيف تستطيع أن تفهم *التربية العاطفية*، هذه الرواية الرهيبة جدّاً والرجعية جدّاً لأنّه وبحسب لوكاتش رجعيّة بشكل رهيب، إذا لم تعرف هذه الروايات الصغيرة سيئة الذوق، لهذه المرحلة سيئة الذوق والرهيبة التي شكّلت الإمبراطورية الثانية متبعاً الروابط المناسبة، إذا كنت تجهل اكتئاب فلوبير، لأنّه، هل تدري؟ عندما حبس فلوبير نفسه في بيته في كرواسِت يتجسّسُ على العالم من وراء نافذته، كان مكتئباً بشكل رهيب وكل ذلك ، حتى ولو لم ترَ ذلك، فإنّه يشكّل نسيج عنكبوت، نظاماً مبنياً على علاقاتٍ خفيّة ، وعلاقات كوكبية، ومراسلات لا تُفهم. إذا أردت أن تدرس الأدب تعلّم هذا على الأقل، دراسة المراسلات.

نظر إليه فيرمينو وحاول أن يردّ. شعر من جديد بذلك الشعور الغريب واللامعقول بالذنب الذي أحدثه عنده صاحبُ المطعم حين وصف له صحن اليوم.

ـ أحاول أن أهتمّ بتواضع بأدب الخمسينات البرتغالي ـ أجاب ـ دون أن يصعد إلى رأسي.

ـ موافق ـ أجاب المحامي ـ دعه لا يصعد إلى رأسك، لكن عليك أن تتشبّع بتلك السنوات، كما يمكن أن تعلّمك رواية رائعة من روايات واحد من كتّابنا، استطاع أن يصف رقابة الشرطة السياسية مستخدماً تقارير الطقس في الصحف؟ هل تعرف إلامَ أشير؟

لم يرد فيرمينو وقام بحركة خفيفة من رأسه.

ـ حسن ـ قال المحامي ـ أتركه لك كفكرة لبحث محتمل، تذكّرْ، حتى تقارير الطقس يمكن أن تكون مفيدة، حتى لو اتخذت مجازاً كدليل، دون الوقوع في علم اجتماع الأدب، هل تفهمني؟

ـ أظنّ ذلك ـ قال فيرمينو.

ـ علم اجتماع الأدب ـ كرّر المحامي بانزعاج ـ نحن نعيش زمن البرابرة.

قام بحركة من سينهض فنهض فيرمينو قبله بسرعة.

ـ ضعه كلّه على حسابي، يا مانوِل ـ صاح المحامي بصاحب المطعم ـ فضيفنا أعجبه الطعام.

اتجها إلى المَخرج. توقّف المحامي على العتبة.

ـ سأعلمك بشيء عن موقف تورّس هذه الليلة ـ قال ـ سأرسل إليك برسالة إلى نزل السيّدة روسا. لكن المهم أن تجري معه المقابلة غداً بالتحديد وأن تُخرج صحيفتك عدداً خاصّاً آخر، ذلك أنكم تخرجون طبعات خاصّة كثيرة عن هذا الرأس المقطوع، مفهوم؟

ـ مفهوم ـ أجاب فيرمينو ـ اعتمد عليّ.

خرجا إلى نور ظهيرة أوبورتو. كانت الشوارع تضجّ بالحركة

والحرّ رطباً وشيء من غشاوة ضبابية يمحو معالم المدينة. مرّر المحامي منديله على جبينه وقام بحركة وداع سريعة.

ـ أكلتُ أكثر من اللازم ـ دمدم ـ أكلت أكثر من اللازم كما هو الحال دائماً. بالمناسبة هل تعرف كيف مات بها بها هولدرلن.

نظر فيرمينو إليه دون أن يتمكن من الردّ. لم يكن باستطاعته في تلك اللحظة تذكّرَ الكيفية التي مات بها هولدرلن.

ـ مات مجنوناً ـ قال المحامي ـ هذا شيء يجب أن يؤخَذ بعين الاعتبار.

ابتعد وهو يتمايل بخطوات مترنّحة بجسده الهائل.

13

«لئونِل تورّس ، ستّ وعشرون سنة، بلا سوابق جنائية، متزوّج وله طفل في التاسعة من عمره، مواليد براغا، يسكن في أوبورتو، صديق داماسِتِنو مونتِيْرو. كانا معاً ليلة الجريمة: وقد قدّم إفادته أمام القضاة المكلّفين بمتابعة الجريمة. قَبِلَ بمنح مقابلة لصحيفتنا حصراً. تأكيداته تفتح فصلاً جديداً في قصّة هذه القضية الغامضة وتلقي بظلال مقلقة على عمل الشرطة عندنا. من مبعوثنا الخاص في أوبورتو.

ـ كيف تعرّفت على داماسِتِنو مونتِيْرو؟

ـ تعرّفت عليه حين انتقلت أسرتي إلى أوبورتو وعمري اثنا عشر عاماً، كان والداه يعيشان آنذاك في لاريبِيْرا. لكن ليس في البيت الذي يعيشون فيه الآن، وأبوه يعمل صانع سلال ويكسب عيشه جيّداً.

ـ نعرف أنّكما كنتما في الأشهر الأخيرة متلازمين جدّاً.

ـ كان يمرّ بصعوبات وكثيراً ما يذهب ليتناول الغداء والعشاء في بيتي. لم يكن معه من النقود إلا القليل.

ـ ومع ذلك عثر على عملٍ قبل وقتٍ قصير.

ـ تعاقدوا معه كعامل خدمة في *Stones of Portugal* «حجارة

البرتغال»، شركة استيراد وتصدير غابا، وكان أكثر ما يهتمّ بالمستودعات.

ـ وما الشيء غير الطبيعي، لنقله بهذه الصيغة، الذي اكتشفه في عمله؟

ـ حسن، تصل إلى المستودعات، حيث توجد مواد إلكترونية، صناديق مخدرات، مغلّفة بالبلاستيك ومحمية بالغليسيرين.

ـ تعتقد إذن أنّ داماسڤنو مونتيْرو كان يعرف أكثر من اللازم؟

ـ لا اعتقد بل أجزم.

ـ هل يمكن أن توضّح بشكلٍ أفضل؟

ـ انتبه داماسڤنو إلى أنّ الركيزة هو الحارس الليلي، ذلك العجوز الذي مات منذ أيّام قليلة. طبعاً الشركة لم تكن تعلم أيّ شيء عن التجارة، لكنّ الحارسُ كان مرتبطاً مع تجّار من هونغ كونغ، من حيث كانت ترسل الحاويات. كان يتلقى الصناديقَ ويوزّعها في أوبورتو.

ـ بأيّ نوع من المخدرات يتعلّق الأمر؟

ـ بالهيروئين النقي.

ـ وإلى أين كان ينتهي به الأمر؟

ـ كان الجدجد الأخضر يمر ليأخذ الصناديق.

ـ عفواً من يكون الجدجد الأخضر؟

ـ إنّه رقيب في القسم المحلي من الحرس الوطني.

ـ ما اسمه؟

ـ تيتانيو سيلفا، الملقب بالجدجد الأخضر.

ـ ولماذا ينادونه بالجدجد الأخضر؟

ـ لأنّه حين يثور يتلعثم وينطّ مثل جدجد ولونه ضارب للخضرة.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ عمل داماسثِنو قبل أشهر كهربائياً في البوربولِتا الليليّة، وهو محل تعود ملكيته إلى الجدجد الأخضر، لكنّه سجّله باسم ابن حميه. هناك توزّع جميع مخدرات أوبورتو. فالتجار يذهبون لشرائها من هناك ثم يوزعونها بين الجِمال.

ـ الجِمال؟

ـ تجار المخدرات الصغار، الذين يتعاملون مع المدمنين في الشوارع.

ـ وما الذي توصّل السيّد مونتِيْرو إلى معرفته؟

ـ لا شيء، فهم أنّ الجدجد الأخضر يتلقّى الهيروئين من هونغ كونغ عبر شركة استيراد وتصدير. ربّما اكتشف السر، من يدري؟ المسألة أنّه جعلهم يتعاقدون معه بعد فترة في *Stones of Portugal* *«حجارة البرتغال»*، التي تصل المخدرات من آسيا في حاوياتها وفهم أنَ الركيزة هو الحارس الليلي.

ـ الذي مات كما يبدو بالسكتة.

ـ نعم، عانى العجوز من سكتة دماغية فَشَرّع الأربعة. الفرصة لا يمكن أن تكون أكثر مناسبة، فمالك الشركة كان في الخارج وأمينة السر في إجازة والمحاسب أبله.

ـ إذن؟

ـ عندئذٍ، وفي تلك الليلة أي في الليلة التي أصيب فيها العجوز بالسكتة الدماغية، جاء داماسثِنو إلى بيتي وقال لي إنّ حظّه اقترن بنجمه، أي أنّها ستكون ضربة العمرِ، نستطيع بعدها الذهاب إلى ريو دِ جانِيْرو.

ـ بأيّ معنى؟

ـ بمعنى أنّ الحاويات وصلت من هونغ كونغ محمّلة بالبضاعة، كما كان يعرف داماسثِنو مونتِيْرو، ونظراً لأنّ الجدجد الأخضر وعصابته لن يمرّوا إلا في اليوم التالي، الذي هو اليوم المتفق عليه مع الحارس الليليّ، سنخيّب آمالهم ونأخذ الحمولة كلّها.

ـ وكيف كانت ردّة فعلك؟

ـ قلت له إنّه مجنون لأنّنا لو لعبنا هذه اللعبة مع الجدجد الأخضر فسيصفّينا. ثمّ بحقّ الشيطان أين سنضع كلّ تلك البضاعة؟

ـ وبماذا أجاب مونتيّرو؟

ـ قال إنّه سيأخذ البيع على عاتقه، فهو يعرف قاعدة جيّدة في ألْغَرْبِ من حيث تمرّ البضاعة إلى إسبانيا وفرنسا وإنّها كانت ملايين بالقفف.

ـ وماذا بعد؟

ـ قلت له إنّني لن أذهب معه في تلك الليلة فعندي امرأة وطفل صغير ويكفيني راتب الورشة، لكنّه قال لي إنّه غاطس في الخراء حتى عنقه ووالده يتناول أنتابوس ويتقيّأ طوال الليل وما عاد يتحمّل تلك الحياة، ويريد أن يذهب ليعيش في كوباكابانا وبما أنّه لا يملك سيارة وأملكها أنا فعليّ أن أرافقه.

ـ وهكذا رافقته.

ـ بلى رافقته وللحقيقة أنّني دخلتُ معه إلى الفناء، وقمت بذلك بإرادتي دون أن يجبرني هو بأيّ شكلٍ من الأشكال، لأنّني كنت أكره البقاء خلف الشبك بينما يذهب هو وحده ليقوم بذلك العمل الخطير.

ـ عفواً، بقولك هذا بهذه الطريقة تبدو شهماً عظيماً. لكن ألا يمكن أن تكون قد فكّرت في تلك اللحظة بالملايين التي يمكنك أن تكسبها من تلك السرقة؟

ـ محتمل، أنا صريح معك. هل تعلم بأنني أعمل طوال النهار كميكانيكي كهرباء وأجني شيئاً بائساً فبيتي قبو حاولت زوجتي أن ترتّبه بوضع ستائر مزهرة، لكنّه رطب جدّاً في الشتاء والجدران تنزّ إنّه جوّ غير صحي. وأنا عندي طفل ابن أشهر قليلة.

ـ وكيف جرت الأمور مع صديقك مونتيّرو.

ـ أشعل مصابيح المكتب كما لو أنّه صاحب الشركة وقال لي لا تتحرّك، فهو يأخذ على عاتقه بقية الأمور. وهكذا لم أتحرّك ولم أشارك في السرقة. بحث في الأدراج عن شيفرة فتح الحاويات وخرج إلى الفناء. جلستُ في المكتب، كنت انتظر ولا أعرف ماذا أفعل. وهكذا فكّرت أن أقوم بمكالمة هاتفية مجانية إلى غلاسكو.

ـ عفواً رحت تهتف إلى غلاسكو من مكتب *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*»؟

ـ بلى، لأنّ لي أختاً هاجرت إلى غلاسكو ولا أعرف عنها شيئاً منذ خمسة أشهر. هل تعلم؟ إن المكاملة الهاتفية إلى غلاسكو تكلّف كثيراً وأختي عندها طفلة منغولية تسبب لها مشاكل كثيرة.

ـ تابع من فضلك.

ـ وبينما كنت أهتف سمعت ضجة سيارة، فعلّقت الهاتف ودخلت إلى غرفة قبيحة ذات باب سحاب يخبئون فيها المروحة. في تلك اللحظة دخل داماسِّنو من باب الفناء ودخل الجدجد الأخضر من الباب الرئيسي مع عصابته.

ـ ماذا تعني بقولك «مع عصابته»؟

ـ كان معه شرطيان من الحرس الوطني يرافقانه دائماً.

ـ هل عرفتهما؟

ـ واحد منهما، يُدعى كوستا، له كرش مفرط لأنّه مصاب بالتليف الكبدي. أما الآخر فلا أعرفه، كان فتى شاباً، ربّما مستجدّاً.

ـ وماذا حدث؟

ـ كان داماسِّنو يحمل في يده أربعة صناديق مخدرات ملفوفة بالبلاستيك. انتبه إلى أنّني اختفيت فواجه الجدجدَ الأخضر.

ـ والرقيب ماذا فعل؟

ـ الرقيب راح يقفز على هذه الساق وتلك كما يحدث معه حين

يصاب بأزمة عصبية، راح بعدها يتلعثم لأنّه كما قلت لك حين يصبح عصبياً يتلعثم ولا يتمكن من لفظ كلمة واحدة بالمسيحية.

ـ وعندئذٍ؟

ـ راح يتلعثم وقال: يا ابن العاهرة، هذا الخراء لي. كنتُ أتجسّس عليهم من فجوة الغرفة. أخذ الجدجد الأخضر الصناديق وقام بما لا يمكن تصوّره.

ـ ماذا فعل؟

ـ فتح بسكين آلية واحدة منها على شكل قنال ونثر محتواها على رأس داماسِئِنو. قال: الآن أعمدك يا ابن العاهرة، ألا ترى؟ كانت قيمته بالملايين، بالملايين.

ـ وماذا بعد؟

ـ غطّى المسحوق داماسِئِنو كما لو أنّها أثلجت فوقه، وكان الجدجد عصبياً حقّاً، يقفز من جانب إلى آخر مثل شيطان، برأيي إنه كان ممخمخ.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ كان ممخمخاً. فالجدجد يبيع المخدرات لكنّه يتناولها أيضاً من حينٍ إلى آخر فيصبح ثقيلاً بالطريقة ذاتها التي يوجد فيها أناس يعكّرهم الشراب، وأراد أن يقضي على داماسِئِنو هناك بالذات.

ـ وضّحْ أكثر: بأيّ معنى أراد أن يقضي على داماسِئِنو؟

ـ أخرج الجدجدُ مسدّسه من غمده. فقد صوابه، كان يصوّبه إلى دماغ داماسِئِنو ثم يسنده إلى كرشه ويصرخ: سأقتلك، يا ابن العاهرة.

ـ وهل أطلق النار؟

ـ بلى أطلق النار، لكنّ الطلقة ذهبت في الهواء وانتهت إلى السقف، إذا ذهبت لرؤية مكاتب *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*»

ستجد بالتأكيد ثقباً في السقف، لم يقتله لأنّ رفيقيه تدخّلا وحرفا الطلقة فأعاد المسدس من جديد إلى غمده.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ اقتنع الجدجد بأنّه لا يستطيع قتله هناك، لكن كان واضحاً أنّه لم يهدأ. فقد رفس داماسِثِنو على خصيتيه مما جعله ينطوي نصفين، ثمّ رفسه بركبته على وجهه تماماً كما في الأفلام وراح يرفسه ويرفسه قال بعدها لعنصرَي عصابته أن يحملاه إلى السيارة ويصفيا حسابهما معه في القسم.

ـ وصناديق المخدرات؟

ـ وضعوها في سترات صيدهم وأدخلوا داماسِثِنو في السيارة وانطلقوا باتجاه أوبورتو. كانوا جيمعاً مهتاجين مثل حيوانات شمّت رائحة الدم.

ـ هل تريد قول شيءٍ آخر؟

ـ تصوّر البقيّة. في صباح اليوم التالي جثّة داماسثنو في منطقة مليئة بالقمامة مقطوعة الرأس كما نعرف. والآن جاء دوري كي أسألك: ماذا تستخلص من هذا؟

هذا هو السؤال الذي يوجّهه الآن مبعوثنا إلى جميع القرّاء»

14

كان نزلُ السيّدة روسا هادئاً في تلك الساعات. فالزبائن القليلون لم يكونوا قد عادوا بعد. والتلفزيون بصوته المنخفض يبثّ برنامجاً عن الغرائب قبل الأخبار.

ـ لنرَ ما إذا كانت الأخبار ستقول شيئاً حول الموضوع ـ تمتم المحامي.

كان يجلس بكرشه المدلوق في واحدة من الكراسي المغطاة بالفلين في صالة السيّدة روسا الصغيرة، يشرب ماءً ويجفّف جبينه بالمنديل. فهو قد وصل توّاً وجلس صامتاً. جاءته السيّدة روسا بزجاجة مياه معدنية غازية دون أن تسأله.

ـ أنا قادم من مكاتب النائب. ـ أضاف ـ لقد قاموا بالاستجوابات الأوّلية.

لم يقل فيرمينو شيئاً. والسيّدة روسا تسوّي هنا وهناك وسائد الكراسي كأنّها في مكانٍ آخر.

ـ هل تعتقد أن النشرة الأخبارية ستتكلّم عن الموضوع؟ ـ ألحّ المحامي.

ـ أظنّ ذلك ـ أجاب فيرمينو ـ لكن سنرى كيف تفعل ذلك.

تحدّث التلفزيون عن الموضوع في البداية. كان خبراً إعلامياً يتناول في الحقيقة ما جمعته الصحافة وبخاصّة مقابلة *الحوادث* مع

تورِّس، منبهاً إلى أنّه لا يستطيع أن يقول أكثر لأنّه صدر أمرٌ بإحاطة المحضر بالسرّية. في الاستوديو كان هناك عالم الاجتماع الأخير الذي قام بتحليل العنف في أوروبا، تحدّث عن الفيلم الأمريكي الذي يظهر فيه رجل مقطوع الرأس ووصل إلى نتائج تكاد تكون تحليلية نفسية.

ـ لكن ما علاقة كلّ هذا؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ بلاهات ـ علّق المحامي بإيجاز ـ هاأنت تراهم يلجؤون إلى سرّية المحضر. ماذا تقول عن دعوتك لي إلى العشاء؟ فأنا بحاجة فعلية للاسترخاء.

توجّه إلى السيّدة روسا.

ـ يا سيّدة روسا، ما الذي يقدّمه لنا البيت هذه الليلة؟

عدّدت السيدة روسا صحون اليوم. لم يدلِ المحامي بأيّ تعليق، لكنه بدا راضياً لأنّه نهض ودعا فيرمينو للحاق به. كان المطعم مايزال في العتمة فأشعل المحامي الأنوار كما لو أنّه سيّد المكان واختار الطاولة التي أراد.

ـ إذا زادت عنك نصف زجاجة نبيذ عن الغداء ـ قال فيرمينو ـ فقل للسيّدة روسا أن ترمي بها فأنا لا أتحمّل أنصاف الزجاجات وهي كما اعتادوا في بعض النُزُل تسبّب لي الكآبة.

كانت الطباخة قد أعدّت في تلك الليلة البندق (كرات من اللحم المفروم) في مرق البندورة وصحناً أوّلاً من حساء الملفوف. وصلت الخادمة ذات الشوارب ومعها الحساء المتصاعد منه البخار فأمرها المحامي بأن تتركه على الطاولة، وكأنّه يتخذ احتياطاته.

ـ كنت تتحدّث عن سرّية الملف ـ قال فيرمينو لمجرّد القول.

ـ نعم ـ انفجر المحامي ـ سرّية التقرير، أحبّ أن أتحدّث معك عن سرّيّة التقرير لكنّ هذا سيقودنا لا محالة إلى موضوع محرج وربّما ممل جدّاً وأنا لا أريد أن أسبِّب لك الملل.

ـ لا تسبّبُ لي الملل على الإطلاق ـ أجاب فيرمينو.

- ألا ترى أنّ الحساء مَرِق أكثر من اللازم؟ - سأل المحامي - أنّا أحبّه أكثر كثافة، فالبطاطا والبصل هما سرّ حساء الملفوف الجيّد.

- على كلّ الأحوال أنت لا تسبّب لي الملل أبداً - أجاب فيرمينو - إذا أردت أن تتكلّم عن الموضوع فافعل مطمئناً فأنا كلّي آذان صاغية.

- أضعت الخطّ - قال المحامي.

- قلت لي إنّ موضوعٍ سرّية التقرير سيقود لا محالة إلى موضوع آخر أكثر مللاً - لخّص فيرمينو.

- آه، صحيح - تمتم المحامي.

جاءت الخادمة بصينية كرات اللحم وشرعت تصبّها لهما. جعلها المحامي تغطيها له بكميّة وافرة من مرق البندورة.

- الأخلاق - قال المحامي وهو يهرس كرة لحم في المرق.

- الأخلاق، بأيّ معنى؟ - سأل فيرمينو.

- سرّية التقرير- أخلاق المهنة - أجاب المحامي - ثنائيان متلازمان، على الأقل ظاهرياً.

أفلتت منه كرة اللحم التي حاول قطعها بالسكين ونطّت خارج الصحن لتنتهي إلى قميصه. كانت الخادمة تراقب المشهد فهرعت نحوه لكنّ المحامي أوقفها بإيماءة باتّة.

- كرة اللحم - القميص - قال - هذه أيضاً ثنائية، على الأقل فيما يتعلّق بي. لا أدري ما إذا انتبهت إلى أنّ العالم ثنائيٌّ ، فالطبيعة تقوم على بنىً ثنائية، أو على الأقل حضارتنا الغربية، التي قامت بوضع كلّ التصنيفات، فكّر بالقرن الثامن عشر، في الطبيعيين، لا أدري ، بلينيو، لكن كيف نناقضهم إذا كانت في الواقع هذه الكرة البائسة التي تدور في الفضاء ونبحر نحن فوقها تخضع تماماً لنظام أساسي كالنظام الثنائي؟ ما رأيك؟

ـ صحيح ـ أجاب فيرمينو ـ إما ذكر أو أنثى، وإذا ما بسّطنا الأمور فهذا هو النظام الذي تسميه أنت ثنائياً.

ـ هذا هو المعنى ـ أكّدَ المحامي ـ الذي تتفرّع عنه أيضاً الحقيقة والكذب، مثلاً وهنا نحتاج لحديث ممل فعلاً وأنا لا أتطلّع كما قلتُ لك لملك، الحقيقة أو الكذب، اعذرني على تحليقاتي البندارية، لكن صارت هذه الآن أخلاقاً وبالطبع مشكلة الحقوق، لكنّني لن أتكلّم الآن بأطروحات سفسطائية، ليس الأمر بمستحق المعاناة.

زفر كما لو أنّه منزعج، لكنّه بدا منزعجاً بشكلٍ خاصّ من نفسه.

ـ هل تعتقد أن الكون ثنائيّ؟ ـ أفلتَ فجأة.

نظر إليه فيرمينو بارتباك.

ـ بأيّ معنى؟ ـ سأل.

ـ إذا كان ثنائيّاً مثل الأرض ـ كرّر المحامي ـ برأيك هل هو ثنائي مثل الأرض؟

لم يعرف فيرمينو بماذا يجيب، لذلك قرّر أن يقلب السؤال.

ـ ماذا تعتقد أنت؟

ـ لا أعتقد ـ أجاب المحامي ـ آمل ألا يكون كذلك، يعني، آمل ألا يكون كذلك.

أومأ إلى الخادمة مشيراً إلى أنّ الكأسَ فارغ.

ـ إنّه مجرّد أمل ـ قال ـ أمل للنوع البشري، الذي ننتمي إليه، لكنّه في الأعماق لا يؤثر علينا مباشرة لأننا لا أنا ولا أنت سنعيش ما يكفي كي نعرف كيف هي المرأة المسلسلة، مثلاً وماذا يحدث في تلك المنازل . لكن فكّر بكلّ علماء الناسا، أو الأشياء المشابهة، الذين يبذلون جهدهم كي يستطيع المتحدرون منّا خلال قرن أو قرنين الوصول إلى تلك الأماكن التي تسمّى بتخوم نظامنا الشمسيّ، وتصوّر وجوه أعقابنا المساكين هؤلاء حين ينزلون بعد رحلة

طويلة من سفينتهم الفضائية ويجدون أنفسهم أمام بنية ثنائية جميلة: ذكر أو أنثى، صدق أو كذب وربّما أيضا فضيلة ورذيلة، تصوّر، لأنّ للنظام الثنائي، حتى ولو لم يتوقّعوه، كاهنُهُ أيضاً، كاثوليكيّ أو من أيّة ديانة أخرى، يقول لهم: هذا خطيئة وذاك فضيلة. ماذا؟ هل تتصوّر وجوههم عندئذٍ؟

أخذت فيرمينو رغبةٌ بالضحك، لكنّه اقتصر على الابتسام.

ـ أيّها المحامي ـ قال ـ أعتقد أن الخيال العلمي لم يفكّر بعد بهذه الفرضيّة، فأنا أقرأ كتباً كثيرةً عن الخيال العلمي وأظنّني لم أعثر على مشكلة مثل هذه.

ـ آهْ ـ قال المحامي ـ لم أفكّر أنّك تحبّ الخيال العلمي.

ـ يعجبني جدّاً ـ أجاب فيرمينو ـ إنه يشكل قراءتي المفضّلة.

سعل المحامي سعالاً صغيراً بدا ضحكةً.

ـ حسن، حسن ـ تمتم ـ وما علاقة لوكاتشكَ بهذه القراءات؟

شعر فيرمينو بأنه يحمر خجلاً. بدا له أنّه وقع في مكيدة فقام بردّة فعلٍ تنطوي على بعض الافتخار.

ـ لوكاتش يفيدني لدراسة الأدب البرتغالي بعد الحرب ـ أجاب ـ والخيال العلمي ينتمي إلى الخيال.

ـ هنا أريد أن أراك ـ ردّ المحامي ـ في الخيال ، إنّها كلمة جميلة بل ومفهوم نتفكّر به، تفكّر به إذا كان عندك وقت. بالنسبة إليّ كنتُ أهيم بخيالي في الحلوى التي أعدّتها السيّدة روسا هذه الليلة، إنّه فلان بالكراميلا، لكن ربّما كان من الأفضل أن أتنازل عنه، رشفة أخيرة وأذهب إلى فراشي لأنّ يوم عملي انتهى، وربّما استمرّ يومك معطياً ثماره.

ـ سأعمل ما باستطاعتي ـ قال فيرمينو ـ مثلا؟

ـ مثلاً خطفة قدم إلى البوتشيني بترفلاي، فهو مكان يمكن أن يقدّم لك أخباراً مهمّةً لكن فقط هذا، إلقاء نظرة.

جرع كأسَ نبيذه وأشعل واحداً من سيجاراته العملاقة.

ـ مثلاً خطفة قدمٍ حذرة ـ تابع بينما عود الثقاب يحترق بين أصابعه ـ مثلا ما نوعُ الناس و المستخدمين، ما إذا كان الجدجد الأخضر هناك، لأنّهم قالوا لي إنَّ له مكتباً في هذا المحل، أربع كلمات معه يمكن أن تكون مهمّة، يجب أن تكون من عمل الشرطة، لكن هل تتصوّر الشرطة في البوتشيني بترفلاي؟

ـ لا، لا أتصوّرها ـ أكّد فيرمينو.

ـ بالضبط ـ وضّح المحامي ـ لا أريدك أن تشعر بنفسك فيليب مارلو، لكننا نستطيع محاولة معرفة شيء هامشي عن الجدجد الأخضر، ربّما جنايات صغيرة، لكن هل تعرف ماذا يقول دِ كينثيْ؟

ـ ماذا يقول؟

ـ يقول: إذا قرّر إنسانٌ ذات يومٍ أن يقتل، فسرعان ما سيتوصّل إلى اعتبار السرقة شيئاً غير ذيٍ أهمية، من هنا سينتقل إلى المشروب وعدم مراقبة الاحتفالات السرية، وبعدها إلى عدم احترام الالتزامات، وما إن يدخل في هذا المنحدر حتى لا يعود يعرف إلى أين سينتهي، وكثيرون هم من يدينون بخرابهم إلى هذه الجريمة أو تلك، التي لم يولوها أهميّة في لحظتها. نهاية الاقتباس.

سُرّ المحامي من نفسه وأضاف:

ـ عزيزي الشاب، لا أريدُ، كما قلتُ، أن أسبّب لك الملل، لكن لنفترض أنّني، أنا الذي كنتُ أحدّثك عن الأخلاق المهنية، احتجت لمساعدة من أجل تمزيق ـ لنقله كذلك ـ حجاب الجهل. لن أطيل، إنّه تعريف قانوني أمريكي، خطاب نظري خالص موجود في نوع من كهف أفلاطون. لكن لنفترض أنّني بتهويماتي الخيالية أنزلت هذا المفهوم إلى مستوى عمليّ خالصٍ، لنقل عملي، الأمر الذي ما من نظريّ في الحقوق سيغفره لي، ولنفترض أنّه لا يعنيني قيد أنملة، فأنت بماذا ستفكّر؟

ـ أنّ الغاية تبرّر الوسيلة ـ أجاب فيرمينو بسرعة.

ـ ليست هذه بالضبط نتيجتي ـ أجاب المحامي ـ ولا تعد لتكرار هذه الجملة، أكرهها، فالبشرية ارتكبت بهذه الجملة أسوأ الفظائع، لنقل فقط إنّني أستغلك بقلّة حياء، أي صحيفتك، هل هذا واضح؟

ـ واضح جدّاً ـ ردّ فيرمينو.

ـ ولنقل إنّني أستطيع دائماً تبرير ذلك لنفسي من خلال بعض تعريفات نظرية الحقوق، أستطيع أن أؤكّد، لكن ليس دون كلبية، أنّني أنتمي إلى المدرسة المسماة بالمفهوم الحدسي، لكن لا، من الأفضل أن نسميها عمل الخيال الاعتباطي، هل يعجبك هذا التعريف؟

ـ نعم يعجبني ـ قَبِل فيرمينو.

ـ وهكذا وبعمل من الخيال الاعتباطي، نستطيع العودة وربط هذا بعبارة دِ كينثي المتناقضة، أي: وبما أنّني أملك الإحساس الكامل بأنه لن يكون من السهل البرهان على أنّ الجدجد الأخضر يقطع رؤوساً غريبة بسكاكين إلكترونية، فإنّنا سنحاول أن نبرهن أنّه يسيء السلوكَ في المجتمع، ما أدراني، إنّه يكسر الصحون على رأس زوجته في البيت، هل أوضحت؟

ـ تماماً ـ أجاب فيرمينو.

بدا المحامي راضياً. استند إلى ظهر الكرسي. في بؤبؤيه المتحرّكين لاح تعبير حالم.

ـ وربّما في هذا المستوى ندخل لوكاتشك ـ أضاف.

ـ لوكاتش؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ مبدأ الواقع ـ أجاب المُحامي ـ مبدأ الواقع،لا يفاجئني على الرغم من أنّ كلّ شيء يعودَ عليك بالفائدة هذه الليلة. والآن من الأفضل لك أن تذهب أيّها الشاب، يبدو لي إنّها أفضل ساعة بالنسبة لمكان مثل البوتشيني بترفلاي، بعدها تحكي لي طبعاً كلّ شيء بتفاصيله ودقائقه، لكنّني أنصحك: أَوْلِ أهميةً لمبدأ الواقع، أعتقد أنه يمكن أن يفيدك.

15

شارع مونتيفيديو العريض الذي يلتقي بشارع البرازيل شارعُ نزهةٍ بحريَ طويل جدّاً، أطول مما تصور فيرمينو بكثير ولم يبق أمامه إلاّ أن يقطعه للوصول إلى المحل. فهو لم يعرف في أيّ مكان ومستوى موجود. كانت تجري نسمة محيطية جميلة تجعل أعلامَ فندق كبير ترفرف. كان شارع النزهة البحرية في البداية مزدحماً بالناس، خاصة بالعائلات التي تملأ شرفات محلات المثلجات، حيث يلعق الأطفال الميتون من النعاس بتعبٍ مثلجاتهم. فكّر فيرمينو بأنّ أهل بلده يرسلون أطفالهم متأخرين أكثر من اللازم إلى السرير وربّما عندهم أطفال أكثر من اللازم أيضاً. ثمّ همس لنفسه: هلوسات بلهاء. لاحظ أنّ منطقة البداية المزدحمة والشعبية راحت تتحوّل تدريجيّاً إلى منطقة معزولة وأرستقراطية، تتكون من فيلّات بسيطة وبنايات من بداية القرن بشرفاتٍ ودرابزونات من حديدٍ مشغولٍ وزخارف من جصّ. كان المحيط هائجاً والأمواج العنيفة تتحطّم على مصدات الأمواج.

كان البوتشيني بترفلاي يشغل بناءً كاملاً من أبنية العشرينات بحسب ما بدا لفيرمينو فجأة، أبنية المدرسة المعمارية الحديثة الجميلة بأفاريز من الزليج الأخضر وشرفات مسقوفة مثلثياً على الطراز المانولِي. على شرفة الطابق الأوّل لافتة بنفسجية من النيون والحلي الحلزونية الروكوكية، تقول الـ «بوتشيني بترفلاي» وفوق

كلّ واحد من أبواب المحل الثلاثة كتابة أكثر حشمة تدل على مطعم بترفلاي، ونادي بترفلاي الليلي وديسكوتيك بترفلاي. مدخل الديسكوتيك هو الوحيد الخالي من السجاد الأحمر. بينما كان المدخلان الآخران مغطيين به ويقوم على كلٍّ منهما بوّابٌ أنيق اللباس إلى حدّ ما. فكّر فيرمينو ربّما لم تكن الديسكوتيك هي المكان الأنسب. لا شكّ أنّه لا يستطيع التحدّث فيها بأضوائها التي تذهب بالعقل وموسيقاها المصمّة. وفي المطعم لا يعرف ماذا يفعل: فقد اكتفى في تلك الليلة من كرات اللحم. لم يبق أمامه إلا النادي الليلي. فتح له البواب البابَ وقام بحركة احترام غير محسوسة. كان النور ضارباً إلى الزرقة، وهناك شخص يقظ، يشبه عامل تأثيرات مسرحية ينتظر الممثلَ خلف الستار،إلاّ أن صوته منفّر قليلاً، همسَ له:

ـ أهلاً بك، يا سيّد، هل حجزت؟

إنّه المعلّم. تجاوز الخمسين، يرتدي بدلة سموكينغ تامّة، شعره الرمادي بدا تحت النور الأزرق أزرقَ وابتسامته جليلة مصطنعة.

ـ لا ـ أجابه فيرمينو ـ الحقيقة أنّني نسيت.

ـ لا همّ ـ همس المعلم ـ لك عندي طاولة جيّدة، رافقني أرجوك.

تبعه فيرمينو. قدّر أنّ هناك ما يقارب الثلاثين طاولة، تكاد جميعها تكون مشغولة. زبائن متوسطو الأعمار، سيدات بَدَيْنَ له بشكلٍ خاص أنيقات كفاية، الرجال بملابس أقرب إلى الرياضية، يرتدون سترات أمريكية من الكتان أو ببساطة قمصاناً قصيرة الأكمام. في عمق المحل حلبة صغيرة مقدّمتها من الطراز الباروكي، مقفرة. كان واضحاً أنّهم في استراحة وفي القاعة المدهونة بالأزرق تطفو موسيقى بدا لفيرمينو أنّه عرفها. رفع إصبعه إلى أذنه بحركة متسائلة فهمس المعلّم:

ـ بوتشيني، يا سيّد. هل تعجبك هذه الطاولة؟

كانت طاولة غير قريبة جدّاً من الحلبة لكنّها ملتصقة بالجدار مما يمنحه إمكانية مراقبة القاعة كلها.

ـ هل تناول السيّد عشاءه أم آتيه باللائحة؟ ـ سأل المعلّم.

ـ أيضاً يمكن العشاء هنا؟ ـ سأل فيرمينو ـ كنتُ أظنّ المطعم قريب من هنا.

ـ فقط مازة ـ أجاب المعلّم ـ صحون صغيرة.

ـ مثلاً؟

ـ سمك السيف المدخن، صحون قريديس باردة، أشياء من هذا القبيل، لكن ألا تفضل أن آتيك باللائحة؟ أم تفضّل بعض الشراب فقط؟

ـ صهٍ ـ أجاب فيرمينو بشرود ـ بماذا تنصحني؟

ـ كي لا أخطئ أستطيع أن أقول كأساً جيّداً من الشامبانيا، وإن كان للبداية فقط ـ أجاب المعلّم.

فكّر فيرمينو أنّ عليه أن يهتف بأسرع ما يمكن للمدير ليرسل إليه حوالة بريدية، فسلة النفقات انتهت ويعيش على ما يقترضه من السيّدة روسا.

ـ طيّب ـ أجاب بفتور ـ ليكن شامبانيا، لكن من أفضل نوع.

ابتعد المعلّم على رؤوس قدميه، توقّفت الموسيقى البوتشينية، وانخفضت كثافة الأنوار وأضاء عاكسُ الحلبة، بؤرة زرقاء طبعاً. انبثقت من البؤرة فتاة شابة وجميلة جمعت شعرها في قرص وراحت تغنّي. تغني دون موسيقى مرافقة، الكلمات برتغالية لكن النغمة من نوع *البلو* ولم ينتبه فيرمينو إلا بعد برهة إلى أنّها كانت فادو من كويمبرا تغنيها الفتاة كأنّها مقطوعة جاز. جاء النادل بكأس الشامبانيا، وضعه على الطاولة. شرب فيرمينو جرعة. ليست المسألة أنّه يفهم كثيراً بالشامبانيا، لكنّ تلك الشامبانيا كانت فظيعة، لزجة الحلاوة. نظر حوله. كل شيء وثير وهادئ، الجو ضبابي، النُدل يسيرون بين الطاولات بخطوات كتومة، مكبّر صوت ينقل بشكل مشوّه أغنية لـ ثِسَاريا إيفورا، الزبائن يتحدثون بصوت منخفض. على الطاولة المجاورة سيّد وحيد يدخن سيجاراً بعد آخر وينظر دائماً إلى سطل الثلج مع قنينة الشامبانيا التي أمامه، تلك فعلاً كانت

شامبانيا حقيقية، قال فيرمينو عندما قرأ اسم العلامة الفرنسية المشهورة. انتبه السيّدُ إلى أنَّ فيرمينو ينظر إليه فنظر إليه بدوره. كان في الخمسينات من عمره، يضع نظارة كاري وله شارب مشعث وشعر ضارب للحمرة. يرتدي ملابس رياضية، قميصاً نصفياً خبازيَّ اللون تحت سترة أمريكية من الكتان المجعد. رفع الرجل كأسه بيدٍ غير واثقة نحو فيرمينو شارباً نخبه. رفع فيرمينو كأسه بدورهِ لكنّه لم يشرب. نظر إليه الرجل نظرة تساؤل وقرّب كرسيه.

ـ ألا تشرب؟ ـ سأله.

ـ مشروبي لا يساوي شيئاً ـ أجاب فيرمينو ـ لكنني أنضمّ فكرياً إلى نخبك.

ـ هل تعرف ما هو السرّ ؟ ـ سأل الرجل غامزاً بعينه ـ تطلبُ زجاجة كاملة، بهذا يمكنك أن تبقى مطمئناً. تطلب كأس شامبانيا فيأتونك منه بالوطني ويكلّفك فوق ذلك ثروة باهظة.

صبّ كأساً أخر وشربه كاملاً.

ـ أنا مكتئب ـ همس بصوت وديٍّ ـ أنا مكتئب جدّاً، يا صديقي.

ـ تنهّد تنهيدة عميقة وأسند وجهه إلى يده. كان يعلوه القنوط. همس:

ـ تذهب وتقول لي اكبحها. هكذا فجأة اكبحها. وهذا على طريق غيمارايس، وإذا بدا لك ذلك قليلاً فالطريق مليء بالمنعطفات. أخفف السرعة، أنظر إليها فتقول لي: قلت لك اكبحها. تفتحُ البابَ، تنتزعُ طوقَ اللؤلؤ الذي أهديته إليها صباحاً، ترميه في وجهي، تنزل وتصفق الباب دون أن تقول كلمة واحدة. ألستُ محقّاً في أن أكون مكتئباً.

لم ينبس فيرمينو ببنت شفة، لكنّه قام بإيماءة وكأنّه يوافقه.

ـ خمسة وعشرون عاماً بيني وبينها ـ اعترف الرجل ـ لا أدري ما إذا كنت أوضّح. ألستُ محقّاً في أن أكون مكتئباً.

حاول فيرمينو أن يقول شيئاً، لكنّ الرجلَ تابع من تلقاء نفسه لأنّه مستعجل:

ـ لذلك جئت إلى البوتشيني، إنّه المكان المناسب حين يكون المرء مكتئباً، أليس كذلك؟ المكان المناسب لرفع المعنويات، لا بدّ أنّك تعرف هذا أكثر مني.

ـ طبعاً ـ أجاب فيرمينو ـ أتفهمك تماماً، إنّه المكان الأنسب.

ضرب الرجل زجاجة الشامبانيا ضربة خفيفة ولمس في الوقت ذاته أنفه.

ـ هذا ما نحتاجه ـ قال ـ طبعاً المكان الأفضل هو القاعة الصغيرة.

أشار بسبابته إشارة مبهمة إلى العمق.

ـ آه ـ همس فيرمينو ـ القاعة الصغيرة، صحيح، هي الأفضل.

لمس الرجل أنفه بسبابته من جديد.

ـ إنّها الأفضل وأسعارها مقبولة والحشمة فيها مضمونة، لكنّني قبلك هنا.

ـ هل تعلم ـ قال فيرمينو ـ أنا أيضاً أشعر بشيءٍ من الاكتئاب هذه الليلة، طبعاً أقبل دوري.

أشار ابن الخمسين إلى ستارة من القطيفة بجانب الحلبة تماماً.

ـ لا بوهيم هي بالضبط ما يحتاجه المرء ـ قال مبتسماً من دون رغبة ـ إنّها الموسيقى المثالية لرفع المعنويات وضرب ضربة خفيفة أخرى على أنفه.

نهض فيرمينو بلا اهتمام ظاهري ودار حول القاعة بمحاذاة الجدران. بجانب الستارة التي أشار إليها الخمسيني المكتئب ستارة أخرى عليها علامة «مغاسل» مع صورتي فلاح وفلاحة بالزي المحلي. دخل فيرمينو إلى المغاسل، غسل يديه ونظر إلى نفسه في المرآة. فكّر بنصيحة المحامي له بألاّ يشعر بنفسه فيليب مارلو. بالفعل لم يكن هذا دوره، لكنّ إشارة الخمسيني المكتئب تهمّه. خرج من المغاسل وبالملامح الفاترة ذاتها دخل وراء الستارة الأخرى

التي تنفتح على ممرّ مكسو بالموكيت أرضاً وجدراناً. تقدّم فيرمينو باطمئنان. على اليمين باب مغطى بالفلين وعليه إعلان فضي كتب عليه «لا بوهيم» فتحهُ فيرمينو وأطلّ برأسه على الداخل. كان المكان مقصورة مغطاة بالسجاد الأزرق فيها أنوار مختلطة وأريكة. على الأريكة رجل مسجّى، بدت له الموسيقى بوتشينية، على الرغم من أنّه لم يتمكن من تحديد هويّة الأوبرا التي تنتمي إليها. اقترب فيرمينو من الشخص المسجى على ظهره وضربه ضربات خفيفة على كتفه. لم يتحرّك الرجل. هزّه فيرمينو من أحد كتفيه. يبدو الرجل في حالة غيبوبة عميقة. خرج فيرمينو سريعاً وأغلق الباب.

عاد إلى طاولته. كان الخمسيني ما يزال ينظر بإصرار إلى زجاجة شامبانياه.

ـ يبدو لي أنّ عليك الانتظار قليلاً ـ همس ـ فالقاعة الصغيرة مشغولة.

ـ هل تظنّ ذلك؟ ـ سأل الرجل بلهفة.

ـ أنا متأكّد ـ أجاب فيرمينو ـ ففي الداخل رجل في عالم الأحلام.

قام الخمسيني بحركة قنوط.

ـ لكنّني لا أتأخر أبداً ـ قال ـ دقيقتين، قد أمرّ لحظة بمكتب المدير.

ـ آه، صحيح ـ أجاب فيرمينو.

أشار الخمسيني إلى المعلّم، جرى بينهما حديث سريّ، ابتعدا معاً وهما يسيران بمحاذاة جدران القاعة واختفيا خلف ستارة القطيفة. خفتت الأضواء أطلّت الفتاة التي غنت قبل ذلك البلو على الحلبة، سلّت الجمهور بمزحتين مليحتين واعدة بغناء فادو من الثلاثينات راجية أن ينتظروا قرابة عشر دقائق، لأنّ عازف الفيولا أصيب بوعكة. بقيت عينا فيرمينو عالقتين بستارة الممر. خرج الخمسيني المكتئب منها وعَبَر القاعة بخطوات رشيقة ماراً بين الطاولات. جلس ونظر إلى فيرمينو. لم يعد مكتئباً، فعيناه برّاقتان

وتعلو أساريره الحيوية. قام فيرمينو بإشارة من إبهامه إلى الأعلى وكأنّه طيار يقول أوكي.

ـ تمام؟ ـ سأله فيرمينو.

ـ أصغر مني بخمس وعشرين سنة، لكنّها عاهرة صغيرة ـ همس الرجل ـ كنت بحاجة فقط للحظة تفكير لكي أنتبه لذلك.

ـ لحظة تأمل غالية قليلاً ـ همس فيرمينو بدوره.

ـ مئتا دولار لكن في محلّها ـ قال الرجل ـ فعلاً رخيصة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الحشمة.

ـ بالفعل ليست غالية جدّاً ـ أجاب فيرمينو ـ لكن لسوء حظيّ أنني نسيت الدولارات في البيت.

ـ تيتانيو لا يقبل إلا الدولارات ـ قال الخمسيني ـ ضع نفسك في مكانه، يا صديقي العزيز، هل ستقبل اسكودات برتغالية مقابل كل المخاطر التي تعرض نفسك لها؟

ـ طبعاً لا ـ أكّد فيرمينو.

ـ هل حجزت دوراً في لابوهيم؟ ـ سأل الرجلُ ـ إنني حزين لأجلك.

نظر فيرمينو إلى الحساب وأخرج نقوده حتى آخر سنتيم. كان يرغب أن يقطع الممر البحري كلّه على قدميه، فهو واثق من أنّ قليلاً من الهواء سينعشه.

16

دخل فيرمينو إلى فناء قُصَيْر روا داس فلورس ومرّ بجوار غرفة البوّابة، ألقت المرأة عليه نظرة سريعة وغاصت بنظرتها من جديد في شغل الإبرة. عبر فيرمينو الممر وقرع الجرس ففتح الباب آلياً، كما في المرّة الأولى.

كان السيّد فِرناندو جالساً أمام طاولة ملبسة بالقماش الأخضر، شبه متقلقل على كرسيّ لا يكاد يتسع لكرشه المدلوق وأمامه ورق لعب، وسيجاره مشتعل لكنه بقي في المرمدة على الطاولة وراح يستهلك نفسه ببطء. يطفو في جو القاعة هواء عفونة ودخان زنخ.

- ألعبُ لعبة *السبيت والملايز* - قال السيّد فرناندو - لكنّها لاتفتخ معي، فهذا ليس يومي. هل تعرف لعبة السبيت والملايز؟

بقي فيرمينو جامداً أمامه ومعه رزمة صحف تحت إبطه، نظر إلى المحامي دون أن يقول شيئاً.

- يسمونها لعبة الصبر - قال السيّد فِرناندو - لكنّه تعريف غير دقيق، إذ يجب أن يملك المرء حاسّة شمٍّ ومنطقاً أيضاً. طبعاً إضافة إلى الحظّ. إنّه نوع من *الميليغان*، ألا تعرف حتى *الميليغان*؟

- بصراحة لا - أجاب فيرمينو.

ـ في *الميليغان* يشارك عدد من اللاعبين ـ شرح السيّد فِرناندو ـ حزمتين من اثنين وخمسين ورقة وأعمدة متوالية؛ يُفتتح بالآس أو الملكة، بالآس العمود متصاعد وبالملكة هابط، لكن الجيّد ليس هذا، الجيّد هو العوائق.

أخذ المحامي السيجارَ الذي شكل رماده سنتيمترين وأكثر قليلاً وامتصّ ملء فمه منه.

ـ عليك أن تجرب دراسة ما يسمى بألعاب الصبر، آلية بعضها شبيهة بهذا المنطق غير المحتمل الذي يتحكّم بحياتنا. الميليغان مثلاً، لكن اجلس أيّها الشاب، خذ هذا الكرسي الصغير.

جلس فيرمينو وترك رزمة الصحف على الأرض.

ـ *الميليغان* مهمّ جدّاً ـ قال المحامي ـ لعبة ينفذها كلّ لاعب بهدف وضع مكائد للحدّ من لعب الخصم الذي يتابع خطواته وهكذا دواليك مثل محادثات جنيف الدولية.

نظر فيرمينو إليه وارتسمت على وجهه ملامح الخجل. حاول أن يفكّ رمز ما أراد المحامي قوله بسرعة لكنه لم يستطع.

ـ محادثات جنيف؟ ـ سأل.

ـ هل تدري ـ قال المحامي ـ طلبتُ منذ بعض السنوات الذهاب كمراقب إلى محادثات نزع السلاح النووي والباليستي التي تدور في مقر الأمم المتحدة في جنيف. صادقتُ سيّدةً، سفيرة أحد البلدان التي كانت تقترح نزع السلاح، المسألة أنَّ بلدها الذي يقوم بتجارب نووية كان ملتزماً أيضاً بنزع السلاح النووي من العالم؟ هل التقطت الفكرة؟

ـ التقطت الفكرة ـ قال فيرمينو ـ إنّها ظاهرة متناقضة في الظاهر.

ـ حسن ـ تابع المحامي ـ كانت السيّدة امرأة مثقفة، طبعاً، لكنّها كانت بشكل خاص شغوفة بلعب الورق. طلبتُ منها ذات يوم أن توضّح لي آلية عمل تلك المحادثات، التي يفلتُ مني منطقُها. هل

تدري بماذا أجابتني؟

ـ إطلاقاً لا ـ أجاب فيرمينو.

ـ أنْ أدرسَ *الميليغان*، لأنّ منطقهما واحد، أي أنّ كلّ لاعبٍ وإن بدا ظاهرياً متعاوناً مع الآخر، يشيدُ في الحقيقة سلسلةَ الأوراق دارساً المكائد التي تحدُّ من لعب الخصم. ما رأيك؟

ـ لعب جيّد ـ أجاب فيرمينو.

ـ طبعاً ـ قال السيّد فِرناندو ـ على هذا يرتكز التوازن النووي على كوكبنا، على *الميليغان*.

ضرب عدة ضربات خفيفة على واحد من أعمدة الورق.

ـ لكنّني ألعب وحيداً، بتنويعة *السبيت والملايز*، يبدو لي أنسب.

ـ يعني؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ ألعب فردياً، بشكل أكون فيه أنا نفسي وعدّوي في آنٍ معاً، يبدو لي أنّ هذا هو ما يتطلّبه الوضع بالنسبة للصواريخ التي ستطلق وسيتم تلافيها.

ـ صار عندنا صاروخ ـ أعلن فيرمينو برضى ـ إنّه ليس الرأس النووي ، لكنّه شيء.

خرّب السيّد فرناندو ألعاب الصبر وراح يجمع الورق ورقة ورقة.

ـ يهمّني، أيّها الشاب ـ قال.

ـ في البوتشيني بترفلاي يتاجرون بالمخدرات ـ قال فيرمينو ـ وتُستهلك في المكان ذاته. هناك قاعات صغيرة محجوزة في الممر، موسيقى أوبرا وأرائك مريحة، أعتقد أنّ الأمر يتعلق بشكل خاص بالكوكائين، لكن يمكن أن يوجد أشياء أكثر، فنشقةٌ منه تساوي مئتي دولار، والذي يقود كلّ هذه الأعمال هو دون شك تيتانيو سيلفا. هل أرميه بعائقٍ عبر صحيفتي؟

نهض المحامي واجتاز الغرفة بخطوات متردّدة. توقّف أمام طاولة جدارية من الطراز الإمبراطوري عليها صورة مؤطرة لم يتوقّف فيرمينو عندها. استند بمرفقه على رخام الطاولة، في وقفة بدت لفيرمينو مسرحيةً وخطابية في آنٍ معاً، كما لو أنّ أمامه محكمة يتوجّه إليها بالكلام.

ـ أنت كاتب تحقيقات جيّد، أيّها الشاب ـ هتف ـ مع بعض المحدوديات، لكن لا تأتِني الآن محاولاً أن تصنع من نفسك دون كيخوت، لأنّ الرقيب تيتانيو سيلفا، طاحونة هواء خطيرة جدّاً. وإذا ما أخذنا بالحسبان الحالة التي صار إليها دون كيخوتنا بعد أن جرجرته زعانف الطواحين، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّني لا أستطيع ولا أريد أن أكون سانتشو بانثاكَ أدهنُ جسدَك البائسَ المحطم بزيوت البلسم، سأقول لك شيئاً واحداً فقط، فافتح أذنيك جيّداً. ميليغاننا. تذهب الآن لتعدّ مذكرة صحفية مفصلة، سترسلها إلى إحدى الوكالات، هذه الملاحظة الصحفية المفصلة التي تصف البوتشيني بترفلاي بعجرها وبجرها، بقاعاتها الصغيرة الناعمة، وبموسيقى أوبراها وبرشاماتها متنوعة المحتوى، والدولارات التي يعدّها بمهارة أمين الصندوق الخبير تيتانيو سيلفا، كل ذلك، كان يقول، ستنشره الصحفُ البرتغالية، كل الصحف الممكنة والتي يمكن تصوّرها، تلك المهتمّة بمصير الجنس البشري الرائع والتقدمي، والمهتمّة بسيارات أصحاب شركات الشمال الرياضية ، وهي طريقة أخرى لتصوّر مصير النوع البشري الرائع والتقدمي أيضاً، باختصار، كلّ صحيفة ستأخذ الخبر بطريقتها، بعضها بغضب، وأخرى بفضائحية، وأخرى بتحفّظ؛ لكنها جميعاً ستكتب، من المحتمل أن تكتب، لنقل من المحتمل، حسب مصادر وثيقة الاطلاع يُتاجَر في المحل المذكور دون عقاب، هذه الصيغة المدعومة بغفلة من الحرس الوطني، الذي لم يحقّق قط بالأمر، لم يحقق في بيعِ المحلُ المذكور للمساحيق المخدرة، هل أعجبتك الصفة؟ بسعرٍ طفيفٍ أي بمئتي دولار للبرشامة الواحدة، أي بثلث

الراتب الشهري لعامل برتغالي عادي، بهذه الطريقة نرسل لبوتشيني وبالتالي للسيّد تيتانيو سجلّ شرطة الجنايات.

بدا أنّ المحامي أخذ نفساً. استنشق هواء كمن كان يختنق فأحدث استنشاقه صوتَ منفاخِ حدّاد قديم.

ـ كل الذنب على السيجار ـ قال ـ عليّ أن أشتري سيجاراً إسبانياً لأنّني لم أعد أعثر على الهافاني، صار ذكرى، مع أنّ تلك الجزيرة صارت أيضاً مجرّد ذكرى ـ وتابع بعدها ـ: نحن نخرّف، أو بالأحرى أنا أخرِّف، أرجوك معذرتي فاليوم في رأسي أشياء أكثر من اللازم.

كانت اليد التي تسند الوجه تهصر الخدّ الطريّ.

ـ ثمّ إنّني نمتُ نوماً سيئاً ـ أضاف ـ عندي أرق كثير والأرق يأتيني بالأشباح ويجعل الزمن ينكص. هل تعلم ما معنى أن ينكص الزمن؟

نظر إلى فيرمينو نظرةً تفحّص فشعر الأخيرُ مجدّداً بانزعاج ضاغط. لم يكن يحب موقف السيّد فرناندو منه وربّما من آخرين وكأنّه يطلب مشاركةً في جريمة، كأنّما يريد أن يتلقى تأكيداً على شكوكه، لكن بما يشبه التهديد.

ـ لا أعرف ماذا يعني، يا محاميّ ـ قال ـ فأنت تستعمل تعابير شديدة الغموض، لا أعرف ماذا يعني نكوص الزمن.

ـ الزمن... ـ همس المحامي ـ ألاحظ أنّك لست المستمع الأنسب. طبعاً أنت شاب، والزمن بالنسبة إليك شريط يُبسط من بدايته مثل سباق سيارة تمضي في طريق مجهول وما يهمّها هو ما ينتظرها خلف العطفة التالية، ليس تماماً ما أريد قوله، كنتُ أقصد مفهوماً نظريّاً، العمى! لماذا تؤثّر النظريات عليّ بهذه الطريقة؟ ربّما لاهتمامي بالقانون، الذي ليس إلاّ نظريةً هائلة وبناءً مقلقلاً أيضاً، تنفتح في سقفه قبّة لامتناهية، مثل قبّة السماء التي نتأمّلها بارتياح

جالسين في أرائك كوكبية. هل تعرف؟ وقع بين يديّ ذات مرّة رسالة في الفيزياء النظرية، واحدة من تلك الرسائل التي وضعها أولئك الرياضيون الذين يحبسون أنفسهم في زنزانات جامعية مريحة. كانت تتحدّث عن الزمن ووقعتُ على جملة جعلتني أفكّرُ، جملة تقول بأنّ الزمن بدأ في لحظة معينة في الكون. وأضاف الباحث بخيانة أنّ هذا المفهوم هو بالنتيجة غير مفهوم بالنسبة لدرجاتنا العقلية.

نظر إلى فيرمينو بعينيه المستقصيتين. بدّل وضعيته. وضع يديه في جيبيه في وضعية وغدٍ يثير آخر.

ـ لا أريد أن أبدو لك صلفاً قال بتعبير تحريضي ـ لكنّ مفهوماً مجرّداً بهذا الشكل كان يحتاج إلى ترجمة إنسانية، هل تفهم؟

ـ أعملُ كل ما باستطاعتي ـ أجاب فيرمينو.

ـ الحلم ـ أجاب المحامي ـ ترجمة الفيزياء النظرية إلى المستوى الإنساني ممكنة فقط في الحلم. لأنّ هذه الترجمة لا يمكن أن تحدث في الواقع إلا هنا، تماماً هنا في الداخل.

طرق بسبّابته على صدغه.

ـ في رؤوسنا الصغيرة، لكن فقط حين ننام، في هذا الفضاء العصيّ على التحكم، الذي هو بحسب الدكتور فرويد اللاوعي في حالة الحرّية. صحيح أنّ هذا المخبَر الفظيع لم يكن باستطاعته أن يربط الحلم بنظرية الفيزياء، لكن من المهمّ أن يفعل أحدٌ ما هذا ذات يوم. هل يزعجك أن أدخّن؟

ترنّح حتى الطاولة الصغيرة وأشعل سيجاراً. أخذ نفساً دون أن يبلع دخانه ورسم حلقات في الهواء.

ـ أحلمُ أحياناً بجدّتي ـ قال بنبرة تأمّلية ـ كثيراً ما أحلمُ أكثرَ من اللازم بجدّتي. هل تعرف؟ كانت مهمّة جدّاً لطفولتي، عملياً ترعرعت معها، مع أن اللواتي كنّ يقمن على تربيتي هنّ المربيات. وأحلم بها أحياناً طفلةً، طبعاً لأنّ جدّتي كانت ذات يوم طفلة. تلك العجوز الفظيعة، البدينة مثلي، بشعرها المجموع في قرص وشريطة

من القطيفة حول عنقها، بثيابها الحريرية السوداء، طريقتها في تفحّصي بصمت حين كانت تجبرني على تناول الشاي في غرفها، تلك المرأة الفظيعة التي شكّلت كابوساً لي في يقظتي دخلت أحلامي، دخلتها كطفلة، ياللغرابة! لم أتصوّر قط أنّ تلك العجوز المشعوذة كانت يوماً طفلة، بينما هي في حلمي طفلة، ترتدي لباساً أزرقَ هفهافاً مثل غمامة، حافية، خواتم شعرها تقع عل كتفيها وهي خواتم شقراء. أنا على الطرف الآخر من جدول صغير وهي تحاول أن تصل إليّ مدخلة قدميها الورديتين بين حجارة مجرى الماء. أعرف أنّها جدّتي ولكنّها في آنٍ معاً طفلة مثلي، لا أعرف ما إذا كنت أوضّح. هل أوضّح؟

- لا أدري ماذا أقول لك - أجاب فيرمينو بحذر.

- لا أوضّح - تابع المحامي - لأنّ الأحلام لا تُوضّح، لا تحدث في عالم الفظاعة كما يريد أن يجعلنا نعتقد الدكتور فرويد، فقط أردت أن أقول لك إنّ الزمن يمكن أن يبدأ هكذا، داخل أحلامنا، لكنّني لم أنجح في قوله.

سحق السيجار في المرمدة وتنهّد تنهيدة من تنهداته التي تبدو نفخةً من منفاخ الحدّاد.

- إنّني تعب - قال - وأحتاج للترويح، عندي أشياء محدّدة أقولها، لكن علينا أن نخرج الآن.

- جئتُ سيراً على قدميّ - وضّح فيرمينو - فأنا كما تعرف لا أملك وسيلة نقل.

- سيراً لا - قال السيّد فرناندو - يتعبني جدّاً الذهاب سيراً على القدمين بكلّ هذه الشحوم، ربّما استطعنا أن نجعل مانول يحملنا، إذا لم يكن عنده عمل زائد في حانته، يعمل عندي سائقاً أحياناً، هو الذي يعتني بسيّارة والدي، وهي شيفروليه موديل 48 لكنّها تعمل تماماً، فيها محرّك يعمل مثل الحرير، نستطيع أن نسأله ما إذا كان سيأخذنا في نزهة.

لاحظ فيرمينو أنّ المحامي يطلب موافقته فسارع وحرّك رأسه بالإيجاب. أخذ السيّد فرناندو الهاتف وهتف للسيّد مانوِل.

ـ ليس من السهل الهرب من أوبورتو ـ قال المحامي ـ لكن ربّما كانت المشكلة الحقيقيّة في عدم استطاعة المرء الهرب من نفسه، اعذرني على وضوحي.

كانت السيارة تدور على الشاطئ والسيد مانوِل يقودها بحذرٍ شديد، فقد حلّ الليل وإلى اليسار تظهر في البعيد أنوار المدينة. مرّوا أمام بناء هائل مغطى بالأردواز، أشار إليه المحامي بحركة ساهية من يده.

ـ إنّه مقرّ الطاقة الكهربائية القديم ـ قال ـ يا له من بناء مشؤوم، ألا ترى ذلك؟ الآن صار مستودعاً لذاكرة المدينة، لكن عندما كنت طفلاً وكانوا يأخذونني إلى المزرعة لم تكن الكهرباء قد وصلت إلى الريف. كان عند الناس مصابيح نفط.

ـ إلى بيت البهائم؟ ـ سأل السيّد مانوِل ملتفتاً بشكل خفيف.

ـ إلى بيت البهائم؟ ـ أجاب السيّد المحامي.

أنزلَ بلور النافذة فدخلت نسمة صغيرة.

ـ بيت البهائم هو طفولتي الأولى ـ تمتم ـ سنوات حياتي الأولى قضيتها هناك، المربية الألمانية هي التي كانت تأخذني إلى المدينة لتناول شاي الأحد مع جدّتي، المرأة التي لعبت دور أمّي كانت تعيش هناك، وكانت تُدعى مِنا.

اجتازت السيارة جسراً ودارت نحو اليمين وأخذت طريقاً غير مزدحم. استطاع فيرمينو أن يفك رموز بعض الإشارات: أرِيْنهو، ماسّارِلوس، المناطق التي لا تعني له شيئاً.

ـ في طفولتي كانت مزرعة مزدهرة وجميلة ـ قال المحامي ـ لذلك تسمّى بيت البهائم، الخيول على وجه الخصوص البغال والخنازير. لم يكن يوجد بقر، فالمزارعون كانوا يضعون الأبقار

في أمارانتِ، فهنا كان يوجد خيول على وجه الخصوص.

تنهّدَ لكنّ تنهّده كان خفيفاً، يكاد لا يدرك.

ـ مرضعتي كانت تُدعى مِنا ـ تابع هامساً ـ كان تصغيراً، لكنّني دائما ناديتها به، مِنا، ماما مِنا، كانت مرضعة بصدر باستطاعته أن يرضع عشرة أطفال ألوذ به لألقى العزاء، صدر ماما مِنا.

ـ في الأعماق هي ذكريات جميلة ـ علّق فيرمينو.

ـ ماتت مِنا مبكّراً جدّاً، للأسف ـ تابع المحامي دون أن يولي جملة فيرمينو أهمية ـ أهديتُ المزرعة لابنها، بوعد أن يحتفظ ببعض الخيول، وهو ما زال عنده حتى الآن اثنان أو ثلاثة، وهو وإن كان يخسر مالاً فإنّه يقوم به إرضاءً لنزواتي، يقوم به ليجعلني أشعر بنفسي في بيت طفولتي، حيث ألوذ حين أشعر بالحاجة للعزاء والتأمل، وجورج، ابن ماما مِنا، هو قريبي الوحيد الباقي لي، إنّه أخي في الرضاعة، أستطيع أن أذهب إلى بيته في الساعة التي أريد. انظر أنت محظوظ جدّاً هذه الليلة.

ـ ألاحظ ذلك ـ أجاب فيرمينو.

دخل السيّد مانول في طريق غير مُعبّدة بالإسفلت، تصعد منها سحابة غبار خلف السيارة. كانت الطريق تنتهي إلى بيْدر، مع بيت من المرحلة الاستعمارية مبني على الطريقة القديمة. تحت الرواق عجوزٌ ينتظرهم. هبط المحامي وعانقه. صافحه فيرمينو فتمتم الرجل «أهلاً بك»، ففهم أنّه أخو السيّد فِرناندو في الرضاعة. دخلوا إلى قاعة ريفية بعوارض خشبية يوجد فيها مائدة محضّرة لخمسة أشخاص. دُعي فيرمينو للجلوس بينما اختفى المحامي في المطبخ يتقدّمه السيّد جورج. حين عادا كانا يحملان كأساً من النبيذ الأبيض وملأت الفتاة التي تبعتهما جميع الكؤوس.

ـ هذا هو نبيذ المزرعة ـ وضّح المحامي ـ يصدِّره أخي إلى السوق الخارجية، لكن هذه الزجاجة ليست للتجارة، فهي فقط للاستهلاك الداخلي.

شربوا النخب وجلسوا إلى المائدة.

ـ قل لزوجتك أن تأتي ـ قال المحامي للسيّد جورج.

ـ أنت تعرف أنّها تخجل ـ أجابه السيّد جورج ـ فهي تفضّل تناول العشاء في المطبخ مع البنات، تقول إنّه حديث بين رجال.

ـ قل لزوجتك أن تأتي ـ كرّر السيّد فِرناندو بنبرة تسلطية ـ أريدها أن تجلس إلى المائدة معنا.

دخلت المرأة ومعها صينية فخار، حيّت وجلست بصمت.

ـ مشوي ـ وضّح السيّد جورج للمحامي وكأنّه يبرّر ـ دائماً تهتف في اللحظة الأخيرة، هذا هو الشيء الوحيد الذي استطعنا تحضيره، الخنزير ليس من خنازيرنا لكنّه موثوق.

لم يقولوا شيئاً أثناء العشاء أو قالوا أشياء قليلة. الطقس، تلك الحرارة الرطبة، السير الذي صار محالاً: أشياء من هذا القبيل. سمح السيّد مانوِل أن تأخذه خاطرة فقال:

ـ آه، يا عزيزي جورج، ياليتني أستطيع أن أملك في مطبخي طباخاً مثل طبّاخك!

ـ طبّاخي هي امرأتي ـ أجاب السيّد جورج ببساطة.

انتهى الحوار عند هذا. الفتاة التي صبّت النبيذ عادت من المطبخ بالقهوة.

ـ إنّها حفيدة خواكين ـ قال السيّد جورج موجّهاً كلامه إلى السيّد فِرناندو ـ وهي تبقى بيننا أكثر مما في بيتها. هل تذكر خواكين؟ لقد تعذّب كثيراً قبل وفاته.

هزّ المحامي موافقاً ولم يُجب. فتح السيّد جورج زجاجة أغواردييتِ وصبّ دفعة من الكؤوس.

ـ يا فِرناندو ـ قال ـ سنبقى أنا ومانوِل على المائدة نتحدث، فعندنا أشياء كثيرة نقولها عن السيارات القديمة، هل تستطيع أن تأخذ ضيفك لتريه الخيول. اذهب بكل اطمئنان.

نهض المحامي وكأس الأغواردييتِ في يده وتبعه فيرمينو إلى

خارج البيت. كان الليلُ مرصّعاً بالنجوم والسماء ضياؤها عجيب. من خلف التلّ تنبثق ببهاء أنوار أوبورتو. تقدّم المحامي عدّة خطوات في البيدر وفيرمينو إلى جانبه. رفع ذراعاً وقام برسم دائرة متبعاً محيط البيدر.

ـ سفرجل ـ قال ـ هناك في الماضي كان يوجد حولنا سفرجل، ترعى تحت أشجاره الخنازير، لأنّ ثماراً كثيرة كانت تسقط على الأرض. كانت مِنا تصنع المربّى في قدرٍ مسودّ تضعه ليغلي على النار.

هناك وراء البيدر كانت تظهر جوانب الإسطبلات والمتابن المظلمة. توجّه المحامي إلى هناك بخطواته المترنحة.

ـ هل يقول لك شيئاً اسم أرتور لُنْدُن؟ ـ تمتم.

فكّر فيرمينو قليلاً. دائماً كان يخاف أن يُخطئ في الإجابة على تلك الأسئلة المرتجلة التي يوجّهها إليه المحامي.

ـ ألم يكن ذلك القائد السياسي التشيكوسلوفاكي الذي عذّبه شيوعيو بلده؟ ـ أجاب.

ـ كي يعترف زيفاً ـ أضاف المحامي ـ كتب كتاباً بهذا الخصوص، اسمه *الاعتراف*.

ـ شاهدتُ الفيلم ـ صرّح فيرمينو.

ـ الشيء ذاته ـ تمتم المحامي ـ اسم جلاّديه الرئيسيَّيْن هو كوهوتِك وسمولا، هذان هما اسماهما الدقيقان.

فتح باب الإسطبل ودخل. كان هناك ثلاثة جياد ، جفل واحد منها وكأنّه خائف. كان فوق الباب ضوء ضارب للزرقة مثل ضوء القطارات. جلس المحامي بثقلٍ على مكعب تبن مضغوط فَتَبِعَ فيرمينو مَثَلَهُ.

ـ أحب هذه الرائحة ـ قال السيّد فِرناندو ـ حين أجد نفسي مكتئباً آتي إلى هنا، أستنشقُ هذه الرائحة وأنظر إلى الأحصنة.

طرق طرقةً صغيرة على كرشه الهائل.

ـ أعتقد أنّ تأمّل جمال حصانٍ بالنسبة إلى رجلٍ مثلي، بجسد بمثل تشوّهي وامتلائه، يشكل نوعاً من العزاء، يمنح الثقة بالطبيعة. بالمناسبة هل يعني لك شيء اسم هِنري ألِغْ؟

شعر فيرمينو من جديد بأنّه أُخِذَ على حين غرّة. هزَّ رأسه في الظلمة وفضَّلَ عدم الإجابة.

ـ شيء مؤسِف ـ قال المحامي ـ كان زميلاً لك، صحافياً، كتب كتاباً اسمه *القضيّة*، يحكي فيه كيف عُذِّب في الجزائر في عام 1957 بتهمة من القوات المسلحة الفرنسية بأنّه شيوعي ومناصر للجزائريين وهو الأوروبي والفرنسي، وذلك كي يكشف عن أسماء آخرين من رجال المقاومة. باختصار: «لندن» عذّبَهُ الشيوعيون؛ و«ألِغْ» عُذِّبَ لأنّه كان شيوعياً. وهذا ما يؤكّد لنا أنّ التعذيب يمكن أن يأتي من أيّة جهة، هذه هي المشكلة الحقيقية.

لم يجب فيرمينو. فجأة صهل جوادٌ وهو يقوم بدورة بدت لفيرمينو مقلِقة.

ـ جلاّدُ ألِغْ يُدعى كاربونيير ـ همس المحامي ـ كان ملازماً ثانياً في رجال المظلات، كاربونيير، هو الذي كان يفرِّغ الشحنات الكهربائية في خصيتيه، أنا مهووسٌ بحفظ أسماء الجلاّدين، لا أدري، لكن عندي انطباع بأنّ لحفظ أسماء الجلاّدين معنى وهل تعرف لماذا؟ لأنّ التعذيب مسؤولية فردية، وإطاعة أوامر الأعلى غير مُحْتَمَلَة، كثير من الناس تختبئ خلف هذا التبرير البائس، جاعلة من ذلك درعاً شرعياً، هل تدري يختبئون خلف *الغروندنورم*.

تنهّد تنهيدة هائلة فجفل أحد الجياد منزعجاً.

ـ منذ سنوات كثيرة، حين كنتُ شاباً مليئاً بالحماسة وحين كنتُ أعتقد أنّ الكتابة تفيد في شيء، خطر لي أن أكتب عن التعذيب. كنتُ قد عدتُ من جنيف والبرتغالُ بلدٌ شمولي تهيمن عليه الشرطة السياسيّة، التي تعرف كيف تسحب الاعترافات من الناس، لا أعرف ما إذا كنتُ أوضّح. كان لدي، في متناول يدي تماماً مواد! عن البلد، التفتيش البرتغالي وبدأت أتردّد على أراشيف تورٌ دو تومبو. أؤكّد

لك أنّ الطرق المهذّبة للجلاّدين الذين عذّبوا الناس على امتداد قرون في بلدنا لها أهمية خاصّة جدّاً، مشدودة جدّاً إلى عضلات الجسد البشري التي درسها النبيل فيساليو؛ وإلى ردود الفعل التي يمكن للأعصاب الرئيسية التي تعبر أعضاءنا، أعضاءنا الجنسية المسكينة أن تستجيب لها، معرفة تشريحية تامّة، كل ذلك قام باسم غروندنورم لا يمكن أن تكون إلاّ غروندنورم، القاعدة المطلقة. هل فهمت؟

ـ بمعنى؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ الله ـ أجاب المحامي ـ أولئك الجلاّدون النّشِيطون والمهذّبون جدّاً كانوا يعملون باسم الله، الذي تلقوا منه الأمر الأعلى، المفهوم واحد أساساً: أنا لستُ مسؤولاً، أنا رقيب متواضع وأمرني به نقيبي، أنا لستُ مسؤولاً، أنا نقيب بسيط وأمرني به جنرالي؛ أو الدولة، أو بالأحرى: الله. أقل قابلية للنزاع.

ـ وما كتبت بعدها شيئاً آخر؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ تخليث.

ـ ولماذا؟ ـ سال فيرمينو ـ، اعذرني إذ أنّني أسألك.

ـ من يدري ـ ردّ السيّد فرناندو ـ ربّما رأيت أن الكتابة ضد الغروندنورم غير مجدية، من جهة أخرى قرأت مقالاً عن تعذيب شخص ألماني مليء بالغطرسة فثناني عنها.

ـ اعذرني على السؤال، لكن هل أنت لا تقرأ إلاّ لكتاب ألمان؟

ـ بشكل رئيسي ـ أجاب السيّد فرناندو ـ ربما لأنّها الثقافة التي أنتمي إليها حقيقة على الرغم من ترعرعي في البرتغال، إنّها اللغة الأولى التي تعلّمتُ التعبير بها. كاتب هذا البحث يسمى ألِكساندر ميتشرليخ، محلل نفسي، من سوء حظ هذه المشاكل أنّه بدأ يهتم بها حتى المحللون النفسيون، هل تعرف؟ كان يقدّم صورة المسيح المصلوب مؤكداً أنّها صورة ملازمة لثقافتنا، ويستخدمها لدعم أنّ الموت بحدّ ذاته لا يشكّل في اللاواعي عقاباً كافياً، حسن، النتيجة العملية هي: علينا ألا نتوهّم، فالتعذيب لن يختفي أبداً، لأنّنا لا

نستطيع أن نلغي دوافع الإنسان الهدّامة. ولقول ذلك باختصار: لنذعن، لأنّ الإنسانَ شرِّير. وانتهى، هذا ما أراد قوله هذا الأبله بكلّ نظرياته الفرويدية: الإنسان شرِّير. لذلك اتخذت هذا القرار.

ـ بمعنى؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ الانتقال إلى العمل ـ أجاب السيّد فرناندو ـ إنّه لأكثر تواضعاً أن أذهب إلى المحكمة لأدافع عن أولئك الذين يتعرضون إلى مثل هذه المعاملة. لن أعرف أن أقول لك أيهما أكثر فائدة أن أكتب بحثاً عن الزراعة أم أن أشقّ الأرض بفأسي كفلاح. تكلّمت عن التواضع، لكن لا تصدقني كثيراً، لأنّ موقفي هو فوق كلّ شيء موقف كبرياء.

ـ لماذا تحكي لي كلّ هذا؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ داماسيْنو مونيتْرو عُذّب ـ تمتم المحامي ـ علاماتُ الحَرْقِ بالسجائر تملأ كلّ جسده.

ـ وكيف عرفت؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ طالبت بتشريح شرعي ثانٍ ـ قال السيّد فرناندو ـ فالتشريح الأول نسي أن يذكر هذا التفصيل التافه.

تنفّس بعمق محدثاً غرغرة ربوية.

ـ لنخرج ـ قال ـ فأنا بحاجة للهواء. لكن اكتبْ خلال ذلك عن هذا إلى صحيفتك، طبعاً المصدر مجهول، لكن أَخْبِرْ به الرأيَ العام فوراً. بعد يومين أو ثلاثة يمكن أن نتكلّم عن سرّ بيان التحقيق الجاري، لكن كلّ شيء في وقته.

خرجا إلى البيدر. رفع السيّد فرناندو رأسه ونظر إلى قبّة السماء.

ـ ملايين النجوم ـ قال ـ ملايين السدم، اللعنة، ملايين السدم ونحن هنا، مشغوليين باللواجب المطبّقة على الأعضاء الجنسية.

17

كانت الساعة العاشرة صباحاً والسيّدة روسا تجلس على أريكة صغيرة في القاعة الصغيرة تحضّرُ القهوة. فيرمينو لم يعرف أنّ تعبيرَ وجههِ صاعقٌ على الرغم من الحمام الذي أخذه لمدّة ربع ساعة في محاولةٍ منه كي يصحو.

ـ يا عزيزي الشاب ـ قالت السيّدة روسا بودٍّ ـ تعال وتناول القهوة معي، فأنا لا أتمكن أبداً من رؤيتك.

ـ البارحة كنت في حديقة النباتات ـ برّر فيرمينو ـ قضيتُ النهارَ كلّه هناك.

ـ وأوّل البارحة؟ ـ سألت السيّدة روسا.

ـ في المتحف، ثمّ في السينما، عرضوا فيلماً فاتني في لشبونة ـ أجاب فيرمينو.

ـ واليوم السابق عليه؟ ـ ألحّت السيّدة روسا بابتسامة.

ـ كنتُ مع المحامي ـ قال فيرمينو ـ أخذني ليلاً لتناول العشاء في الريف، في مزرعة له.

ـ لم تعد له ـ دقّقت السيّدة روسا.

ـ قال لي ذلك ـ أجاب فيرمينو.

ـ وما الذي وجدته مهمّاً في الحديقة النباتية؟ ـ سألت السيّدة

روسا ـ لم أذهب إليها قط، فأنا أعيش ضمن هذه الجدران الأربعة.

ـ شجرة دم أخوين مئويّة ـ أجاب فيرمينو ـ إنّها شجرة استوائية عملاقة. في البرتغال لايوجد منها إلا نماذج نادرة جدّاً ، يبدو أنّ سالابِرت زرعها في القرن التاسع عشر.

ـ أنت تعرف أشياء كثيرة، يا فتاي العزيز ـ هتفت السيّدة روسا ـ طبعاً كي يقوم المرء بالعمل الذي تقوم به يحتاج إلى ثقافة، احكِ لي من يكون هذا السيّد ذو الاسم الأجنبي الذي زرع الشجرة؟

ـ ليست المسالة أنّني أعرف كثيراً حول هذا الموضوع ـ أجاب فيرمينو ـ قرأته في الدليل. إنّه فرنسيّ وصل إلى أوبورتو مع الغزو البونابرتي، كان، كما أعتقد، ضابطاً في الجيش الفرنسي، شغوفاً بعلم النبات، هو الذي أسّس الحديقة النباتية في أوبورتو.

ـ الفرنسيون رجال ثقافة ـ قالت السيّدة روسا ـ فقد قاموا بالثورة الجمهورية قبلنا بكثير.

ـ نحن وصلتنا الجمهورية في العام 1910 ـ أجاب فيرمينو ـ لكلّ بلد تاريخه الخاص.

ـ البارحة تصفحتُ في *الـ أُوْلا* تحقيقاً صحفياً عن المَلَكِيّات في أوروبا الشمالية ـ قالت السيّدة روسا ـ هؤلاء فعلاً أناس كما أمر الله، لهم أسلوب آخر.

ـ حتى أنّها شاركت في المقاومة ضدّ النازية ـ قال فيرمينو.

صاحت السيدة روسا صيحة مباغتة.

ـ هذا ما لم أكن أعرفه ـ تمتمت ـ واضحٌ أنّهم أناس كما يأمر الله.

انتهى فيرمينو من تناول قهوته. نهض، اعتذر قائلاً إنّ عليه أن يخرج لشراء الصحف. أشارت السيّدة روسا بتعبيرِ وجهٍ مشعٍّ إلى رزمة من الصحف على الأريكة.

ـ كلّها هنا ـ قالت ـ وطازجة تماماً فقد ذهبت فرانثيسكا لشرائها في الثامنة، إنّها فضيحة عظيمة، تتكلّم عنها جميع الصحف، وجد تيتانيو نفسه أمام عظمٍ قاسٍ يَقرضه، لولاكم أنتم الصحافيين

ما ذهبتْ الشرطةُ قط إلى ذلك المحل. من حسن الحظِّ أن الصحافة موجودة.

ـ بتواضع نعمل ما نستطيع ـ أجاب فيرمينو.

ـ هتف المحامي في التاسعة ـ أخبرته السيّدة روسا ـ يريد التكلّم معك، في الحقيقة كلّفني بكلّ شيء، لكنّني أعتقد أن من الأفضل أن تتكلّم معه قبل ذلك.

ـ سأذهب لرؤيته حالاً ـ أجاب فيرمينو.

ـ لا يبدو لي أنّه الأنسب ـ دقّقت السيّدة روسا ـ المحامي لايستطيع استقبالك اليوم. لديه أزمة من أزماته.

ـ أيّة أزمة؟

ـ جميعنا يمكن أن تكون لنا أزماتنا ـ قالت السيدة روسا بعذوبة ـ لذلك لا يبدو لي مناسباً أن تذهب وتزعجه، لكن لا تنشغل، فقد قال لي إنّه سيعود ليهتف لك ويعطيك جميع التعليمات، الأمر الآن هو أن تتحلّى بقليلٍ من الصبر.

ـ نعم ـ قال فيرمينو ـ صرتُ أتحلّى بالصبر، لكن وددتُ لو أقوم بمشوار ، ربّما إلى المقهى المركزي.

ـ فهمت، ما تحتاجه هو فنجان قهوة جيّد وثقيل ـ قالت السيدة روسا بحبّ ـ فهذه القهوة التي تعدّها فرانثيسكا صباحاً مليئة بالهندباء، وأنت تحتاج إلى فنجان قهوة إكسبريسو جيّد، سأجعلهم يأتونك به، ابقَ هنا واقرأ خلال ذلك كلّ هذه الأخبار الصغيرة الجميلة عن المحل الليلي، وسنرى بعد قليل تحقيقاً عن الطبيعة، لاأدري ما إذا رأيته ذات مرّة. إنّه برنامج يعدّه باحث علمي ظريف جدّاً من جامعة ألغَرْب، يبدو أن ألغَرْبِ من الأماكن القليلة في أوروبا التي استطاعت فيه الحرباء البقاء على قيد الحياة. قرأت عنه في صفحة التلفزيون.

ـ برأيي أنّ الحرباء تتمكّن من الاستمرار على قيد الحياة في كلّ مكان ـ قال فيرمينو مازحاً ـ يكفيها أن تبدّل لونها.

ـ لقد انتزعت كلماتي من فمي ـ قالت السيدة روسا بضحكة صغيرة ـ لا بدّ أنّك تعرف أكثر مني بكثير عن هذا النوع من الحرباوات، نظراً لعملك، فأنا محبوسة بين هذه الجدران الأربعة، لكن صدّقني أنّني أيضاً أعرف هذه الحرباء وتلك، خاصّة في هذه المدينة.

على شاشة التلفزيون تشاهد بحيرة وشاطئ أبيض وكثبان غير متفاوتة. فكّر فيرمينو أنها تافيرا أو ربّما فعلاً ضواحيها. رأى بعدها كوخاً صغيراً على الشاطئ يشكل مطعماً مع بعض الطاولات البلاستيكية وأناس يأكلون القواقع، أشخاص شقر بمظهرٍ أجنبي. ركّزت الكاميرا على فتاة وجهها مليء بالنمش سألوها عن رأيها بالمكان. أجابت الفتاة بالإنكليزية وظهرت الترجمة مكتوبة . قالت إنّ ذلك الشاطئ جنّة حقيقيّة لأمثالها، وهي قادمة من النرويج، لكن الدافع الأساسي لتناولها القواقع في ذلك الكوخ هو فِرناندو بِسوا. وأشارت إلى فرع عريشة يغطي المطعم. بينما العدسة تتنقل عبر الفرع ويظهر في البعد الأول ضبّ ساكنٌ بعينين كبيرتين كثيرتي الحركة، كأنه جزء من الشجرة. كان واحداً من الحرباوات المسكينة التي ما تزال على قيد الحياة في ألغَرْبِ. سأل الصحافي التلفزيوني الفتاةَ النرويجية لماذا يسمون هذا الحيوان فرناندو بِسوا؟ فأجابت بأنّها لم تقرأ شيئاً لهذا الشاعر قط، لكنّها تعرف أنّه رجلُ الألف قناع وكان مثل الحرباء يتنكّر في كلّ تحوّل من تحولاته، ولذلك سمّى صاحبُ المطعم مطعمَه بهذا الاسم. انتقلت الكاميرا إلى لافتة مدهونة باليد تتوّج الكوخَ، كتب عليها: حرباء بِسوا.

رنّ الهاتف في تلك اللحظة فأشارت السيدة روسا إلى فيرمينو كي يردّ.

ـ يجب أن أقول لك بضع أشياء ـ قال المحامي ـ هل لديك ماتكتب فيه؟

ـ لديّ دفتر هنا ـ ردّ فيرمينو.

ـ يناقضون أنفسهم ـ قال المحامي ـ في الرواية الأولى ينفون أنّهم حملوا داماسِتْنو إلى القسم. للأسف كُذِّب هذا من قبل الشاهد الذي تبعهم بسيارته، تصوَّرْ. هم يقولون بأنّهم أنزلوه على الطريق، تورِّس الذي تبعهم عن بُعْدٍ بسيارته حتى أوبورتو يصر على أنّه رآهم يدخلونه ضرباً وصفعاً إلى القسم. التناقض الثاني: اضطرّوا أن يعترفوا أنّهم أخذوا مونتِيْرو إلى القسم للتدقيقِ فقط، لكنّهم يؤكدون أنّهم أوقفوه لزمن قصير، هو الزمن اللازم تماماً للتدقيق في الحالة، نصف ساعة كحدّ أقصى. وبالتالي لنفترض أنّهم دخلوا نحو الثانية عشرة فيكون مونتِيْرو قد خرج في الثانية عشرة والنصف من القسم سيراً على قدميه. هل تتابعني؟

ـ أتابعك ـ أكّد فيرمينو.

ـ لكن تورِّس ـ تابع المحامي ـ الذي يبدو قوياً يُصِرّ على أنّه بقي في السيارة حتى الثانية ولم يرَ داماسِتْنو مونتِيْرو يخرج. هل تتابعني؟

ـ أتابعك ـ أكّد فيرمينو.

ـ وبالتالي ـ دقّق المحامي ـ بقي مونتِيْرو في القسم حتى الثانية على الأقل، وبعدها فكّر تورّس بأن الساعة حانت للعودة إلي بيته وذهب. بدءاً من هذه اللحظة تختلط الأمور، مثلاً الحارس الذي يجب أن يُسجل الدخول إلى القسم، كان نائماً نوم ملائكة، وخدّه على المكتب، بعض القهوة التي نزل الجدجد الأخضر لتحضيرها في المطبخ يساعده عنصر آخر، أشياء من هذا النوع، إلى أن استطاعوا أن يعدّوا تصريحاً أكثر منطقية بقليل، هو بالتأكيد النهائي الذي سيستخدمه الجدجد الأخضر في المحكمة. لكن لن أكون من يعطيك هذه الرواية.

ـ ومن سيعطيها لي؟

ـ سيعطيها لك تيتانيو سيلفا شخصياً ـ أجاب المحامي ـ أنا واثق من أنّها روايته الأخيرة كما أنّني واثق من أنها ستكون

ماسيستخدمه في المحاكمة، لكنّه تصريح يُفضّل أن تأخذه منه بالصوت الحي.

سمع فيرمينو عبر السماعة نوعاً من الحشرجة وبعض نوبات السعال.

ـ عندي نوبة ربو ـ وضّح المحامي بنوع من الصفير في صوته ـ إنّها بالنسبة إلي أزمات ربو نفسية جسدية، فالجداجد عندها نوع من الغبار تحت أجنحتها يسبِّب لي الربو.

ـ ما الذي عليّ أن أفعله؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ وعدتك أن نتكلّم عن أخلاق المهنة ـ أجاب المحامي ـ اعتبر هذه المخابرة الدرس العمليّ الأوّل. وخلال ذلك بيِّنْ جيّداً في صحيفتك تناقضات هؤلاء السادة، شيء جيد أن يبدأ الرأي العام بتكوين فكرة، أما بالنسبة للرواية الأخيرة ، فقابِلْ السيّد الجدجد الأخضر، فهو بالتأكيد يظن أنّه سيحمي ظهره بمنحك المقابلة، لكننا أيضاً سنحمي ظهورنا، كلّ واحد منّا يلعب لعبته كما في *الميليغان*، موافق؟

18

«التقينا في الـ أنتارتيكو، محلّ مثلجات مصب الدويرو الشهير، أمام شاطئ النهر الرائع الذي يخترق أوبورتو. قَبِلَ التحدثَ إلينا شخصٌ هو الآنَ محطّ أنظار الرأيِ العام، تُثْقِلُه، حسب بعض التصريحات، الاتهامات الخطيرة بمَقتل داماسِتِنو مونتِيْرو، إنّه الرقيب تيتانيو سيلفا، من الحرس الوطني في هذه المدينة. سنقدّم صورة موجزة عن هذه الشخصية: أربعة وخمسون عاماً، مواليد فِلْغِيْراس، من منبت متواضع، خريج الأكاديمية العسكرية في مَفْرا، مقاتل في أنغولا من العام 1970 وحتى 1973، ميدالية شرف لشجاعته في الخدمات التي قام بها في أفريقيا، وهو منذ أكثر من عشر سنوات رقيب ينتظرُ الترقية في قسم الحرس الوطني في أوبورتو.

ـ أيّها الرقيب، هل توافق على الصورة المقتضبة التي رسمناها لك؟ هل أنت بطل في حرب أفريقيا؟

ـ أنا لا أعتبر نفسي بطلاً، فقط قمتُ بواجبي تجاه وطني وعَلَمي. للحقيقة أنّني حين ذهبتُ إلى أنغولا لم أكن أعرف حتى جغرافيتها. لنقل إنّني اكتسبتُ وعيي الوطني في أراضينا الواقعة فيما وراء البحار.

ـ هل تريد أن تعرّف لنا بشكلٍ أفضل مفهومك للوعي الوطني؟

ـ أقول ذلك بمعنى أنّني وعيتُ أنّني أقاتل المتمردين الذين يعارضون حضارتنا.

ـ إلامَ تشير بكلمة حضارة؟

ـ إلى البرتغالية، لأنّ حضارتنا حضارة برتغالية.

ـ وإلى من تشير بكلمة متمرّدين؟

ـ إلى الزنوج الذين كانوا يطلقون النارَ علينا لأنّ بعضهم قال لهم ذلك مثل أميلكار كابرال. اكتسبتُ وعيَ الدفاع عن تلك البلاد التي كانت لنا منذ ليل الأزمنة، حين لم يكن يوجد في أنغولا ثقافة ولا مسيحية، هذهِ الأشياء التي حملناها نحن إلى هناك.

ـ ثمّ وبعد تقليدك الوسامَ عدت إلى القارّة ودخلت في سلك شرطة أوبورتو.

ـ ليس هكذا بالضبط. فقد عُيّنت في البداية في ضواحي لشبونة، إذ كان من الضروري ، نظراً لخسارتنا الحربّ، الاهتمام بكلّ أولئك العاطلين العائدين من أفريقيا، *الراجعين*.

ـ من تقصد بـ نحنُ؟

ـ نحن، البرتغال.

ـ وكيف جرت الأمور بالنسبة إلى أولئك العائدين من المستعمرات القديمة؟

ـ كانت هناك مشاكل كثيرة، لأنّهم أردوا النزولَ في فنادق كبيرة. حتى أنّهم تظاهروا ورموا الشرطة بالحجارة: فبدل أن يبقوا في أنغولا والبندقية في أيديهم يدافعون عنها تطلعوا إلى النزول في الفنادق الفاخرة.

ـ وكيف تَتَابعَ عملُك؟

ـ انتقلتُ بعد ذلك إلى أوبورتو. لكنّهم عينوني قبل ذلك في فيلا نوفا دِ غايا، فقد كنت في البداية هناك.

ـ ولذلك يقال إنّك أقمت هناك بعض الصداقات.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ سمعناهم يتحدّثون عن صداقات لك مع شركات استيراد وتصدير.

ـ يبدو لي أنّك تُلمح إلى شيء ما. إذا كنت تريد أن توجّه اتهامات معينة فقلها لي بوضوح لأنّني سأحملك إلى المحاكم، فهذا بالضبط ما تستحقونه أنتم الصحافيون: أن تُحملوا إلى المحاكم.

ـ لا، أيّها الرقيب.لا تغتظْ. أنا فقط أحكي لك عن شائعاتٍ يسمعها المرء هناك. ومع ذلك ثبت لنا أنّك تعرف *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*». أم أنّ هذا تلميحٌ أيضاً؟ السؤال هو هل عرفت الـ *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*»؟

ـ أعرفها كما أعرف جميع الشركات حول أوبورتو وأعرف أنّها تحتاج للحماية.

ـ لماذا؟ هل ثبت لك أنّها كانت مهدّدة؟

ـ نعم ولا. وإن لم يَشكُ المالك بشكل صريح. كنّا نعرف أنّها تحتاج لأن تكون تحت المراقبة كونها تستورد مواد عالية التقنية، مواد مرغوبة، أشياء بالملايين.

ـ قالوا لنا إنّ بضائعَ أخرى كانت تصل سرّاً في بعض حاويات التقنية العالية أيضاً. هل أنت في صورة الوضع؟

ـ لا أعرف ماذا تريد أن تقول.

ـ مخدرات، هيروئين نقي.

ـ لو حدث ذلك لعلمنا به، لأنّنا نملك مُخبرين ممتازين.

ـ وبالتالي أنت لا تعلم أنّ مخدراتٍ كانت تصل من هونغ كونغ في حاويات الـ *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*».

ـ لا أعلم. مدينتنا ليست بحاجة إلى مخدرات إنّها مدينة سليمة. نحن نحبّ الكرشة أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

ـ ومع ذلك قرأنا في الصحافة أنّه يوجدُ، هنا في أوبورتو، محلٌ يُتاجَرُ فيه بالمخدرات ويبدو أنّك صاحب المحل.

ـ هذا تلميح أرفضه بحزم. إذا كنت تقصد البوتشيني، أستطيع أن أؤكّد لك إنّه محل يرتاده الناس المتميّزون ولا تعود ملكيته إليّ بل إلى ابن حميّ، كما هو مثبت في البلدية.

ـ لكن يُقال إنّك تعمل هناك.

ـ أذهب أحياناً للمساعدة في المحاسبة. فأنا ممتاز بالأرقام، عملت دورة بالإدارة.

ـ لنعدْ إلى الـ *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*»، يبدو أنّك قمتَ في تلك الليلة بجولة مع دوريتك في تلك المنطقة. ماذا تستطيع أن توضّح لنا؟

ـ وصلنا والأنوار مضاءة، لا أتذكّر الساعة، لكن يبدو أنها كانت حوال الثانية عشرة، والمسألة تتعلّق بزيارة روتينية.

ـ ولماذا هذه الزيارة الروتينية؟

ـ لأنّ الـ *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*» تستورد، كما قلت لك، مواداً عالية التقنية، مغرية للأوغاد ومن واجبنا حمايتها.

ـ وماذا بعد؟

ـ أوقفنا السيارة خارج السياج ودخلنا. كان نور المكتب مضاءاً. أنا دخلتُ أوّلاً ووجدت داماسثِنو مونتيْرو في جريمة دامغة.

ـ وضّحْ أفضل.

ـ كان واقفاً أمام المكتب وفي يده مادة تقنية لا شكّ سرقها.

ـ فقط مادة تقنية؟

ـ فقط مادة تقنية.

ـ ألم يكن في يده أيضاً أكياس مملوءة بالمسحوق؟

ـ أنا رجل شرطة، سلطة دولة، هل تريد أن تشكّك بكلامي؟

ـ حاشى لله! وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ اعتقلنا العنصر على الفور، وعرفنا بعد ذلك أنّه داماسثِنو

مونتيِّرو. حملناه على الصعود إلى السيارة وقدناه إلى القسم.

ـ هنا يظهر تناقض أوّل. إذ يُستنتج من التصريح الأوّل أنّكم أنزلتموه على الطريق.

ـ ومن قال لك ذلك؟

ـ لنقل إنّ المحاكم مليئة بالنواجذ: أحياناً يكون ضارب الآلة الكاتبة وأخرى عاملة الهاتف، بل وأحياناً أخرى عاملة النظافة، لكنّه تفصيل تافه، المهم أنّكم في تصريحكم الأوّل أمام قاضي الجنايات أكّدتم أن داماسِثِنو مونتيِّرو لم يُحمل إلى القسم بل أنزلتموه في الطريق.

ـ هذا خطأ أخذتُ على عاتقي تصحيحه شخصياً. كان سوء فهم من رفيق لي هو الشرطي فِرّو.

ـ هل تستطيع أن توضّح لنا بشكلٍ أفضل هذا الخطأ؟

ـ كانت الدورية مؤلّفة من سيارتين. مونتيِّرو في سيارتنا وخلفنا الأخرى التي يقودها الرفيق الآخر، الشرطي فِرّو. توقّفنا في لحظة معيّنة فبدا للشرطي فِرّو أنّ مونتيِّرو نزل، لكنّه أخطأ، هل تعرف؟ الشرطي فِرّو مستجدّ، فتى شاب وينام بسهولة في السيارة، ببساطة أخطأ.

ـ لكنّك أمام قاضي الجنايات لم تكّذب فوراً العميل فِرُّو.

ـ كذّبته فيما بعد، حين قرأت تصريحه جيّداً.

ـ أليس الأصح أنّك كذّبته لأنّ الشاهد تورِّس صرّح بأنه لحق بكم بسيارته ورأى بأمّ عينه صديقه داماسِثِنو مونتيِّرو يدخل إلى القسم لكماً ورفساً؟

ـ لكماً ورفساً؟

ـ هذا هو ما يؤكّده الشاهد.

ـ يا سيدي العزيز، نحن لا نعامل الناس لكماً ورفساً. اكتب هذا بوضوح في صحيفتك: نحنُ نحترم المواطنين.

- نؤكّد أنّ جهاز الحرس الوطني سليم تماماً. لكن هل لك أن تصف أحداث تلك الليلة؟

- الأمر بسيط جدّاً، صعدنا إلى الطابق العلوي، حيث المكاتب وزنزانة الأمن، وأجرينا الاستجواب الأوّل للمتهم. بدا يائساً وراح يبكي.

- هل لمستموه؟

- وضّح.

- هل لمستموه جسديّاً؟

- نحن لا نلمس أحداً، يا سيدي، لأنّنا نحترم القوانين والدستور، إذا كان يهمّك الأمر. سأقول لك إنّ مونتيِرو كان يائساً وراح يبكي، حتى أنّنا حاولنا أن نواسيه.

- حاولتم أن تواسوه؟

- كان مسكيناً، بائساً، ينادي أمّه ويقول إنّ أباه كحوليّ. في تلك اللحظة لم يكن هناك إلاّ أنا والشرطي كوستا، لأنّ الآخر ذهب إلى الحمّام. وهكذا قلت للشرطي كوستا أن ينزل إلى الأسفل ويحضّر له فنجان قهوة، لأنّ الفتى كان يثير الشفقة، صدّقني كان يثير الشفقة فعلاً؛ ونزل العنصر كوستا ثمّ ناداني من الدرج وقال لي، انزل ، ياحضرة الرقيب فالآلة لاتعمل، والقهوة لا تخرج. وبذلك نزلت أنا أيضاً.

- وتركتما مونتيِرو وحيداً؟

- للأسف. تلك كانت خطيئتنا الوحيدة ونتحمّل عنها بالتحديد كاملَ المسؤولية، نتركُ الفتى اليائس كي نجهّز له فنجان قهوة لحظةً واحدة فقط وتقع الكارثة.

- أيّة كارثة؟ هل تستطيع أن توضّح أفضل؟

- سمعنا طلقة فجرينا إلى الأعلى. كان مونتيِرو يجثم على الأرض فاقدَ النفَس. استولى على مسدّس تركه الشرطيّ الآخر على الطاولة وأطلق النار على صدغه.

- هكذا فجأة؟

ـ حين يطلق المرءُ على نفسه طلقة في صدغه يطلقها فجأة، ألا ترى ذلك؟

ـ طبعاً، سؤالي كان فقط لتوضيح تفصيل فنيّ، لا شكّ أنّ المنتحر يطلق النار على نفسه فجأة. وماذا جرى أكثر من ذلك؟

ـ وجدنا أنفسنا أمام تلك الجثّة على الأرض. وشيء من هذا العيار، كما يمكن أن تفترض، يُحدث نوعاً من الذعر حتى بين أكثر عناصر الشرطة اعتياداً على بؤس العالم. من جهة أخرى، لم يعد باستطاعتي التحمل أكثر، فقد كنت في الخدمة منذ الثامنة صباحاً، وعليّ أن أعود إلى البيت بالقوّة. عليّ أن آخذ حقنة سوميغرين.

ـ سوميغرين؟

ـ دواء أمريكي موجود في السوق منذ زمن قصير، الدواء الوحيد الذي يستطيع أن يريحني حين لا تعودُ الشقيقة محتملة. على كلّ الأحوال ألحقت بالمحضر تقريراً طبيّاً عن الشقيقة التي أعاني منها منذ أن انفجر لغم بجانبي في أنغولا ومزّق غشاء الطبل عندي. وهكذا غادرت موقع عملي، هذا هو خطئي الوحيد، إذا أمكن تسميته خطأً، عليّ أن أردّ عليه أمام القضاء، غادرت موقع عملي، أنا الذي لم أغادره قط في ميدان المعركة في أفريقيا.

ـ بشكل تركتَ فيه جثّة داماسِنو مونتِيْرو على الأرض؟

ـ هكذا حدث. لكنّني لا أعرف ماذا فعل رفاقي.

ـ ومن كانوا؟

ـ لا أريد أن أعطيك أسماءهم. فقد أعطيتها لقاضي الجنايات، وستظهر خلال المحاكمة.

ـ وجثّة داماسِنو مونتِيْرو؟

ـ عليك أن تتفهّم حالة الفوضى والقلق عند عنصرين مسكينين يجدان نفسيهما أمام جثّة على أرض القسم! لا أبرّئهم، لكنّني أتفهّم أنّهم حملوها.

ـ لكن هذا إخفاء للجثّة.

ـ صحيح، معك حقّ، لكن وكما قلتُ لك يجب أن تتفهّم حالة القلق عند عنصرين بسيطين يجدان نفسيهما أمام حالة من هذا النوع.

ـ جثة داماسثِنو مونتِيْرو وُجِدَت مقطوعة الرأس.

ـ في الحدائق يمكن أن تحدث أشياء كثيرة هذه الأيّام...

ـ هل تريد أن تقول إنّ جسد داماسثِنو مونتِيْرو كان ما يزال يحمل رأسه فوق كتفيه عندما أُخرج من القسم؟

ـ هذا ما ستوضّحه المحاكمة. من ناحيتي أستطيع أن أقول إنّني أضع يديّ في النار من أجل فتياني. أستطيع أن أؤكّد لك أنّ عناصري ليسوا قاطعي رؤوس.

ـ هل تريد أن تقول إنّ رأس داماسثِنو مونتِيْرو قطعت في الحديقة؟

ـ في حدائق المدينة أناس كثيرون غريبو الأطوار.

ـ من الصعب القيام بهذا العمل في حديقة عامّة: حسب التشريح الشرعي تمّ قطع الرأس بطريقة محكمة، كما لو أنّه تمّ بسكين كهربائيّة والسكاكين الكهربائية تحتاج مأخذاً.

ـ إذا كنت تقول ذلك لهذا السبب فهناك سكاكين جزّارين تقطع أفضل من السكاكين الكهربائية بكثير.

ـ ثبت أيضاً أنّ جسد داماسثِنو مونتِيْرو قد تعرّض للتعذيب أيضاً. ففي صدره حروق سجائر.

ـ نحن لا ندخّن، يا سيّد، اكتب هذا في صحيفتك. لا أحد يدخّن في مكاتبي، هذه قاعدة فرضتها، بل وجعلتهم يضعون إعلانات بالمنع على الجدران. ثم ألم ترَ ما قرّرت الدولة كتابته على علب السجائر؟ «إن الدخان يؤذي الصحة جدّياً».

19

ـ مبروك، يا شاب، لقد قمتَ بعمل جيّد.

كان المحامي غائصاً في الكرسي الكبير تحت المكتبة، وتطفو في ذلك الصباح رائحة عطر غير معهودة بين الخزامى ومزيل العرق.

ـ انظر هذا النَتْنَ ـ قال السيّد فرناندو ـ مرّت البوّابةُ لا هي تتحمّل رائحة السيجار ولا أنا أتحمّل مزيلَ عرقها.

انتبه فيرمينو إلى أنّ أوراق اللعب كلها في أعمدة مكشوفة على الطاولة الخضراء.

ـ هل استطعت أن تكمل اللعبة الفردية؟ ـ سأل.

ـ تمكّنت من ذلك هذا الصباح ـ ردّ المحامي ـ يحدث هذا من حين لآخر.

ـ هذا الـ تيتانيو شخص كريه ـ علّق فيرمينو ـ ياللأشياء التي يقولها وبأي وجه وقح!

ـ وهل كنتَ تنتَظِرُ منه شيئاً أفضل؟ ـ سأل المحامي ـ إنّها الرواية التي سيُبقي عليها أمام القضاة، وبهذه الكلمات ذاتها، لأنّ من الواضح أنّ تيتانيو يملك مستوى أسلوبٍ وحيد، مع فارق أن محاضر التحقيق لا تُنشر في الصحف، بينما استطعت أنت أن تجعل

القرّاء يعرفون كيف يتكلّم الجدجد الأخضر. وبهذا صار عندي انطباع بأنّ مهمّتك انتهت.

ـ هل انتهت فعلاً؟

ـ على الأقل الآن ـ أجاب المحامي ـ لقد جُمِعَتْ جميع الوثائق وأُغْلِقَتْ المحاضر، لم يبق غير انتظار المحاكمة التي ستتم قريباً، ربّما بأسرع مما تتوقّع، وربّما ملكنا الفرصة لأن نلتقي خلال المحاكمة، من يدري.

ـ هل تعتقد أنّه سيكون شيئاً سريعاً؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ في حالات كهذه هناك إمكانيتان ـ أجاب المحامي ـ الأولى هي أن يؤجّلوا المحاكمة إلى موعد لا يأتي ويتركوها على حافة مستنقع البيروقراطية، فينساها الناس عسى أن تنفجر فضيحة وطنية أو دولية تركز عليها الصحافة كلّها. الثانية هي حلّها بأسرع ما يمكن، وأعتقد أنهم سيختارون الطريق الثاني، لأنّ عليهم أن يبرهنوا على أن العدالة سريعة وفاعلة ومؤسسات الدولة أي الشرطة، شفافة ونظيفة وديمقراطية على وجه الخصوص، هل التقطت الفكرة؟

ـ التقطتُ الفكرة ـ أجاب فيرمينو.

ـ ثمّ إنّ عندك خطيبة ـ تابع المحامي ـ ومن المناسب إلاّ تُترَك الخطيباتُ وحيداتٍ زمناً طويلاً وإلاّ وقعن في الكآبة، اذهبْ ومارِس الحبّ، فهذا أفضل ما يمكن أن يفعله من هو بعمرك.

نظر إلى فيرمينو بعينيه المستقصيتين كمن ينتظر تأكيداً. شعر فيرمينو بنفسه يحمرّ خجلاً ووافق.

ـ كما أنّ هناك دراستك عن الرواية البرتغالية لما بعد الحرب، أليس كذلك؟ هذه أيضاً مهمّة تنتظرك، مُرّ على نزل السيدة روسا واحزم حقائبك وإذا ما أسرعت وجدت أمامك قطار الثانية وثماني عشرة دقيقة، لكن لا يُنْصَح به كثيراً فهو يتوقّف حتى في اسبينيو، التالي في الثالثة وأربع وعشرين دقيقة والآخر في الرابعة واثنتي

عشرة دقيقة ثم الآخر في السادسة وعشر دقائق. تستطيع أن تتأكد من ذلك بنفسك.

ـ تعرف المواعيد عن ظهر قلب ـ قال فيرمينو ـ يتولّد لديّ انطباع بأنك كثيراً ما تأخذ هذا الخطّ.

ـ منذ خمس وعشرين سنة لم أخرج من أوبورتو ـ أجاب المحامي ـ لكنّني أحبّ مواعيد القطارات، أجد فيها بعض الأهمية.

نهض وتوجّه إلى أحدِ الرفوف الجانبية، توجد فيه كتب قديمة أنيقة التجليد. سحب كتاباً رقيقاً مجلّداً بالجلد وعليه كتابة فضية وناوله لفيرمينو. على صفحات الغفل وعلى ورقة من الرقّ طبع اسم المجلّد مع التاريخ: «ورشة سامبايو، أوبورتو 1956» تصفحه فيرمينو، كان الغلاف الأصلي الذي أبقى عليه المجلّد نوعاً من الكرتون المصفرّ الرخيص ذهب لونه ويقول بالفرنسية والألمانية والإيطالية: مواعيد القطارات السويسرية. تصفحه فيرمينو ونظر إلى المحامي متسائلاً.

ـ منذ سنوات كثيرة ـ قال السيّد فرناندو ـ حين كنتُ أدرس في جنيف، اشتريت هذا البرنامج، كانت طبعة تذكارية للسكك الحديدية السويسرية، فالقطارات السويسرية تملك دقّة هي فعلاً سويسرية، لكن أفضل ما عندهم هو أنّهم يعتبرون زيوريخ مركز العالم، مثلاً اقلب على الصفحة الرابعة بعد إعلان الفنادق والساعات.

بحث فيرمينو عن الصفحة الرابعة.

ـ توجد خريطة لأوروبا ـ قال.

ـ كلّ رحلات الخطوط الحديدية ـ أضاف السيّد فرناندو ـ محددة بأرقام متسلسلة وكل رقم يحيل إلى خطّ كل بلد أوروبيّ والصفحة المنطبقة عليه. من زيوريخ يمكن أن يجوب المرء في القطار أوروبا كلها والخطوط الحديدية السويسرية تشير إلى جميع مواعيد الارتباط. مثلاً ما رأيك بالذهاب إلى بودابست؟ اقلب على الصفحة السادسة عشرة.

بحث فيرمينو عن الصفحة السادسة عشرة.

ـ القطار إلى ڤيينا ينطلق من زيوريخ في التاسعة والربع من الرصيف الرابع ـ قال المحامي ـ هل أخطأتُ؟ التبديل إلى بودابست ، أفضل تبديل معلّم بنجمة هو في التاسعة ليلاً، لأنّه يسمح لك بأخذ القطار القادم من البندقية، ونشرة المواعيد تدلّك على خدمات القافلة، وهي في هذه الحالة أسرَّة مشتركة مع أربعة أشخاص وهي الأرخص، وعربة غرف بأسرّة مزدوجة أو فردية، عربة مطعم، وخدمة المشروبات ليلاً. لكن إذا أردت المتابعة إلى براغ الموجودة في الصفحة التالية ليس عليك إلاّ أن تختار ما تريد من بين مختلف الإمكانات التي تقدّمها لك الخطوط الحديدية الهنغارية؟ هل تتأكّدّ من ذلك.

ـ أتأكّدُ من ذلك ـ قال فيرمينو.

ـ هل تريد أن تزور الشمال الكبير؟ ـ تابع السيد فِرناندو ـ أوسلو مثلاً، مدينة شمس منتصف الليل وجائزة نوبل للسلام، الصفحة التاسعة عشرة، الانطلاق من زيوريخ في الثانية عشرة وإحدى وعشرين دقيقة من الرصيف السابع. مواعيد التبديل المتوافرة موجودة في ملاحظة أو ، ما أدراني؟ اليونان العظيمة، مسرح سيركوسا الإغريقي، اقلب على الصفحة الحادية والعشرين، الانطلاق من زيوريخ في الحادية عشرة تماماً وهناك إشارة إلى جميع نقاط الارتباط الممكنة مع القطارات الإيطالية.

ـ هل قمت بكل هذه الرحلات؟ ـ سأل فيرمينو.

ابتسم السيّد فِرناندو. أخذ سيجاراً لكنّه لم يشعله.

ـ طبعاً لا ـ ردّ ـ اقتصرت فقط على تصوّرها. بعدها عدتُ إلى أوبورتو.

ناوله فيرمينو المجلّد. أخذه السيّد فرناندو، ألقى عليه نظرة سريعة دون أن ينظر إليه فعلاً وناوله له من جديد.

ـ أعرفه عن ظهر قلب ـ قال ـ أهديه إليك.

ـ لكن ربّما كنت تُقدِّره ـ ردّ فيرمينو دون أن يدري ما يقول.

ـ أوه ـ قال السيد فرناندو ـ جميع هذه القطارات توقّفت عن العمل، ساعات سويسرية في غاية الدقة ابتلعها الزمن. أهديه إليك ذكرى هذه الأيام التي قضيناها معاً وذكرى شخصية مني إذا لم يكن تفكيري بأنّك ترغب بامتلاك ذكرى من شخصي نوعاً من الغرور.

ـ سآخذه كذكرى ـ أجاب فيرمينو ـ عفواً، أيّها المحامي، بودّي الذهاب للبحث عن شيءٍ، سأعود خلال عشر دقائق.

ـ اترك الباب مفتوحاً ـ قال المحامي ـ لا تجعلني أنهض لأضغط على الزر.

عاد فيرمينو برزمة تحت إبطه فكّها بحذر وترك الزجاجة على الطاولة الصغيرة.

ـ أودّ أن أشرب النخب معك قبل رحيلي ـ وضّح ـ للأسف الزجاجة ليست باردة.

ـ شامبانيا ـ لاحظ السيّد فِرناندو ـ لا بدّ أنّها كلّفتك ثروة كبيرة.

ـ حمّلتها على حساب الصحيفة ـ اعترف فيرمينو.

ـ اسحب التحميل ـ قال السيّد فرناندو.

ـ بعدَ كلِّ الطبعات الخاصة التي تمّت بفضل مقالاتنا، يبدو لي أنّ أدنى ما يمكن أن تفعله الصحيفة هو أن تدعونا إلى زجاجة شامبانيا ـ قال فيرمينو.

ـ مقالاتك، ـ دقّق السيد فرناندو آخذاً الكأسين ـ مقالاتك.

ـ حسن ـ تمتم فيرمينو.

رفعا الكأسين علامة النخب.

ـ أقترح أن نشرب نخب نجاح المحاكمة ـ قال فيرمينو.

شرب السيد فرناندو جرعة ولم يردّ.

ـ لا تبنِ أوهاماً كثيرةً، أيّها الشاب ـ قال وهو يضع الكأس ـ ستكون محكمة عسكرية، أراهنكَ على ما تريد.

ـ لكن هذا غير معقول ـ هتف فيرمينو.

ـ إنّه منطق القوانين ـ أجاب المحامي بهدوء ـ فالحرس الوطني هيئة عسكرية، سأعمل ما أمكن للردّ على هذا المنطق، لكنّني لا أعلق آمالاً كثيرة عليه.

ـ لكن الأمر يتعلّق بعملية قتل وحشية ـ قال فيرمينو ـ تعذيب، إساءة استخدام، فساد. ولا يتعلّق إطلاقاً بحدث حربيّ.

ـ صحيح ـ تمتم المحامي ـ ما اسم خطيبتك؟

ـ كاتارينا ـ أجاب فيرمينو.

ـ اسم جميل جدّاً ـ قال المحامي ـ وماذا تعمل؟

ـ تقدّمت الآن إلى مسابقة للعمل في المكتبة البلدية، إنّها مجازة في علم المكتبات الاقتصادية، لكنهم حتى الآن لم يجيبوها.

ـ العمل بالكتب عمل جيّد ـ تمتم المحامي.

ملأ فيرمينو الكأسين من جديد. شربا بصمت. أخذ فيرمينو الكتابَ المجلّد ونهض.

ـ يبدو لي أن ساعةَ ذهابي حانت ـ قال وتبادلا مصافحة سريعة.

ـ قدّم احتراماتي للسيّدة روسا ـ صرخ السيّد فرناندو من الخلف.

خرج فيرمينو إلى شارع روا داس فلورِس، حيث هبّت ريح منعشة تكاد تكون لاسعة. كان الهواء شديد النظافة. لاحظ أن لطخات صفراء لا تكاد تُلحظ ارتسمت على أوراق الموز. تلك هي أولى علامات الخريف.

20

سيتذكّرُ فيرمينو من يوم العمل ذاك خاصّةً إحساساته الجسدية، المحدّدة والغريبة في آنٍ معاً، كما لو أنّها لا تعنيه، وكأنّ قشرة واقية تعزله بنوعٍ من الغفوة يسجِّلُ فيها الوعيُ معلوماتِ الحواسِّ، لكنّ المخَّ لا يتمكّن من صياغتها عقلياً فتبقى طافية كنوعٍ من حالات النفسِ المبهمة: الصباح الضبابِيّ لتلك النهاية من كانونَ الأوّل الذي نزل فيه وهو يرتعدُ برداً في محطّة أوبورتو، قطارات الأطراف الصغيرة التي كانت تُنزل أوائل ركّاب الضواحي الذين ارتسم النعاس على وجوههم، رحلة سيارة الأجرة عبر المدينة الرطبة، بأبنيتها الخشنة التي بدت له كئيبةً. ثمّ الوصول إلى القصر العدلي، الشكليات البيروقراطية في الدخول، الممانعات التافهة للشرطة التي فتّشته في المدخل ولم تكن تريد السماح له بالدخول مع المسجّلة، بطاقة الصحافة هي التي أقنعتهم أخيراً، الدخول إلى القاعة الصغيرة حيث شُغِلَت جميع المقاعد. تساءل لماذا اختاروا هذه القاعة الصغيرة جدّاً لمحاكمة بهذه الأهمية، كان يعرف الجواب بوضوح ومع ذلك لم يعرف كيف يصوغه لنفسه، فقام فقط بتسجيل ملاحظة عن تلك الحالة من الإحساسات، الحادّة والرقيقة في آنٍ معاً، التي وجد نفسه فيها.

وجد مكاناً في المنصّة المخصّصة للصحافة والمحددة بسياج من الخشب ترتكز على أعمدة صغيرة داكنة وبطينة. كان ينتظر

حضور حشدٍ من كتبة التحقيقات والمصورين والفلاشات. لا شيء من هذا. عرف زميلين أو ثلاثة تبادل معهم إيماءة تحية ثمّ رأى بعض الصحافيين المجهولين، الذين ربّما يهتمون بقسم الحوادث. فهم أنّ كثيراً من الصحف ستنشر خبرها معتمدة على ملاحظات الوكالات. رأى أبوي داماسِثِنو مونتيْرو يجلسان في الصفّ الأوّل. كانت الأم متدثرة بمعطف رماديّ وتحمل في يدها منديلاً مجعّداً تجفّف به من حين لآخر عينيها. أما الوالد فيرتدي سترة طويلة غريبة بمربعات سوداء وحمراء على الطريقة الأمريكية. إلى اليمين وعلى طاولة المحامين رأى السيّد فِرناندو يدرس بعض الأوراق، وقد ترك دثار المحاماة على الطاولة ، يرتدي سترة أمريكية سوداء وفي عنقه ربطة بيضاء، تحيط بعينيه بقعتان زرقاوان عميقتان بينما تتدلّى شفته السفلى الضخمة أكثر من المعتاد، ويحرّك بين أصابع اليد اليسرى سيجاراً مُطفأً. لئونِل تورّس يكاد يكون قابعاً في مقعده وتعلوه علامات الخوف. إلى جانبه تجلس فتاة شقراء هيفاء لا بدّ أنّها زوجته.أمّا الرقيب تيتانيو سيلفا فيجلس إلى جانب الشرطيين المتهمين. كان الشرطيان باللباس الرسمي وتيتانيو سيلفا باللباس المدني، في غاية الأناقة بطقم مخطط وربطة عنق حريرية وشعرٍ ملمّع بكريم الشعر.

دخل القضاة وبدأت المحاكمة. فكّر فيرمينو بتشغيل المسجلة، لكنّه تراجع أخيراً فالقاعة ليست حسنة الصوت، وهو بعيد جدّاً والتسجيل لا بدّ سيكون سيئاً. كان من الأفضل له أن يأخذ رؤوس أقلام. أخرج الدفتر وكتب: رأس داماسِثِنو مونتيْرو الضائع. ثم لم يكتب شيئاً، اكتفى بالاستماع. لم يكتب أكثر لأنّه يعرفُ كلَّ ما كان يُقال. تلاوة تصريح عثور مانولو الغجري على الجثّة، شهادة صيّاد السمك الذي صاد الرأس بصنارات سمك اللونتشات، تقرير التشريحين الطبيين. حين تكلّم الشاهد لئونِل تورِّس كان ما يزال يعرف كلّ شيء، لأنّ المحكمة اقتصرت على سؤاله عما إذا كان يُصرّ على ما صرّح به خلال التحقيق وتورِّس أكّده ثانية. كذلك أكّد تيتانيو

سيلفا، حين جاء دوره، ما قاله سابقاً. كان شعره السبْجِيّ يلمع وشاربه النحيل يرافق حركات شفتيه الرقيقتين: طبعاً التصريح الأوّل الذي تمّ خلال مرحلة التحقيق جاء نتيجة خطأ، لأنّ العنصر الذي كان معهما في السيارة كان نَعِساً، نعاساً رهيباً، يا له من مسكين، ثمّ إنّه كان في الخدمة منذ السادسة صباحاً وهو في العشرين من عمره فقط والجسد في العشرين من العمر يحتاج للنوم، نعم، بالفعل حملوا معهم داماسيْنو مونتيْرو إلى القسم، كان منهكاً، يائساً، راح يبكي مثل طفل، كان مجرماً صغيراً، حتى المجرمون يثيرون الشفقة، وقد نَزلَ مع شرطيّ آخر إلى المطبخ ليحضّرا له فنجان قهوة. بدا للرئيس أن اثنين لتحضير القهوة شيء زائد عن الحدّ. حسن، هذا صحيح، أو بالأحرى يمكن أن تكون حقيقة، كانت تقول شفتا تيتانيو سيلفا بطلاقة وبنوع من الهمس السري، لكن عندئذ يصبح من الضروري الحديث عن الأثاث الذي تزوِّدُ به الدولةُ الأقسامَ، وهو لا يشعر بنفسه قادراً على انتقاد الدولة، فهو يقدّر حاجات الدولة، والأرصدة البائسة الموضوعة تحت تصرّف الوزارة المعنية، لكنّ تلك الآلة كانت هبةً مضى عليها تسع سنوات، وإذا ما أرادت المحكمة أن تتأكّد من ذلك فمكتب محاسبة القسم يملك الفواتير في الأرشيف، ثم إنّ آلة قهوة عندها من القِدَم تسع سنوات لا تعمل، كما يمكن أن يُفهَم، تماماً، يجب معالجتها، يجب رفع الغاز أو خفضه، وهكذا وبينما هو يحوم مع الشرطي الشاب حول الآلة ليحمل القهوة للمسكين مونتيْرو، سمعا صوت طلقة. هُرِعا إلى الأعلى، فوجدا مونتيْرو جاثياً فاقداً أنفاسه بجانب المكتب والمسدس في يده، المسدس الرسمي الذي تركه الشرطي فِرّو سهواً على المكتب. نعم، لكنّ الشرطي ليس رجلاً آلياً كما أنه يمكن للشرطي أن ينسى مسدّسه على المكتب.

ممّا تبع ذلك لم يستطع فيرمينو أن يحفظ إلاّ بعض الجمل المتفرّقة. حاول أن يوليه كلّ الانتباه الممكن لكنّ دماغه ، الذي فقد التحكم بنفسه راح يتيه على هواه ويحمله عائداً به إلى الخلف،

خارج تلك القاعة التي بدت له غير معقولة، ودون أيّ منطق زمني وجد نفسه أمام رأس مقطوع موضوع في صحن، ثمّ في مخيّم غجرٍ في يومٍ قائظ من أيّام آب، في حديقة نباتية أمام شجرة غريبة مئوية زرعها ملازم من جيش نابليون. وفي تلك اللحظة ناقشوا مرض الشقيقة عند تيتانيو سيلفا، ومن هذا أخذ فيرمينو نتفاً، تقديم تقرير طبيّ يثبت أنّ الرقيب سيلفا يعاني من شقيقة ناتجة عن خراب في طبلة الأذن سببه له لغمٌ انفجر بجانبه في أنغولا، الأمر الذي لم يَطلب بسببه تعويضاً من الدولة قط، ونتيجة هذا العذاب اضطُرَّ أن يذهب إلى البيت ليأخذ حقنة سوميغرين، تاركاً جثّة مونتِيْرو على الأرض، بعد هذا راح الشرطيان يتمتمان بنعم، وأنّهما فعلاً فهما الأمر الآن، حيثُ انتبها إلى أنّهما يمكن أن يُتَّهما بإخفاء الجثّة لكنّهما لم يُفَكِّرا في تلك الليلة بنظام العقوبات، ثمّ إنّهما لم يكونا يعرفان جيّداً قانون العقوبات، فقد كانا من الضيق ومن الذهول بحيث حملا الجثّةَ وتركاها في حديقة البلدية. وعن الأسئلة حول حروق السجائر في جثّة مونتِيْرو أخذ تيتانيو سيلفا الإجابةَ على عاتقه. وبينما كان فيرمينو يسمع كلماته الحادّة التي تبدو في آنٍ معاً مخفّفة بطبقة من القطن، انتبه إلى أنّه بدأ يتعرّق، وكأنّه يشعل ناراً بينما شفتا تيتانيو سيلفا تشرح أمام المحكمة بطلاقة كبيرة أنّه كان قد أمر بوضع إعلانات «ممنوع التدخين»، لأنّه وكما يقول العلماء وكما أمرت الدول المتحضّرة بمرسومٍ أن يوضع على علب التبغ: التبغ يسبّب السرطان. أحد ما في الصالة، ضحك بطريقة تافهة، وبغرابة، فتلقّى فيرمينو تلك القهقهة القصيرة على أنّها علامة جنون، انتبه إلى أنّ رعشة خفيفة دبّت في يده، فكتب بطريقة آلية: قهقهة. بعدها سأل الرئيسُ المحامين ما إذا كانوا يريدون بعد تدخُّل النيابة العامّة، أن يدلوا بتصريح ما مسبق؛ نهض محامي الدفاع، وهو رجل قصير، أكرش وصلف وأعلن أنّ هناك شيئاً يجب أن يثبت في محاضر المحاكمة. شيء له علاقة بالمبدأ، نعم، بالمبدأ، كان صوته جافّاً وباتّاً، حاول فيرمينو أن يوليه انتباهه، لكنّه استطاع، كما لو دفاعاً

عن بعض النزاهة النفسية عنده التي شعر أنّها في خطر من جرّاء تلك الكلمات، أن يثبت في دفتره بعض الجمل التي بدت له غير مترابطة: سلوك بطولي في حرب أفريقيا، الميدالية البرونزية للشجاعة العسكرية، تقديس العلم، الروح الوطنية العالية، الدفاع عن القيم، النضال ضد الجريمة، إخلاص للدولة. تلت ذلك وقفة، من المؤكّد أنّها دامت دقائق قليلة رغم أنّها بدت لامتناهية بالنسبة إلى فيرمينو. نوع من الحافّة حمله خلالها خياله إلى بيت أبيض على شاطئ كاسكايس وإلى وجه أبيه، إلى بحر أزرق جعّدته الأمواج البيضاء، إلى غصن سبح معه الصغير فيرمينو فوق سطح داخل برميل من الزنك. قال الرئيس: الكلمة للاتهام. نهض السيّد فرناندو، ارتدى الدثار بتراخٍ، اقترب من منصّة المحكمة، نظر إلى الجمهور وقد شحب لونه وتدلّى لحم خدّيه على جانبي وجهه مثل أذني باسّتهوند. في يده سيجار مطفأ يشيرُ به إلى نقطة في السقف وكأنه يشير إلى شيء محدَّد. « سأبدأ بسؤال أوّل أوجّهه إلى نفسي» قال السيد فرناندو: « ماذا يعني أن نكون ضدّ الموت؟»

عندئذ ضغط فيرمينو زرّ المسجّلة.

كان القطار يسري في الليل. راقب فيرمينو من النافذة عنقودَ أنوار في البعيد. ربّما كانت اسبينيو. كان قد جلس في عربة المطعم، الذي هو في الحقيقة خدمة ذاتية له مخرج في العمق. خلف طاولة العرض نادل تعلوه سيماء التعب وفي يده خرقة. اقترب النادلُ منه.

- ليلة سعيدة - قال - آسف لا يمكن الجلوس هنا دون تناول شيء.

- أحضر لي ما تشاء - قال فيرمينو - فنجان قهوة، مثلاً.

- الآلة مُطْفَأة - قال النادلُ.

- إذن مياه معدنية.

ـ آسف ـ قال النادل ـ لأنك لا تستطيع أن تتناول أيَّ شيء فالمطعم مغلق.

ـ إذن؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ لا يمكن المكوث هنا دون تناول شيء ـ كرّر النادل ـ لكنّك لا تستطيع أن تتناول شيئاً.

ـ لا أفهم هذا المنطق ـ ردّ فيرمينو.

ـ أوامر الخطوط الحديدية ـ وضّح النادلُ بسرور.

ـ إذن لماذا أنت هنا؟ ـ سأل فيرمينو بلباقة.

ـ عليّ أن أقوم بأعمال النظافة، يا سيّد ـ أجاب النادلُ ـ عليّ أن أقوم بدور النادل فقط، لأنّ هذا هو عقدي، لكنّ الخطوط الحديدية تجبرني على القيام بأعمال النظافة أيضاً، وللأسف نقابتي لا تحميني.

ـ طيّب ـ قال فيرمينو ـ سأبقى هنا خلال قيامك بأعمال النظافة، لن أزعجك بل وربّما تَرَافقنا.

هزّ النادل رأسه علامة تفهّم وابتعد. أخذ فيرمينو دفتر ملاحظاته والمسجّلة. فكّر في الكيفية التي سيكتب بها مقالاً عن المحاكمة. لم يسجّل ملاحظات، لكن لمتابعة القضية تكفيه ذاكرته. أما بالنسبة لكلام السيد فرناندو فهو في ذلك الجهاز الصغير، ربّما كان التسجيل مشوّهاً لكنه سينقله بقليل من الجهد. رأى من النافذة أنواراً أخرى: المزرعة؟ يا للشياطين، لم يعد يذكر ما إذا كانت المزرعة قبل أو بعد اسبينيو. والليل يُطبق على البلور. أخذ فيرمينو الريشة واستعدّ للاختزال. فكّر: هناك أشياء لا يوليها المرء أهمية أحياناً، وكلّ شيء في الحياة يمكن أن يكون مفيداً، مثل دورة الاختزال القديمة. أمِلَ أن يكون أسرع كفاية وضغط زر الصوت.

كان الصوت يأتي من بعيد. التسجيل سيئٌ جدّاً، والجملة تضيع في الفراغ.

«... أُكرّرُ، سؤال أطرحه أولاً على نفسي: ما معنى أن نكون

ضدّ الموت؟..

.... كلّ إنسان ضروري للآخرين
وجميع الآخرين ضروريين لكلّ واحد ....
.... والجميع
ذواتٌ متلازمة إنسانياً، كلّ إنسان هو جذر الكائن الإنساني.........
.... أكرّر الكائن
الإنساني هو نقطة الارتكاز بالنسبة للإنسان ....
إنّ تأكيد الواجبات الأدبية موجّهة أصلاً ضدّ نكران الإنسان
.... وبالتالي
خاصةُ الإنسان أن يكون ضدّ الموت، لكن وبما أنّ الإنسان لا يملك تجربة عن موته الخاص، بل عن الموت الغريب، الذي انطلاقاً منه فقط وانعكاساً يستطيع أن يتخيّله فيخاف موته الخاص ....

....

....
إنّه الأساس الأخير والشرط العصي على كلّ أخلاق إنسانية، أي، على كل واحد ....

....»

اقترب النادلُ فأطفأ فيرمينو المسجّلة.

ـ هل تصغي إلى الإذاعة؟ ـ سأل النادل.

ـ لا ـ أجاب فيرمينو ـ إنّه تسجيل قمت به هذا الصباح. محاكمة.

ـ إذا كانت محاكمة فلا بدّ أنّها مهمّة ـ قال النادلُ ـ استطعت مرّة أن أشاهد محاكمة في التلفزيون، بدت كأنّها فيلم.

ثمّ أضاف:

ـ كي تبقى هنا عليك أن تتناول شيئاً.

ـ وماذا لو تناولت شيئاً؟ ـ سأله فيرمينو ـ ما رأيك لو تناولت شيئاً؟

ـ غير ممكن ـ أجاب النادل ـ هذا ما تمنعه الخطوط الحديدية.

- وأنت، هل تعرف من تكون الخطوط الحديدية؟ - ردّ فيرمينو.

بدا الرجل متفكّراً بالموضوع. أسند المكنسة إلى جدار العربة.

- حسن - قال - أنا لا أعرف إلاّ السيّد بِدرو، الموجود في بوابة قسميَ من القطار.

- وبرأيك: هل السيّد بِدرو هو الخطوط الحديدية؟

- إطلاقاً - أجاب النادلُ - فهو على وشك التقاعد.

- إذن، لماذا لا أتناول شيئاً؟ - قال فيرمينو - لماذا لا نتناول شيئاً معاً على هذه الطاولة ونسمح لنفسنا بشيء ساخن ؟ ما رأيك؟

حكّ النادلُ رأسه.

- آلة القهوة مُطفأة، لكن يمكن وصل السخانات الكهربائية.

- فكرة جيّدة - قال فيرمينو - وماذا يمكنك أن تحضِّر على السخانات الكهربائية؟

- ما رأيك ببعض البيض المخفوق؟ - اقترح النادلُ.

- بالجامبون؟ - اقترح فيرمينو.

- بجامبون ما وراء الجبال - أجاب النادل وهو يبتعد.

ضغط فيرمينو زر التشغيل.

«*Es its ein eigentumlicher Apparat*» هذه آلة خاصّة جدّاً. هكذا كتب بالألمانية شخصٌ مجهول من براغ في عام 1914 البعيد ......

....

.... الآلة الخاصّة جدّاً التي تخلّد القانون الوحشي ....

.... وحدها آلة مستوطَنة إصلاح المجرمين أو التقدير الرهيب للحدث الرهيب الذي ستعرفه أوروبا؟...........

....

.... فظيع *أونغهور*، مسخ، مصّاص دماء يختبئ خلف القاعدة الأساس ....

.... لم يكن ذلك
الكاتب البراغي يعرف ما كان سيرتكبه ذلك الشعب الذي كتب بلغته
.... طبعاً لأنّ
قتل البشر لا يكفي .... والتعذيب
....
....
الجلاّدون ....
....
.... قبل القتل يجب تعذيب
اللحم البشري ، تشطيبه وجعله يتألّم ....
....
ستقولون وسنقول ما من أحدٍ منّا مسؤول عن الوحشية التاريخية، لكن أين تنتهي المسؤولية الفردية؟ لأنّ أحد أسس الفظاعة النظرية هو التعذيب ....
....
....
.....................................»

ما تلاه لم يكن مفهوماً، صخبٌ في العمق، همهمة بين الجمهور. ضغط فيرمينو زر التوقيف. اقترب النادل ومعه مقلاة يتصاعدُ منها بخار البيض المخفوق، كان قد حمّصَ بعض قطع الخبز المدهون بالزبدة، وضع الصحون على الطاولة.

ـ هل أطفأتها؟ ـ سأل النادل.

ـ للأسف قليل ما يُفْهم منها ـ أجاب فيرمينو ـ يضيع صوته عندما يلتفت إلى منصّة المحكمة فلا يُسمع إلا التشويش الكهربائي.

ـ لكن من المتكلّم؟ ـ سأل النادلُ.

ـ محامٍ من أوبورتو ـ أجاب فيرمينو ـ لكن لايُفهم من كلامه إلا بعض الجملً المتفرّقة.

ـ دعني أستمع إليه ـ طلب منه النادل.

ضغط فيرمينو على زر التشغيل.

«..... وبالتالي، اسمحوا لي بمثلٍ أدبيّ، لأنّ الأدبَ يساعدُ أيضاً على فهم القانون...

les machin celibataires الآلات التبتلية، كما عرّفها السرياليون الفرنسيون..... آلاتٌ هي إلغاء للحياة، لأنّهم يحوّلونها إلى فراش للموت ....

....

.... إنّ أقسام الشرطة عندنا اليوم، وأقول اليوم، في عام الفضل هذا الذي قُدِّر لنا أن نعيش فيه هي آلاتنا التبتلية ....

....

.... أبرِ آلة تلك المستوطنة المختصّة بإصلاح المجرمين أو السجائر المُطْفَأة في اللحم ....

....

....

وبقراءة تقرير مفتشي المجلس الأوروبي لحقوق الإنسان في ستراسبورغ، المكلّفين بالتأكّد من ظروف التوقيف في بلادنا المسماة هكذا متحضّرة، تقرير يقشعر له البدن عن مراكز التوقيف في أوروبا ....

....»

ضاع صوت المحامي في غرغرة غير مفهومة.

ـ كان بعيداً أكثر من اللازم ـ قال فيرمينو ـ ثمّ إنّه يخفِّض صوته أحياناً، يتمتم، كما لو أنّه يتكلّم مع نفسه.

ـ تابِع المحاولة ـ قال النادل.

ضغط فيرمينو زر التشغيل.

«..

.... كاتب معاصر كبير فسّر هذه الحكاية التنبؤية لعام 1914 مقترباً من الاستنتاجات الإنسانية التي بدأتُ بها

كلمتي ....إذا كان صحيحاً، كما يؤكّد هو، أنّ هذه الحكاية استطاعت أن تُجسّد وتبرز أشباح الحنين...

.... لكن بأيّ حنين يتعلّق الأمر؟ هل بجنّة مفقودة، بحنين للنقاء، حين لم يكن الإنسان قد تلوّث بالشرّ بعد؟ لسنا في وضع يسمح لنا بالتوضيح. لكنّنا نستطيع أن نؤكّد مع كامو أنّ الثورات الكبرى هي دائماً ميتافيزيقية وأنّ جميع المشاكل الكبرى موجودة في الشارع، كما يؤكد مستنداً إلى نيتشه...

.... هذا الرجلُ الموجود أمامنا والذي لا أستطيع إلا أن أُعَرِّفَهُ بأنه خسيس نظراً للتعذيب الذي يُمارسه، لأنّه ما من أحدٍ يستطيع أن يتصوّر ولا بشكلٍ من الأشكال أن يكون هناك من يطفئ أعقاب السجائر بجثّة، حسن ....

.... أقسام شرطتنا هذه الخالية من أيّة مراقبة قضائية وحماية شرعية والتي يعمل فيها أفراد من أمثال الرقيب تيتانيو سيلفا...»

سُمِعَت ضجّة غير مفهومة فأطفأ فيرمينو المسجّلة.

ـ حانت ساعة أكل البيض المخفوق ـ قال النادل.

ـ لم يبرد بعد ـ أجاب فيرمينو.

ـ هل تريد قليلاً من الكاتشب؟ ـ سأل النادل ـ فالجميع الآن يطلبون الكاتشب.

ـ يمكنني الاستغناء عنه تماماً ـ قال فيرمينو.

ـ أعجبتني جداً جملة: جميع المشاكل الكبرى موجودة في الشارع ـ علّق النادل ـ من قائلها؟

ـ كامو ـ ردّ فيرمينو ـ إنّه كاتب فرنسي، لكنّه يأخذها في الحقيقة عن كاتب ألماني.

ـ والمحامي؟ ـ سأل النادل من جديد ـ ما اسم المحامي؟

ـ اسمه معقّد ـ أجاب فيرمينو ـ لكنَّ الجميعَ في أوبورتو يعرفونه بالمحامي لوتون.

ـ اضغط من جديد على الزر ـ طلب النادل ـ أودّ لو أستمر بالاستماع.

ضغط فيرمينو على زر التشغيل.

«.................................. أمّا بالنسبة للمنتحِر المزعوم داماسثِنو مونتيِرو ....

....
.... جين أمِري ....
....
.... صفحاته الرائعة: كلمة بخصوص الموت الطوعي *Diskurs uber den Freitod* تعلمنا أنّ الغثيان من الحياة هو الشرط الأساسي للموت الطوعي، لكن ليس كتابه فقط ضرورياً لفهم
....
.... بل وحياته أيضاً ....
....
جين أمِري، شخص من وسط أوروبا، وُلِدَ في ڤيينا ولجأ إلى بلجيكا في نهاية الثلاثينات، نفاه الألمان عام 1940، هرب من معسكرات الاعتقال في غورس ودخل في المقاومة البلجيكية، ألقى النازيون القبض عليه من جديد وعذّبه الجستابو ثم نُفي إلى أوشفيتز وهو ما يزال على قيد الحياة...
.... لكن، ماذا يعني على قيد الحياة......
لكنّني ....
أتساءل ....
.... وقد كتب مُتَفَرّغاً بفطنةٍ للأدب

بالألمانية والفرنسية، أتذكّر مثلاً دراساته عن فلوبير وروايتين....

....

لكن هل تستطيع الكتابة أن تنقِذنا من الإهانة التي لا تُمحى؟ ....
أخيراً ينتحر في سالزبورغ عام 1978 ....

....

وبالتالي أؤكّد أنّه إذا كان داماسِتْنو مونتيِرو قد قاد يده ذاتها ضدّ نفسه، لأنّ شكوكي العميقة لا يمكن أن يصحّحها شاهد، على الرغم من أنّنا نجد أنفسنا مجبرين بكثير من الجهد على تصديق هذه الرواية...

....

.... يكون فعله اليائس نتيجة دافع، ونتيجة تعذيب تعرّض له، كما يوضّح التشريح الطبّي............

....

.... أؤكّد أنّ المسؤول هو الرقيب تيتانيو سيلفا....
.... إنّ الأساليب التفتيشية الممارسة في قسمه ....
.... مواقف كيخوتية ،
مواقفي؟ حسن، سأسمح لنفسي بإشارة أدبية أخيرة وأقول إنّه بالنسبة لجميع المشاكل الجوهرية، أي تلك التي يمكن أن تسبّب الموت أو تضاعف التلهُّف للعيش لا توجد سوى طريقتين في التفكير، طريقة باليسّ وطريقة دون كيخوتِه ....

....

.... طبعاً داماسِتْنو مونتيِرو مات بسبب القهوة كما يريدون إقناعنا...

....

لكنّ هذه الحماقة العدوانية الجديرة بـ باليسّ المسموعة في التصريحات الكرنفالية التي قام بها المتهمون تنتمي إلى العار......

....

....

العار.. العار، سأحاول

أن أوضّح فهميَ للعار ....
....».

ضغط فيرمينو زر التوقّف.

ـ الآن ساءَ التسجيل فعلاً ـ قال ـ لكنّني أؤكّد لك أنّ هذه اللحظة من خطابه يقشعر لها البدن، كان عليّ أن أسجّل ملاحظة، لكنّني لم أقدر ثمّ إنّني وثقت بهذه الخردة.

ـ شيء مؤسف ـ علّق النادل ـ وماذا بعد؟

ـ وصلنا بعد ذلك إلى الجمل الأخيرة ـ قال فيرمينو ـ استحضرَ قضية سالسِدو.

ـ ومن كان؟ ـ سأل النادل.

ـ لم أكن أعرفه ـ أجاب فيرمينو ـ قضية قذرة وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية في الثلاثينات، أظنّ ذلك، كان سالسِدو فوضوياً ألقوا به من إحدى نوافذ أقسام الشرطة الأمريكية ومرَّرتها الشرطة على أنّها حالة انتحار، وقد عرّف بتلك القضيّة في جميع أنحاء العالم محام أظنّه يُدعى غالياني، تلك كانت نهاية الخطاب، لكن وكما يمكنك أن ترى لم يبقَ في الشريط شيء منها.

نهض النادل.

ـ بعد قليل سنصل إلى لشبونة ـ قال ـ عليّ أن أذهب لأحضّر أشيائي.

ـ آتِني بالحساب ـ قال فيرمينو ـ أنا أدفعه.

ـ غير ممكن ـ اعترض النادل ـ إذ عليّ في هذه الحال أن أقطع لك تذكرة من الصندوق والآلة تشير إلى الساعة والساعة تدلّ على أنّك أكلت في ساعة لا يمكن الأكل فيها.

ـ لا أرى المنطق ـ ردّ فيرمينو.

ـ أربع بيضات مخفوقة لن توقع الخطوط الحديدية في الإفلاس

ـ استخلص النادل ـ ثمّ إنّني مدين لك برفقتك لي، فقد صارت الرحلة أقصر، الشيء الوحيد الذي يحزنني هو موضوع مسجلتك، وداعاً.

خبّأ فيرمينو المسجلة في جيبه وألقى نظرة على دفتر الملاحظات الذي تركه مفتوحاً على الطاولة. كان بياضاً. الشيء الوحيد الذي تمكّن من كتابته بشكل مستعجل كان الحكم. أعاد قراءته.

«إنّ هذه المحكمة، وعملاً بالصلاحيات التي يخوّلها بها القانون، وبعد النظر في المحاضر وسماع المتهمين والشهود ومحامي الطرفين، تدينُ بسنتي سجن كلاً من الشرطيين كوستا وفِرّو بجناية إخفاء جثّة والتقصير بالإجراءات الناظمة مع التشديد لكونها ارتُكِبَت من قبل موظفين عامين أثناء القيام بوظيفتهما. ويطلق سراحهما المشروط. كما تُعلن مسؤولية الرقيب تيتانيو سيلفا عن جناية التقصير وذلك لتركه القسم وهو في حال خدمة وتعفوه لستة أشهر من أعماله. وتبرّئه من بقية الجنايات لأنه لم يشارك فيها.»

من النافذة بدأت تظهر فرورةً أوّلُ أنوار الضواحي. أخذ فيرمينو محفظته وخرج إلى الممر. كان مقفراً. نظر إلى الساعة. القطار سيصل في ساعته المحدّدة.

21

خرج فيرمينو من كلّية الآداب وتوقّف في القسم العلوي من الدرج يمرّ بنظره على موقف السيارات بحثاً عن كاتارينا. كان نيسان يتألّق بكلّ بهائه. تأمّل فيرمينو أشجار المنبسط الجامعي الذي تنفجر عرائشه بخضرة الورق المبكّر.

خلع سترته، فالحرّ يكاد يكون صيفياً. ميّز سيارتها، هبط الدرج وهو يهزّ ورقةً في يده.

ـ تستطيعين أن تحزمي الحقائب ـ صاح بنبرة انتصارية ـ سنذهب!

ألقت كاتارينا بذراعيها حول عنقه وقبّلته.

ـ متى تبدأ؟ ـ سألت كاتارينا.

ـ منذ الآن ـ أجاب فيرمينو ـ نظريّاً نستطيع أن ننطلق غداً.

ـ هل هي لسنة؟ ـ أرادت كاتارينا أن تعرف.

ـ المنحة السنوية فاز بها ذلك الشخص العبقري ـ قال فيرمينو ـ أمّا أنا فأعطوني المنحة نصف السنوية، لكن هذا أفضل من لاشيء. ألا تعتقدين ذلك؟

فتح النافذة وعدّد وكأنّه يحلم:

ـ قوس النصر، حقول إليسيوس، متحف أورسي، المكتبة

الوطنية، الحي اللاتيني، ستة أشهر في مدينة النور، ماذا، هل نحتفل بالحدث؟

ـ لنحتفل به ـ أجابت كاتارينا ـ لكن هل تعتقد أنّه سيكون معنا من المال ما يكفي لاثنين؟

ـ المرتبات الشهرية مرتفعة كفاية ـ أجاب فيرمينو ـ طبيعي أنّ باريس مدينة غالية، لكن لي الحقّ أيضاً بقسائم الطعام في المطاعم الجامعية، لن تكون حياة مرفّهة لكنّنا سنتدبر أمرنا.

تقدّمت كاتارينا في زحام كامبو غراندِ.

ـ أين سنحتفل بها؟ ـ سألت.

ـ في التوني دوس بيفِسْ، مثلاً ـ اقترح فيرمينو ـ لكن، دوري حول البناء المدور، خذيني إلى الصحيفة، أريد أن أسوّي الأمور مع المدير حالاً، على كلٍّ حال ما زالت الساعة الثانية عشرة.

كانت عاملةُ المقسم في كرسيّ عجلاتها قد بدأت تتناول طعامها في صينية صغيرة من ورق القصدير، وتقرأ في الوقت ذاته مجلّة أسبوعية من تلك المجلات التي تعجبها.

ـ إذن تقرئين المجلة المنافسة! ـ أنّبها فيرمينو ساخراً.

كانت هيئة التحرير في ذلك الصباح في كامل تواجدها. مرّ فيرمينو متقدّما كاتارينا بين طاولات المكتب، أمام رئيس التحرير قائلاً له بلطف « صباح الخير مسيو هوبّرت» ودخل إلى مكتب المدير قارعاً البلور قرعتين صغيرتين.

ـ أعرِّفك على خطيبتي ـ قال فيرمينو.

ـ تشرّفنا ـ تمتم المدير.

جلسا على كرسيين من تلك الكراسي المعدنيّة البيضاء المعقّدة التي نثرها المعماريّ التقدميّ في كلّ مكان. كان الجوّ في غرفة المدير خانقاً كما هي العادة.

ـ لدي شيء أريد أن أتحدّث به معك، يا سيدّي المدير ـ قال فيرمينو دون أن يعرف جيّداً من أين يبدأ. وتابع بعدها مرتبكاً ـ: بودي أن اطلب منك إذناً لستة أشهر.

أشعل المدير سيجارة، نظر إليه بحيادية وقال:

ـ وضِّح أكثر.

حاول فيرمينو أن يوضّح له بأفضل ما يستطيع: المنحة التي حصل عليها، إمكانية أن يتفرّغ للبحث في باريس مع أستاذ من السوربون، طبعاً سيتخلّى عن راتبه، هذا شيء واضح، لكن إذا ترك عمله سيبقى دون ضمان اجتماعي، وهذا لا يعني أنّ الصحيفة ستدفع له ما يترتب عليه شهرياً، فهو سيدفعه من جيبه، لكنّه لا يريد أن يجد نفسه في وضع العاطل عن العمل، لأنّ العاطلين عن العمل في البلد الذي يعيشون فيه، وكما يعرف المديرُ جيّداً، يُمنَحون مساعدةً شبيهة بتلك التي تمنح للكلاب الشاردة. ثمّ إنّه سيعود بعد ستة أشهر وسيبدأ عمله المعتاد، هذا وعد قطعي.

ـ ستة أشهر شيء كثير ـ تمتم المدير ـ من يدري كم من الحالات يمكن أن تحدث في ستة أشهر.

ـ حسن ـ قال فيرمينو ـ نحن ندخل الآن في أفضل الفصول، فبعد قليل تبدأ الإجازات والناس سيذهبون إلى الشاطئ، ويبدو أنّ قتلهم لبعضهم بعضاً يقلّ، قرأتُ هذا في إحصائية، ثمّ إنّ باستطاعة السيّد سيلفا القيام بعمل المبعوث، فهو راغب بذلك.

بدا المدير متفكّراً فلم يجب. خطرت لفيرمينو فكرة مفاجئة.

ـ انظر ـ قال ـ ربّما استطعتُ أن أرسل إليك مُساهمات من باريس، فباريس مدينة تحدث فيها جرائم عاطفية كثيرة، وصحيفة عادية لا تستطيع أن تسمح لنفسها بمراسل في باريس، وأنت باستطاعتك أن تسمح لنفسك به مجاناً. تصوّر البذخ: من مراسلنا الخاص في باريس.

ـ يمكن أن يكون حلاً ـ أجاب المدير ـ لكن عليّ أن أفكّر به أكثر، غداً نتكلّم به بهدوء أكثر، دعني أفكّر به.

نهض فيرمينو وقام بحركة وداع. نهضت كاتارينا معه.

ـ آه، لحظة ـ قال المدير ـ هناك برقية لك، وصلت البارحة.

ناوله برقية، فتحها فيرمينو. كُتب فيها: «احتاج للكلام معك بشكل مستعجل. نقطة. أنتظرك غداً في مكتبي. نقطة. غير مجد استخدام الهاتف. نقطة. بمودّة فرناندو دِ مِلّو سِكِيْرا.»

قرأ فيرمينو البرقية ونظر إلى كاتارينا بارتباك. ردّت له النظرة متسائلة. قرأ فيرمينو البرقية بصوتٍ عالٍ.

ـ ما الذي يريده منّي؟ ـ سأل.

ما من أحدٍ منهما عرف ماذا يقول.

ـ ماذا أفعل؟ ـ سأل فيرمينو متوجّهاً إلى كاتارينا.

ـ أعتقد أنّ باستطاعتك الذهاب ـ أجابته.

ـ هل تعتقدين ذلك؟ ـ ردّ فيرمينو.

ـ حسن ولماذا لا، فأوبورتو ليست في نهاية العالم.

ـ واحتفالنا في توني دوس بيفِس؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ باستطاعتنا تأجيله إلى الغد ـ أجابت كاتارينا ـ نأكل لقمةً في محل حلوى فرساي ثم أرافقك إلى المحطّة. منذ قرون لم أذهب إلى محل حلوى فرساي.

كم هي مختلفة رؤية المدينة بنورٍ جميلٍ وشمسٍ مبهرة. تذكّر فيرمينو المرّة الأولى التي رأى فيها تلك المدينة في ذلك اليوم الضبابي من كانون الأوّل حين بدت له كئيبة. بينما مظهرها الآن فرح، حيوي وصاخب وأصص أفاريز شارع روا داس فلورس كلها مزهرة.

قرع فيرمينو الجرس ففُتِح الباب آلياً. كان السيّد فرناندو غائصاً في أريكة تحت المكتبة. كان في المنامة، وكأنّه استيقظ توّاً ويضع منديلاً حريرياً حول عنقه.

ـ مساء الخير، يا فتى ـ قال بنبرة جافّة ـ أشكر لك مجيئك، ارتحْ.

جلس فيرمينو.

ـ أردتَ أن تراني بشكلٍ مستعجل ـ قال ـ ما الأمر؟

ـ سنتكلّم فيما بعد بالأمر ـ أجاب السيّد فرناندو ـ لكن احكِ لي قبل ذلك عن أمورك، كيف هي خطيبتك، وهل تعاقدوا معها في المكتبة؟

ـ حتى الآن لا ـ أجاب فيرمينو.

ـ وبحثُك حول الرواية البرتغالية لما بعد الحرب ـ سأل المحامي.

ـ كتبته ـ قال فيرمينو ـ لكنّه ليس بحثاً طويلاً، إنّه صغير بحدود العشرين صفحة.

ـ هل تابعت مع لوكاتشكَ ـ سأل فِرناندو.

ـ بدّلت قليلاً في وجهة النظر ـ وضّح فيرمينو ـ. ركّزت على رواية وحيدة واعتمدت مناهج أخرى.

ـ احكِ لي. ـ قال المحامي.

ـ النشرة الجوّية في الصحف كمجازٍ للحرمان في الرواية البرتغالية في الستينات. ـ قال فيرمينو ـ هذا هو عنوان مقالتي.

ـ عنوان جيّد ـ وافق المحامي ـ عنوان جيّد فعلاً ومنهج الاستناد؟

ـ لوتمان بشكل أساسي لفكّ رموز الرسالة الخفيّة ـ وضّح فيرمينو ـ لكنّني اتبعت لوكاتش فيما يتعلّق بالجوانب السياسيّة.

ـ توليفة مهمّة ـ قال المحامي ـ لديّ فضول لقراءتها، لنرَ ما إذا كنت سترسلها إلي. وماذا أكثر؟

ـ بهذا البحث الصغير شاركت في مسابقة لمنحة في باريس وحصلت عليها ـ قبل فيرمينو ببعض الرضى ـ لديّ مشروع بحث جيّد.

ـ مهمّ ـ قال المحامي ـ وبماذا يتعلّق هذا المشروع؟

ـ بالرقابة في الأدب ـ قال فيرمينو.

ـ هَاهَهْ ـ صاح المحامي ـ أهنِّئك، ومتى تفكر بالذهاب؟

ـ بأسرع ما يمكن ـ أجاب فيرمينو ـ تبدأ المنحة حالَ قبول المرشّح لها وقد أُكّدت الموافقةُ هذا الصباح.

ـ فهمت ـ أكّد المحامي ـ ربّما جعلتك تأتي مجاناً، لم أستطع تصوّر نفسي وحيداً في هذا الظرف السعيد لي والمحرج لك.

ـ ولماذا تقول مجاناً؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ كنت بحاجة إليك ـ قال المحامي.

نهض السيّد فِرناندو واقترب من الطاولة. أخذ سيجاراً وشمّه برهةً، دون أن يقرِّر إشعاله، غاص بعدها في الصمت من جديد، ألقى رأسه إلى الخلف وراح ينظر إلى السقف.

ـ طلبتُ إعادة المحاكمة ـ قال.

نظر فيرمينو إليه مندهشاً.

ـ لكن صار الوقت متأخراً الآن، فأنت لم تفعل ذلك في لحظتها.

ـ صحيح ـ قبل المحامي ـ بدت لي آنذاك غير مجدية.

ـ والمحاكمة أُرشِفت ـ دقّق فيرمينو.

ـ صحيح ـ قال المحامي ـ سأجعلهم يعودون ويفتحونها.

ـ بأيّ سبب؟ ـ سأل فيرمينو.

بقي السيّد فرناندو صامتاً، استوى، فتح، دون أن ينهض، صواناً بجانب الكرسي الكبير، أخذ زجاجةً وكأسين.

ـ ليس *أوبورتو* خاصّاً ـ قال ـ لكنّه فاخرٌ إلى حدٍّ ما.

صبّ النبيذَ وقرّر أخيراً إشعال السيجار.

ـ لديّ شاهِد عيان ـ قال ببطءٍ ـ الأشياء التي رآها تسمح لي بإعادة النظر بالقضيّة.

ـ شاهد عيان؟ ـ ردَّد فيرمينو ـ ماذا يعني هذا؟

ـ شاهد عيان على قاتل داماسِنو مونتِيرو ـ أجاب السيّد فرناندو.

ـ ومن هو؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ يُدعى وَنْدا ـ قال السيّد فِرناندو أحد معارفي.

ـ وَنْدا؟ ـ سأل فيرمينو.

تذوّق المحامي رشفة نبيذ.

ـ وَنْدا مخلوق مسكين ـ أجاب ـ واحد من تلك المخلوقات المسكينة التي تتيه على وجه الأرض ولم توعَد بمملكة السماء. إلوْتِريو سانتوس، معروف باسم وَنْدا. إنّه مُخنّث.

ـ لا أفهم ـ قال فيرمينو.

ـ إلوْتِريو سانتوس ـ تابع السيّد فِرناندو كما لو أنّه يقرأ في بطاقة ـ اثنان وثلاثون عاماً، من إحدى ضيع جبال الماراو، ينتمي إلى أسرة من الرعاة ، اغتصبه عمّ له وهو في الحادية عشرة. رُبّي في ميتم حتى السابعة عشرة من عمره، يعمل كمفرّغ حمولة فاكهة موسمي في مصبّ الدويرو، يعمل عملاً آخر عرضياً: مساعد حفّار قبور في مقبرة البلدية، سنة من التدريب في مصح هذه المدينة العقلي نتيجة حالة اكتئاب، وهذا ما جعله يعايش ضعفاء عقول وانفصاميين في هذه المصحات النفسية اللطيفة التي تشكّل مفخرةَ بلدنا، معروف حالياً باسم وَنْدا، ومقيّد بمهنة العهر على طريق أوبورتو العام، يُعاني بين الحين والآخر من أزمة اكتئاب خفيفة، لكنّه يستطيع أن يسمح لنفسه الآن بمراجعة طبيب.

ـ تعرفه جيّداً ـ أكّد فيرمينو.

ـ كنتُ محاميها ضدّ زبون عرضي شطّبها بالسكين أثناء لقاء بينهما داخل سيارة ـ قال السيّد فرناندو ـ سادي صغير لكنّه يملك بعض المال وقد خرج وَنْدا من القضية بفائدة مقبولة.

ـ وتصريحها؟ ـ سأل فيرمينو ـ احْكِ لي تصريحها.

ـ باختصار ـ وضّح السيّد فِرناندو ـ كانت وَنْدا في الشارع

الذي تتردّد عليه. يبدو أن العمل في تلك الليلة كان قليلاً مما جعلها تنتقل إلى الشارع المجاور، الذي ليس من منطقتها وهناك اصطدمت بالقوّاد الذي يتحكّم بذلك الشارع وهاجمها. دافعت وَنْدا عن نفسها وقامت بينهما مشاجرة. مرّت من هناك دوريّة من الحرس الوطني فهرب القوّاد، بينما كانت وَنْدا طريحة على الأرض، فأخذوها وحملوها في السيارة إلى القسم، إلى زنزانة الأمن، أو بالأحرى ما يصنفونه هم على أنّه زنزانة أمن، إنّها أيّة غرفة حقيرة تتصل بالمكاتب. لكنٍ شاءت الظروف وملكت الشرطة حسّاً بالواجب وسجّلوها في سجلٍ الاعتقال الذي كتبوا فيه: إلِوْتِريو سانتوس، دخلت في الساعة الثالثة والعشرين. لم يعد باستطاعتهم التلاعب بهذا السجل.

سكت المحامي، رسم سحابات من الدخان في الجوّ وركّز نظره من جديد على السقف.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ بعدها ذهبت الدورية التي ألقت القبض عليها نظراً لانتهاء مناوبتها، وبقيت وَنْدا في الغرفة الحقيرة الملاصقة للمكاتب، فتحت السرير الفردي ونامت إلى أن استيقظت على صراخ في الثانية عشرة والنصف، فشقّت البابَ ونظرت من الشقّ فكان داماسِئِنو مونتِيِرو.

توقّف المحامي وسحق السيجارَ في المرمدة. كانت عيناه الغائرتان في الشحم تنظران عالقتين في نقطة بعيدة.

ـ كانوا قد ربطوه إلى كرسيٍّ وهو عاري الجذع والرقيب تيتانيو سيلفا يُطفئ السجائر في كرشه. وبما أنّ التدخين ممنوع في ذلك القسم فقد عملوا من داماسِئِنو مونتِيِرو مرمدة رائعة لإطفاء الأعقاب. كان تيتانيو يريد أن يعرف من الذي سرق هيروئين الإرسالية السابقة لأنّها المرّة الثانية التي يلعبون فيها هذه اللعبة، وداماسِئِنو يقسم أنّه لا يعرف وأنّها كانت سرقته الأولى من *Stones of Portugal* «*حجارة البرتغال*». في لحظة ما صرخ داماسِئِنو بأنّه سيخبر عنه، وأنّ الجميع يعرفون أنّ الرقيب تيتانيو

سيلفا يتحكّم بتجارة الهيروئين في أوبورتو، فراح تيتانيو يتلعثم وينطّ مثل ممسوس، لكنّ هذه المعلومات سطحية ومن المحتمل أن تعرفها بشكلٍ أفضل فيما بعد، أخرج مسدَّسه وأطلق بغتةً رصاصة في صدغه.

صبّ المحامي كأساً آخر صغيراً من نبيذ أوبورتو.

ـ هل يبدو لك هذا مهمّاً؟ ـ سأله.

ـ جدّاً ـ أجاب فيرمينو ـ وماذا بعد؟

ـ قال تيتانيو للشرطي كوستا أن يهبط للأسفل ويأتي بالسكين الكهربائي. عاد الشرطي كوستا بها فقال له الرقيب تيتانيو: اقطعْ رأسه وارمِ به في النهر وسنهتمّ أنا وفِرّو بالجسد.

نظر إليه المحامي بعينيه السريعتي الحركة وسأل:

ـ هل يكفيك هذا؟

ـ يكفيني ـ أجاب ـ لكن وأنا؟

ـ انظر ـ وضّح السيّد فِرناندو ـ أنا أعرفُ كلّ هذه الأشياء، لكنّني لا أستطيع نشرها في صحيفة. وبما أنّني رافقت هذا الصباح وَنْدا لتقدّم شكواها أمام السلطات صاحبة الاختصاص فإنّني أودّ أن تحكي وَنْدا لصحيفةٍ ما كلَّ ما تعرفُه، لنقل إنّ الأمر يتعلّق بإجراء احترازي نظراً لحوادث المرور الكثيرة التي تقع في هذا البلد.

ـ فهمت ـ قال فيرمينو ـ وأين أستطيع أن أعثر على هذه الـ وَنْدا؟

ـ لقد خبأتها في مزرعة أخي ـ أجاب السيّد فرناندو ـ فهي هناك في أمان.

ـ ومتى أستطيع التحدّث إليها؟ ـ سأل فيرمينو.

ـ الآن حالاً ـ وضّح المحامي ـ لكن من الأفضل أن تذهب وحدكَ إلى هناك، إذا رغبت هتفتُ لمانوِل ليرافقك في سيارتي.

ـ حسن ـ قال فيرمينو.

هتف المحامي للسيّد مانوِل.

ـ سيتأخر فقط الوقت الذي يستغرقه إخراج السيّارة من المرآب ـ قال وهو يضع السمّاعة ـ ليس أكثر من عشر دقائق.

ـ سأخرج وأنتظره في الشارع ـ قال فيرمينو ـ هواء اليوم لطيف بشكل استثنائي، هل شممت عبق الطبيعة، أيّها المحامي؟

ـ ومِنحتُك؟ ـ سأل السيّد فرناندو.

ـ بَهْ ـ قال فيرمينو ـ دائماً هناك وقت لذلك، فهي تستمرّ ستّة أشهر، ولا همّ إن أضعت بعض الأيّام، بعدها سأهتف لخطيبتي.

فتح البابَ وقام بحركة من يخرج. لكنّه توقّف في العتبة.

ـ أيّها المحامي ـ قال فيرمينو ـ لا أحد سيصدّق هذا الشاهِد.

ـ هل تعتقد ذلك؟ ـ سأل المحامي.

ـ مخنّث بثياب امرأة ـ قال فيرمينو ـ مصح عقلي، مُسَجَّل عاهر، تصوّر ذلك؟

وبدأ يُغلق الباب. أوقفه السيد فرناندو بحركة من يده. نهض بصعوبة، تقدّم نحو وسط الغرفة. صوّب سبّابته إلى السقف وكأنّه يتوجّه إلى الهواء، ثمّ صوّبها إلى فيرمينو ووضعها على صدره ذاته.

ـ إنّها إنسان ـ قال ـ تذكّر ذلك، أيّها الشاب، هي إنسان قبل كلّ شيء.

ثم تابع:

ـ حاولْ أن تكون لطيفاً معها، كُنْ كثيرَ اللباقة، فـ وَنْدا مخلوق هشّ مثل البلور، وكلمة واحدة خارجة عن السياق توقعه في أزمة بكاء.

هلسينكي 30 تشرين الأوّل 1996

ملاحظة

الشخصيات، والأماكن والحالات الموصوفة هنا ثمرة الخيال الروائي. نقطة الانطلاق وحدها حقيقية: ليلة الرابع والعشرين من أيّار من العام 1996، اغتيل كارلوس روسا، المواطن البرتغالي، ابن الخامسة والعشرين في ظروف غامضة في قسم الحرس الوطني في ساكافِم، من ضواحي لشبونة وعُثِرَ على جثّته في حديقة عامّة وقد قُطِع رأسه وعلته علامات سوء معاملة.

بالنسبة إلى بعض الموضوعات القضائية في خلفية هذه الرواية، فقد كانت رائعة بالنسبة إليّ أحاديثي مع القاضي أنطونيو كاسِّسِ، رئيس محكمة الجنايات الدولية في لاهاي، وكذلك قراءتي لكتابه: «الإنسان ـ اللا إنسان. الاعتقال والتعذيب المريع في أوروبا اليوم».

أيضا هذا الكتاب مدين إلى حدٍّ ما إلى ذلك الذي أسميه مانولو الغجري، الشخصية الخيالية، أو بالأحرى الكائن الجمعي المجسّد بالكائن الفردي الغائص في قصّة هو غريب عنها شخصياً، لكنّه يشارك في بعض القصص التي سمعتها من أفواه عجائز غجريين ذات مساء بعيد في جاناس، خلال الاحتفال بمباركة القطيع، حين كان الشعب الرحالة ما يزال يملك جياداً.

أشكرُ دانيلو ثولو على معلومته القيّمة عن فلسفة القانون التي

تلطّف وقدّمها إليّ، وكذلك باولا سبينِسي وماسّيمو ماريانِتّي اللذين نقلا المخطوط الأصلي على الآلة الكاتبة.

بقي أن أقول فقط إنّ داماسِتِنو مونتِيْرو هو اسم شارع من حيٍّ شعبيّ في لشبونة ملكتُ فرصةَ العيش فيه، وأن الجمل الأولى من كلمة السيد فِرناندو هي للفيلسوف ماريو روسّي. بقيّة الخطاب لاتنتمي إلاّ إلى ثقافة وقناعات شخصيّتي.

أ . ت.

من إصدارات الدار

* وليمة لأعشاب البحر	حيدر حيدر
* مرايا النار	حيدر حيدر
* غسق الآلهة	حيدر حيدر
* شموس الغجر	حيدر حيدر
* حكايا النورس المهاجر	حيدر حيدر
* الومض	حيدر حيدر
* المخطوط القرمزي	أنطونيو غالا
* الوله التركي	أنطونيو غالا
* النبع الكبير	لطف الله حيدر
* سلالم الشرق	أمين معلوف
* القرن الأول بعد بياتريس	أمين معلوف
* الخطة اللانهائية	إيزابيل ألليندي
* بيريرا يدّعي	أنطونيو تابوكي
* أحلام النساء الحريم	فاطمة المرنيسي
* بوّابة الجنّة	حسن سامي يوسف
* الهويّة	ميلان كونديرا

* المزحة	ميلان كونديرا
* البطء	ميلان كونديرا
* وردة سوداء بلا عطر	جمال الدين بن شيخ
* صلاة الغائب	الطاهر بن جلون
* الكاتب العمومي	الطاهر بن جلون
* الرجل المحطم	الطاهر بن جلون
* الحب الأول الحب الأخير	الطاهر بن جلون
* ليلة الغلطة	الطاهر بن جلون
* العنصرية كما شرحتها لابنتي	الطاهر بن جلون
* علي باي العباسي	رامون مايراتا
* قصة النورس والقط الذي علمه الطيران	لويس سبولبيدا
* فردوس	توني موريسون
* الحمامة	باتريك زوسكيند



رأس داماسشنو مونتيرو الضائع

الرواية التي بين أيدينا تُعالج موضوعاً يحدث في البرتغال في المرحلة اللاحقة على الدكتاتورية، في مرحلة الديمقراطية، لكنّها الديمقراطية التي ما تزال مؤسّساتها بأيدي من يعتبرون استمراراً للعهد السابق، سواء على صعيد العقلية التسلطية الموروثة عن العهد السابق أو على صعيد التفكير عند هؤلاء. لذلك نجدُ أنّ الهمّ الأساسي الذي تنطوي عليه الرواية هو الحرّية والقمع، والصحافي يلعب دوراً مهمّاً في كشف الحقائق، تتالي الأحداث، التي تظهر من خلال التحقيق الصحفي.

إنّ الموضوع الأساسي الذي يشكل مادة الرواية هو التعذيب الوحشي الذي تمارسه أجهزة الشرطة تجاه الطبقات الاجتماعية المسحوقة أو الأقليات العرقية المهمّشة. وقد استطاع الكاتب بفعل خياله الروائي العجيب أن يحوّل المعلومات أو الأحداث من واقعها الاجتماعي الموضوعي إلى الواقع الروائي الذي أبرز فيه شخصيات مهمّة: الصحافي فيرمينو، الشاب الذي يحاول أن تكون له شخصيته وأسلوبه، والمحامي، فِرناندو دِ مِلو سِكِيْرا، الذي لا أحد يعرفه باسمه والجميع يعرفونه بلقبه: لوتون، الفوضوي، الميتافيزيقي الدارس للفلسفة الألمانية، وريث الأرستقراطيّة البرتغالية السابقة، الخائن لطبقته وموروثها الفكري، المنتمي للمسحوقين والباحث عن خلاصهم. إنّ همّ لوتون الأساسي هو العمل ضدّ الخضوع للقواعد، التي أرستها الأرستقراطيّة الأوروبية، ضدّ الاستبداد، وضد الاستسلام للاستبداد، بل وملاحقته بكلّ السبل الفاضحة والمعرّية وهي وسائل الإعلام في هذه الحالة، لإخراج القضية من يد القوى المعادية للديمقراطية.

لقد استطاع أنطونيو تابوكي، مدرِّس مادّة الإيبرولوجيا (أو الدراسات الإيبرية)، التي تشمل إسبانيا والبرتغال، في جامعة البندقيّة، المولود في البندقيّة عام 1943 أن يفرضَ نفسه كواحدٍ من أهمّ الكتاب الإيطاليين بين أبناء جيله كما استطاع أن يحقّق حضوراً عالمياً في عالم الرواية.

الناشر